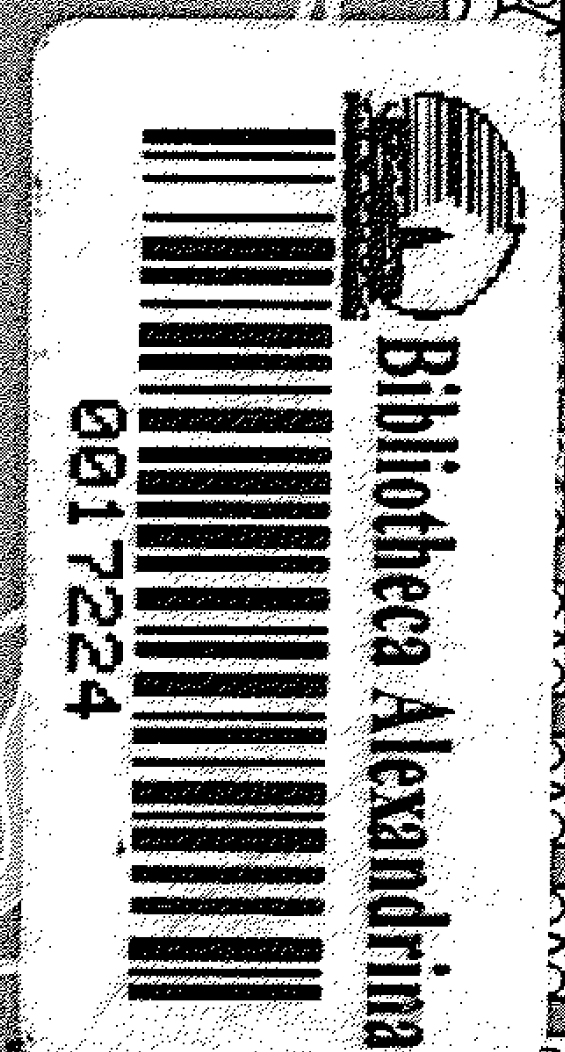
المنظور الإسلامي للثقافة .. والتربية

(دراسة في اجتماعيات التربية)

تأليف

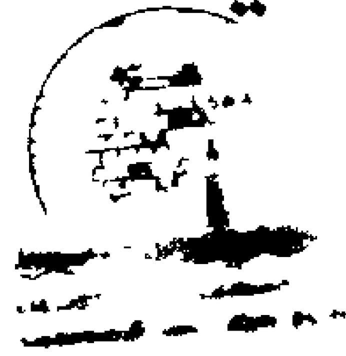
أ. د. محمد عبد العليم مرسي



مكتبة العبيكان

المنظور الإسلامي للثقافة .. والتربية

(دراسة في اجتماعيات التربية)



تأليف

أ. د. محمد عبد العليم مرسي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

مرسي ، محمد عبد العليم

المنظور الإسلامي للثقافة والتربية ـ الرياض .

. . . ص؛ . . . سم

ردمك : ٤ ـ ٢٢٢ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الثقافة الإسلامية أ ـ العنوان

ديوي ٢١٤ ١٦/٣٤٢٩

رقم الإيداع : ١٦/٣٤٢٩
ردمك : ٤ ـ ٢٢٢ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ/١٩٩٦م

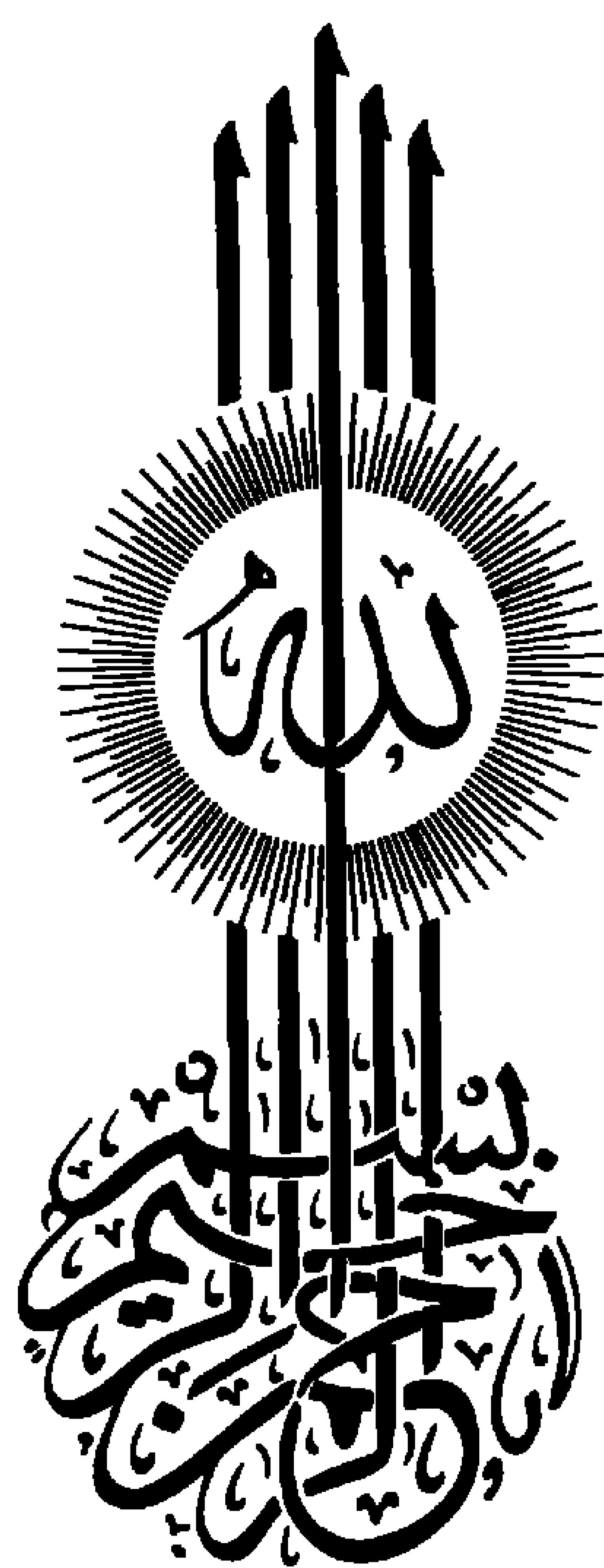
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
حادي عشر: المحصلة النهائية	١٤٧
ثاني عشر: كنا نتنادى	١٤٧
* الفصل العاشر: التربية... والثقافة:	١٥١
مدخل	١٥٣
العلاقة بين الثقافة والتربية	١٥٧
الربط المحدود والقاصر بين الثقافة والتربية	١٥٨
العلاقة بين الثقافة والتربية بمعنيهما الشاملين	١٦٠
أولاً: دور المؤسسات التربوية.. جميعها	١٦٠
نماذج تربوية من حياة الرسول ﷺ.	١٦٢
ثانياً: التربية والتأكيد على النواحي الروحية والفكرية والعاطفية	١٦٤
ثالثاً: التربية.. وماذا يبقى مع الفرد حتى آخر لحظة في عمره	١٦٨
رابعاً: ينبغي أن تكون التربية في مثل ديناميكية الثقافة	١٧١
خامساً: التربية وقيم المجتمع	١٧٤
سادساً: ضرورة شمول التربية لكل طوائف المجتمع	١٧٨
سابعاً: العلاقة بين التربية والثقافة	١٧٩
ثامناً: التكامل في التربية لمواجهة التكامل في الثقافة	١٨٠
* الفصل الحادي عشر: التربية... والغزو الثقافي	١٨٥
مدخل	١٨٧
أولاً: ابتلاء معظم بلاد المسلمين بالغزو الثقافي.. ودور التربية	١٩٠
ثانياً: التربية.. وظاهرة استدعاء الغزو الثقافي	١٩٤
ثالثاً: التربية.. وظاهرة كثرة مؤسسات الغزو الثقافي	١٩٧
رابعاً: الغزو الثقافي والصور التي يقدمها للمسلمين.. ودور التربية	١٩٩
خامساً: التربية في مواجهتها لآثار الإعلام	٢٠٣
١ - تكامل أهداف الإعلام	٢٠٤
٢ - التنسيق بين الإعلاميين والتربويين	٢٠٥
٣ - الإطار العام للإعلام	٢٠٦
٤ - الإعلام الديني	٢٠٦

الموضوع	الصفحة

مقدمة الكتاب :

في مقدمة كتابي « الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج .. نظرة إسلامية » قلت ما يلي :

« الثقافة .. والخليج .. والغزو الثقافي.. موضوعات شائقة.. شائكة.. في الوقت ذاته.. !! الكتابات فيها كثيرة ومتنوعة ، بعضها يغلب عليه الحماس الذي يفقده موضوعيته، والبعض الآخر سطحي تمتلئ به أعمدة الصحف، ويطرق أسماعنا عبر الأثير ، وقليلة هي الدراسات المتعمقة التي يجهد فيها أصحابها أنفسهم قراءة.. وبحثًا.. واطلاعًا.. وتنقيبًا.

منذ أربع سنوات ونيف كان الخليج على كل لسان، وفي كل أذن ، وتحت كل بصر، وكان الإعلام العالمي بقضه وقضيضه هنا ، على أرض الخليج، وحول تلك الأرض ، آلاف المراسلين والمصورين والمعلقين والمحللين، يرسلون كل يوم، بل كل ساعة ولحظة أخبار أهل الخليج من منعطفهم الخطير الذي قادهم إليه واحد يفترض أنه من بينهم.

كان « صدام حسين » قد أقدم على فعلته النكراء .. غزو الكويت، فأثار فزع الجميع، خليجيين.. وعربًا.. ومسلمين، لخوفهم على إخوان لهم في الدين والعروبة، وقد هزتهم من الأعماق أنباء لا يكاد يصدقها عقل.. من قتل إلى سحل .. ومن اغتصاب إلى نهب .. ومن سرقة إلى تعذيب .. إلى آخر سلسلة اللاإنسانيات المفزعة المعروفة.

كما خشيت طائفة منهم أن تنساح القوات البعثية في الأراضي السعودية ، وكانت نذر ذلك ظاهرة للعيان على شكل آلاف الدبابات والصواريخ التي حركها النظام البعثي العراقي المجنون على الحدود العراقية السعودية.

وللملكة العربية السعودية وضع خاص في نفوس المسلمين ، باتساع العالم لاحتضانها ثاني القبلتين، حيث المسجد الحرام في مكة المكرمة، وثاني الحرمين الشريفين حيث مسجد الرسول ﷺ ، وحيث عناية آل سعود بهما محل تقدير كل مسلم غيور ، فكانت صدمة للمشاعر أن يتعرض لأمن ذلك البلد معتد غشيم.

كما أن هناك قوى عالمية أخرى فزعت لما جرى، ولكن لأسباب مختلفة، لأسباب مادية بحتة تمثلت في الحرص على البترول ، ذلك الذهب الأسود الذي يدير مصانعهم والمزارع، والذي يحرك جيوشهم والأساطيل ، والذي يحيل شتاءهم وثلوجه دفئًا، كما يحيل صيفهم وحرارته برداً ولطفًا، كما أنه مسؤول - خاصة حين تنخفض أسعاره - عن انتعاش اقتصادهم، ورواج تجارتهم، وهو متهم بغير ذلك حين يرفع أصحابه أسعاره، وحين يحاولون الحصول على بعض حقوقهم..!!

يضاف إلى ذلك ، من وجهة نظر صناع الاستراتيجية العالمية وراسمي سياساتها، أن بادرة ظهور قوة محلية تهدد الأصغر منها والأضعف أمر مرفوض في عصر الأمم المتحدة والنظام الدولي الجديد الذي يحتكر القوة لنفسه، ويرفض أن يشاركه فيها غيره.

ثم إن المنطقة - كلها - بما فيها من آبار النفط ، وبما تطل عليه من ممرات مائية دولية ، وبما تتحكم فيه من طرق للتجارة حساسة بالنسبة لكثيرين، كان هذا هو وضعها عبر قرون الزمان، وهو لا يزال كذلك حتى وقتنا الراهن، وسوف يظل كذلك لفترات من الزمان قادمة، طالما كانت هناك مناطق للمواد الخام.. في جهة، ومناطق أخرى للتصنيع، وشركات عملاقة عبر قارية Transcontinental للتجارة والاحتكار.. في جهة أخرى ، والثروات تصب من عرق الفقراء الكادحين في جيوب الأثرياء المتخمة..!!

وأهل الخليج أنفسهم، بامتداد شطآن ذلك الخليج، ومن حوله، مجتمع واحد يكاد يتماثل في كل شيئ، دينهم الإسلام الذي جاء به خاتم المرسلين، محمد بن عبدالله ﷺ ، وقد خرجت منهم ذات يوم ﴿ خير أمة أخرجت للناس﴾ بنص القرآن العظيم.

قيمهم واحدة .. وكذا عاداتهم .. تقاليدهم عريقة .. وكذا أصولهم .. عاشوا في هذه المنطقة من العالم يتقاسمون الرزق فيها ، منذ أن كان شظف العيش وقسوة الحياة هما مظهرا الوجود فيها، وهم يعيشون فيها بعد أن أغدق عليهم ربهم رزقًا وافراً جاءهم من تحت الأرض.

جاءتهم النعمة من ربهم فخططوا لاستثمارها لخير مجتمعاتهم، وفي أقل من ربع قرن من الزمان تغيرت صور الحياة على أرض الخليج الذي كان هادئًا ساكنًا.. فعرفت أجواؤه أزيز الطائرات العملاقة ، بل ومرقت في تلك الأجواء الصواريخ المرعبة المدمرة، وأحاطت بشطآنه حاملات الطائرات والغواصات والفرقاطات وغيرها ..!

وراح سكون الصحراء وهدوء خطوطها الذهبية، ربما إلى الأبد، لتحل محلها شبكات هائلة من الطرق ربطت أطراف المنطقة ببعضها، ومدت خطوط للبرق والبريد والهاتف جعلت الخليج في قلب العالم وعقله وسمعه وبصره.. في آن واحد.

وانتشر التعليم في مدن وقرى وهجر المنطقة كلها، وشع نوره على نسبة كبرى من أبناء الخليج، من مدارس وجامعات ومعاهد.. من كل شكل ولون، ولم يكتف الخليجيون بالعلم يعطى لهم في مدارسهم وجامعاتهم، ويتعاقد مع آلاف المعلمين والأساتذة يحضرون إليهم في من بلاد إخوان لهم في الدين والعروبة، وإنما ذهبوا يطلبونه في مظانه خارج حدودهم.. في كل بقعة من الأرض ظنوا فيها فائدة.

ولأن خططهم التنموية كانت طموحة وسريعة، فإنهم لم ينتظروا حتى تكوّن منهم طوائف تقوم بأعبائها الاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية ، والثقافية، وإنما سارعوا باستيراد الآلاف من العلماء والخبراء والأطباء والصيادلة والمهندسين والعمال، بل وكذا الزراع ، من كل مكان على وجه البسيطة، حتى وصلوا إلى مضارب البدو ذاتها..!!

وتغير شكل الحياة على أرض الخليج، وكان حتمًا أن يتغير .. بعد كل

هذا.. تغيرت الأرض.. وتغير المسكن ، ظهر الزرع .. وعمرت المدن، تقاربت المسافات، وانفتح الخليجي على العالم ، احتك بنوعيات من البشر ما سمع آباؤه وأجداده عنهم من قبل.. أتوا إليه على أرضه في مشروعات عملاقة، وذهب هو إليهم في بلادهم يطلب علما حينًا، وسياحة حينًا آخر، وأموراً أخرى في بعض الأحيان..

تغير الإنسان في الخليج.. لاشك..تغيرت الثقافة إذن..

ودخلتها عناصر وافدة ما كان لأحد بها هنا من عهد..

والثقافة ، في أي مجتمع ، مرادفة للشخصية.. شخصية الفرد ، وكذا شخصية المجتمع.. والثقافة التي نعنيها هنا هي الثقافة الشاملة، بمعناها الواسع العريض الذي يشتمل على كل شيء في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات.

فالنواحي الروحية والفكرية والعاطفية مكوّن أساسي فيها، والجوانب المادية لا يمكن إغفالها منها، وكلها تتكامل في بناء شخصية الإنسان ، كما تتكامل في بناء شخصية المجتمع، والنتيجة المنطقية ، والمحصلة الأخيرة أنها تصنع الإنسان.. على الرغم من أنه هو بذاته .. صانعها ومبدعها ..!!

وهي - كما نعلم - مستمرة على الرغم من فناء الإنسان، لأن وجودها مرتبط بالجماعة.. لا بفرد بعينه، ولأنها تكتسب بالتعلم والمحاكاة، ولأنها ديناميكية متحركة فإنها تنتشر بين طوائف المجتمع وجماعاته، وتلوّن سلوكياتهم وطبائعهم فيعرفون بها، وتكون علاقاتهم وتفاعلاتهم دالة عليهم، فأينما حلّوا أو رحلوا رحلت معهم وهي حطت حيث حطوا، ولذا يميزهم الآخرون ويتعرفون عليهم من خلالها، بل ويحكمون عليهم من سماتها المتمثلة في أقوالهم والأفعال .. في مأكل، كما في مشرب ، في فنون يبدعونها، كما في إبداعات يستمتعون بها.. في كل شيئ.

ولأن أهل الخليج تقع بلادهم على شطآن الخيج، فقد تأثروا بما أتاهم عبر ذلك الخليج، ولما مرَّ به ، فهم لم ينغلقوا على أنفسهم، كما أنهم استفادوا في ثقافتهم من الحضارات التي تواترت عليهم عبر قرون التاريخ، ومواطنهم - كما

سبق القول ـ تتوسط مهادا للحضارات القديمة أثرت في العالم كله، من حضارة المصريين القدماء، ربما نقلت إليهم عبر بلاد « بنط » قريبًا من القرن الإفريقي، إلى حضارة بابل وآشور التي لا يفصلها عنهم شيئ يذكر.. إلى حضارتي الصين والهند، وكان المحيط الهندي، ومن ثم الخليج العربي خير موصل لها وناقل.

وجاء الدين الإسلامي العظيم إلى قلب الجزيرة العربية، وقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقعة مباركة فيها لتكون مهبط الرسالة ، ومنبع النور، واختار محمداً ﷺ ، ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، ليعلّم من حوله من البشر رسالة السماء كي يحملوها إلى شتى بقاع المعمورة.

ومع رسالة الإسلام صبغت الثقافة العربية بها، فدعمت القيم الطيبة فيها، وأزيحت منها واستبعدت عناصر سيئة رديئة كانت متلازمة فيها ، ظهرت فيها الجوانب الروحية كأوضح ما تكون، وتجلت فيها قيم ندر أن توجد في ثقافة أخرى وأن تتأصل.

منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام قال لهم القرآن الكريم عن الوالدين ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهم قولاً كريمًا ، واخفض لهم جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ فتماسكت الأسرة ، وارتفع قدر الوالدين خاصة ، وكبار السن عامة ، في مجتمع الجزيرة العربية ، ولايزال حتى الآن.. إلا فيما ندر، والنادر لا يقاس عليه ولا يعتبر. وقس على ذلك أموراً كثيرة، وقيما أخرى عديدة لا تزال شائعة ومنتشرة بين أهل الخليج .

ولكن..

ولكن التغير بدأ يمس أهل الخليج، كما مس أرضهم، فمع الثراء الكبير، ومع أدوات الثقافة وناقلاتها، من راديو وتليفزيون وفيديو، ومع وصول البث المباشر، وكذا مع السفر للخارج ، والاحتكاك بثقافات أخرى مختلفة ومغايرة كان حتما أن يحدث التغير، وأن تتأثر قطاعات من مجتمعات الخليج، وخاصة من الشباب صغار السن.

كما أن الحياة المادية بدأت تطفو على السطح وتؤثر في قيم البعض، وبدا وكأن الإسراف صار علامة على سلوكيات قطاعات لا يستهان بها من أبناء المنطقة ، وكأن الاقتناء المادي في حد ذاته وقد صار هدفًا يسعى لتحقيقه، كما أن الانبهار بالغرب ، وكذا بأستاذية الحضارة الغربية أصبح واضحًا في فهم البعض، وفي سلوكياتهم، مما ينذر بتبعية وشيكة لتلك الثقافة الغربية المادية، تلك التي نختلف معها في كثير.

كما بدت هناك في بعض مناطق الخليج ، علامات واضحة على « غزو فكري » و« ثقافي »، جاءت نتيجة لتدبير وتخطيط من جهات بعينها وضعت المنطقة وأهلها في حساباتها ومخططاتها ، وبدأت تحاصرها ، بالإذاعة، كما بالصحيفة ، بالتليفزيون كما بالقمر الصناعي، بالمدرسة الأجنبية ، كما بالكنيسة، بالمعلم القسيس، كما بالمنهج المنحرف، بالنشاط المدرسي المشبوه، كما في النشاط اللاصفي الذي وصل إليه فزلزله ، بل وسحب بعض السذج إلى ساحات الكنائس.. دون مداراة أو مواراة ..!!

ولأن الله ـ جلت قدرته ـ من ورائهم محيط .. فإن الجزيرة التي بزغت منها شمس الإسلام أنجبت طوائف من الرجال والشباب الذين أنار الله بصائرهم والأفهام، بنور اليقين، فتنبهوا لخطورة الغزوة الثقافية الكبرى التي استهدفت الدين ، فوقفوا يحذرون قومهم منه، وبدأوا يعلنون الحرب على ممارسات الغزاة ويكشفونها للناس، من خلال شريط أو كتيب ، من فوق منبر مسجد ، أو في صحيفة أو مجلة ملتزمة، بل إن منهم من أخذه الحماس فحمل دعوة الإسلام ، وراح يبشر بها.. هناك.. في دار الغرب الغازي ذاته، حتى صرخ قائلهم محذراً غربه المنصِّر أن يا أيها المنصرون عودوا إلى بلادكم لتدافعوا عنها ضد مآذن

المساجد التي بدأت ترتفع فيها بينما أنتم توهمون أنفسكم بتنصير المسلمين(*)..!!

(*) مما يذكر فيشكر في هذا المجال أن نقرأ عن رجالات الخليج ، وأهل الحصافة فيه، حينما تنبهوا لذلك «الغزو الثقافي» المحموم، فوضعوا له من الخطط العلمية ما يكسر حدته ، وما يوقف فعل سمه، وذلك حين قرر العلماء ورجال التربية في المملكة العربية السعودية ، من خلال تطبيق سياسة التعليم في المملكة ، وذلك على شكل مقررات تدرس في أقسام علمية، أنشئت خصيصاً لهذا الغرض في الجامعات السعودية ، هي أقسام « الثقافة الإسلامية ».

وطلاب الجامعات وطالباتهم يمرون جميعاً من خلال مقررات تلك الأقسام فيفهمون مخاطر « الغزو الثقافي » ومنطلقاته، ومن ثم يتحصنون ضدها ، ويمكن لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع أن يعود لأدلة الجامعات، كما هو الحال في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فيقرأ مقررات متعمقة مكثفة مثل :

١- التبشير ووسائله.
٢- الاتجاهات الفكرية المعاصرة.
٣- التنصير والاستشراق.
٤- الفكر الاستشراقي ومدارسه.
٥- مؤسسات الاستشراق وأعلامه،
٦- الفكر التنصيري ومنظماته.
٧- شبهات المستشرقين.
٨- المؤسسات الاستشراقية في الغرب والشرق.
٩- أثر الاستشراق في العالم الإسلامي.
١٠- اليهودية والنصرانية المعاصرة.
١١- الكنائس النصرانية في الغرب والشرق.
١٢- أثر التنصير ومواقف المسلمين منه.
١٣- المستشرقون والقرآن الكريم.
١٤- المستشرقون والسنة.
١٥- المستشرقون والفقه وأصوله.
١٦- المستشرقون والدراسات الإنسانية.
١٧- المستشرقون واللغة العربية.
١٨- المستشرقون والأدب العربي. (دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

وإذا كانت هذه المقررات تدرس لآلاف الطلاب، فإن هناك أعداداً كثيرة منهم قد تخصصت في بعضها ، وبالذات في قسم الثقافة الإسلامية ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كما في غيرها من الجامعات السعودية مما أخرج للأمة أعداداً لا بأس بها من الباحثين الجادين الذين نالوا درجاتهم العلمية في الماجستير والدكتوراة ، ويكفي دليلاً على ذلك رسالتا الماجستير اللتين استعنا بهما في نهاية هذه الدراسة ، وهما يوضحان بجلاء المعنى الذي قصدناه.

كل هذه الأمور، وغيرها كثير ، مسّت في سطور هذا الكتاب « الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج » والهدف من ذلك توضيح الرؤية، وبيان الواقع الثقافي في مجتمعات الخليج العربي، ولأن الثقافة موضوع عميق.. عميق، فإنه من الإنصاف والإقرار بالحقيقة أن نقول بأن هذا الكتاب لم يشتمل على كل شيئ في ذلك الموضوع الحساس والمهم، وإنما هو جهد فرد له من صفات البشر نقص جهودهم، ولكن به ـ على الأقل ـ جهد باحث أراد أن يدل قومه على ثغرة في الجدار، عسى الله أن يقيض لها من يحرسها ويسدها، ويقف من خلفها مدافعًا، والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل... وهو نعم المولى ونعم النصير... سبحانه.

وهذا الكتاب :

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا « المنظور الإسلامي للثقافة.. والتربية».. نقول في مقدمته .. وبالله التوفيق ؛

إن التربية هي أهم وأخطر عملية في حياة الفرد.. والمجتمع، دون أدنى مبالغة ، بها تبدأ حياة الطفل صغيراً في الأسرة، بل وحتى قبل أن تبدأ تلك الحياة ، كما حثنا نبينا الكريم ﷺ ، حين قال : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، وبها تستقيم حياة ذلك الفرد في داخل جماعته، فى أسرته حيث يتعلم قيم الجماعة ومعاييرها وعاداتها وتقاليدها ، وقبل كل ذلك دينها وعقيدتها ، ومع جيرانه ومجتمعه الصغير ، ثم مع جماعة الرفاق يكتسب منهم ومعهم ثقافة مجتمعه ، أو جزءاً من تلك الثقافة، ويدخل الطفل المدرسة، ويذهب إلى النادي أو المكتبة فيكتسب جزءاً آخر منها .. وهكذا حتى ينتهي تعليمه الرسمي أو المدرسي فيتخرج منه إلى المجتمع.. المحيط الأكبر والأوسع فيزداد احتكاكا بالناس ، ويمر بمواقف عديدة ومختلفة ومتنوعة فتضاف إلى ثقافته أنماط جديدة، ويتشرب قيماً وعادات أخرى تجعل منه عضواً فعالاً ومؤثراً في ذلك المجتمع.

وطوال سنى عمره تؤثر فيه « ناقلات الثقافة » ، من صحف ومجلات وكتب كثيرة ومتنوعة ، كما تؤثر فيه وسائل الإعلام المختلفة ، وخاصة التليفزيون فيشب وهو ابن ذلك المجتمع ، وابن ثقافته، وقد فعلت التربية المقصودة وغير المقصودة فعلها فيه بحيث يصطبغ بقيم ذلك المجتمع ومعتقداته وعاداته وتقاليده ، فيصبح وهو لا يملك منها فكاكًا ، لأنها تدخل إلى كيانه.. إلى شخصيته دون أن يدري ، ودون أن يقصد، بل إنه هو ذاته ، حينما يشب عن الطوق يصبح من عوامل تلك الثقافة بحيث ينقلها إلى غيره ، يؤثر فيهم تمامًا كما يتأثر بهم.

ولأن التربية هي وسيلة المجتمع لنقل الثقافة للأجيال الصاعدة من

أبنائه فهي إذن في أهمية الحياة ذاتها ، لأن الإنسان لا يمكن أن يحيا بلا ثقافة، وإلا صار أقرب إلى الحيوان الأعجم الذي لا يعي شيئًا مما يجري حوله، اللهم إلا مأكله ومشربه، وحتى حينما يساق إلى الذبح يذهب خلف جزاره وهو لا يعي ما يخبئه له ، وليس الإنسان كذلك ، على وجه اليقين ، ولا ينبغي له أن يكون.

ولقد أدركت المجتمعات الواعية أهمية التربية في عمليات التنشئة والتطبيع الاجتماعي، وفي العمل على تكييف الفرد كي يتوافق مع جماعته ومجتمعه، وكذا عرفت أهميتها في نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل بحيث لا يضيع ذلك التراث مع الأيام، وبحيث لا يضيع الناشئة من أبناء المجتمع في تراث غيرهم من المجتمعات ، خاصة في عصر أصبح فيه الاتصال بين المجتمعات شائعا وميسوراً.

والمجتمعات التي عرفت قيمة التربية عزَّت على مر الأزمنة والعصور ، ويكفي أن نضرب المثل من مجتمع المسلمين الأوائل الذين كانوا من غرس تربية الرسول الأسمى، ﷺ ، فكان أن صنعوا ثقافة من أروع الثقافات ، ومنحوا العالم حضارة ندر أن توجد في أي مجتمع من المجتمعات على مر عصور التاريخ. حضارة ظهرت فيها العناصر الروحية وهي تعلو أي عناصر أخرى، فسادت فيها الرحمة مع العلم ، والخلق الرفيع مع العمل، والعدل الشامل مع الوعي بحسن التعامل .. إلخ.

إن التربية سياج يحمي المجتمع من غائلات الزمان، وغائلات المجتمعات الأخرى ، والتربية هي التي تساعد المجتمع على الوقوف في وجه ما قد يقابله من مشكلات، أو يعتريه من معضلات ، والمجتمعات التي يضرب بها المثل هذه الأيام في العلم والتكنولوجيا والتقدم، مجتمعات عرفت قيمة التربية بالنسبة لنقل ثقافتها لأبنائها، بل وفي تدعيم تلك الثقافة فكان أن سادت وعزت بين الأمم الأخرى، والأمثلة حية وقائمة على خريطة الكرة الأرضية من اليابان في أقصى الشرق من آسيا، إلى الولايات المتحدة في أقصى الغرب منها، ومروراً بشعوب دول أخرى في غرب أوروبا وشمالها الغربي .

وإذا كانت الأمة الإسلامية تريد أن تتقدم ، وأن تعيد سيرتها الأولى

فليس أمامها إلا أن تلجأ إلى ما لجأ إليه الأجداد العظام الذين صنعوا الحضارة الإسلامية العظيمة التي يحلو لنا أن نتغنى بها كثيراً في مجالسنا ومؤتمراتنا وندواتنا ، وللعلم فإن هذا التغني لا يغني عن العمل شيئا ، ولا يعفي من بذل الجهد والعرق والسهر، والتربية هي وسيلتنا الوحيدة في ذلك، وقارب النجاة الذي ينبغي على المسلمين أن يقفزوا فيه، وأن يعتصموا فوقه بحبل الله المتين ، طالبين منه العون والنصر في مواجهة « الغزو الثقافي » الذي يتكالب على مجتمعاتهم ، ويحاول أن يغرقهم بطوفانه، وقد عولجت هذه المعاني كلها في هذا الكتاب ، وهذا العمل محاولة للربط بين الثقافة والتربية من ناحية، وبين الغزو الثقافي والتربية من ناحية أخرى بحيث توضح العلاقة الهامة بين أطراف هذه المعادلة الخطيرة في حياة الأمة؛ وهو في النهاية محاولة على الطريق نرجو أن تكون محتسبة عند الله في ميزان حسناتنا يوم الدين ،﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . وصدق الله العظيم.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل..

سبحانه .....،،

ملاحظـــة :

سوف يتبين للقارئ أن هذا الكتاب يختلف عن الكتاب الأول «الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية» من عدة وجوه، رغم ما قد يبدو بينهما من اقتراب، أما الاقتراب فهو في معالجة موضوع «الثقافة» ذاته.. أصلا ومعنى وتركيبا، وكذلك موضوع «الغزو الثقافي» بتعريفاته والأفكار التي استنتجناها منه وبنينا حولها عددا من المعاني.

أما أوجه الاختلاف بين الكتابين فتتمثل في عدم التعرض لمنطقة الخليج، لأن هذا الذي بين أيدينا كتاب عن «التربية.. والثقافة.. والغزو الثقافي»، فهو ـ إذن ـ كتاب عام يهم المسلمين جميعا حيثما كانوا، خاصة في منطقتنا العربية، والكتاب بالتالي لم يتعرض للتحديات التي تواجه الثقافة في الخليج، كما أنه لم يعرج على ذلك الغزو في الخليج.

الأمر الأهم في هذا الكتاب، حسبما نراه، هو التركيز على قضية «التربية» وعلاقتها بالثقافة والغزو الثقافي، ومن هنا فقد ركزنا على هذا الجانب المتخصص من حيث أهمية التربية في حياة الأفراد والأمم والشعوب، وعلاقة التربية بالثقافة وبالمجتمع الذي تعمل فيه وله، ثم ركزنا الحديث على المؤسسات التربوية في المجتمع المسلم بطبيعة الحال وبينا أهمية الأدوار التي يتبغي أن تقوم بها ترسيخا لثقافة المجتمع، وتجلية للمعاني الأصيلة في ثقافة ذلك المجتمع، وأخيرا فصّلنا أدوار التربية في مواجهة جوانب الغزو الثقافي، وفي التعامل مع كل ما يمثله من مخاطر على أبناء الأمة الإسلامية. والله نسأل أن نكون قد وفقنا فيما هدفنا إليه، إنه نعم المولى ونعم المعين والنصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الأول

الثقافة.. ما هي ؟

الفصل الأول
الثقافة .. ما هي .. ؟؟

مدخل :

من المسلم به أن جميع البشر متساوون ، حيث خلقهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أب وأم معروفين لنا جميعًا، هما آدم وحواء ، وبنص القرآن الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقالكم ، إن الله عليم خبير ﴾.

فالخلق إذا من معين واحد، ولكن البشر انتشروا علي سطح الكرة الأرضية، بسهولها ووديانها وجبالها ، بغاباتها وصحاريها، بأنهارها وبحارها، وبذلك أصبحوا « شعوبًا وقبائل » تفصل بينها فواصل طبيعية في البداية، أي من صنع الطبيعة التي أوجدها الخالق جل وعلا، ثم من بعد ذلك فصلت بينها فواصل سياسية من صنع البشر، حين ابتدعوا الفواصل السياسية عبر تاريخهم الطويل.

وخلف هذه الحدود السياسية، وقبلها الجغرافية، عاش كل مجتمع مع نفسه، يتفاعل أفراده وجماعاته مع بعضهم ، يتعاونون في السراء والضراء ، يصارعون عوامل الطبيعة، إن كانت غير مواتية، ويحاولون إخضاعها لقضاء حاجاتهم ومصالحهم ، كما أنهم يستفيدون من تلك العوامل في حالة كونها مواتية وميسرة لخيرهم ولخير ذرياتهم من بعدهم.

وهم كذلك تعاملوا مع بعضهم البعض في علاقات ود وتراحم وتزاوج وتجارة وتبادل، كما أنهم ـ في بعض الأحيان ـ اضطروا للتعامل مع بعضهم في علاقات سلبية ، فيها حرب وتنافر وتطاحن، وهم في كل ذلك ، في حرب.. وفي سلم ، في تعاون .. وفي تطاحن، مروا في خبرات اكتسبوها على مر الأيام والسنين، فتشكلت لكل جماعة منهم خصائص ميزتهم عن غيرهم، ميزتهم بمعنى

بمعنى حددت شخصيتهم، وليس بمعنى فضلتهم على غيرهم ، حيث إن الثقافات تتمايز ولا تتفاضل، على الأقل من وجهات نظر أصحابها.

هذه الخصائص التي تميز شعبًا عن شعب هي التي نسميها « الثقافة »، ونحن هنا نقصدها بمعناها العام الشامل والواسع الذي يشتمل على كل شيئ في حياة الجماعة، ونقصد بذلك الجوانب المادية والمعنوية في حياة ذلك الشعب أو تلك الجماعة، فما اكتسبه ذلك الشعب أو تلك الجماعة من قيم، وما توصلا إليه من عادات، وما استقرا عليه من معايير للسلوك والتصرف، وما ارتضاه الأفراد فيهما لأنفسهم من تقاليد.. إلخ ، كل ذلك يشكل « الجانب المعنوي » للثقافة، كما أن كل ما استطاع أن يتوصل إليه من اختراعات ومبتكرات، ابتداء من التوصل إلى « إشعال النار » عن طريق ضرب حجرين ببعضهما، والتوصل «للعجلة» والجري بها ، وانتهاءً « بمركبات الفضاء» ، و« الأقمار الصناعية» وتوظيفها لصالحه ، سواء في الحروب أو في الاتصالات ، ومروراً بما بين هذين الطرفين من ابتكارات في الصناعة وتوظيفها في الزراعة والتجارة والطب والتعليم والاتصالات وغيرها.. كل أولئك يمثلون الجانب المادي من تلك الثقافة التي عنها نتحدث.

وبالتالي فنحن أمام تاريخ الجنس البشري كله، في صراعه، أي صراع ذلك الجنس، مع الطبيعة من حوله، أو في صراع جماعاته مع بعضها، وكوّن حولها وعنها أفكاراً ومعتقدات تعلمها الكبار ، وعلموها لمن خلفهم من أبنائهم وأبناء أبنائهم، بحيث صارت هذه كلها جزءاً من تكوين هذه الشعوب والجماعات، وأصبحت علامات مميزة لهم ، ودلالات واضحة عليهم، وكأنها مثل السمات الجنسية أو البشرية المميزة لهم، كما يقول علماء الأجناس أو علماء الجغرافيا البشرية.

ورغم ذلك التفسير أو الفهم لمعنى الثقافة ، وكيفية تكونها ، الا أنه ينبغي الاعتراف بأن مصطلح « الثقافة Culture» كان ـ ولا يزال ـ من أكثر المصطلحات التي اختلف عليها العلماء اختلافًا بيِّنا، وحينما .. وأينما التقوا كانت هناك تعريفات للثقافة ، ربما ، بعددهم .. دون أدنى مبالغة..!!

أصل مصطلح الثقافة ومعناه :

يقول « عويس » : إن العرب استعملوا كلمة « ثقافة » بمعنى التقويم والتهذيب ، من ثقفت الرمح إذا هذبته وقومته، واستعملوها أيضا بمعنى الحذق والفطنة ، ووردت عندهم بمعنى الوجود ، وبمعنى التمكن والغلبة ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ .[1]

أما إذا تركنا العرب ، وانتقلنا إلى شعوب أوروبا ، فنجد أن كلمة « ثقافة » كانت .. ولازالت.. ذات صلة وثيقة بالزراعة ، فالأولى Culture، والثانية Agriculture ومعناها زراعة الأرض بعد تهذيبها وإعدادها، كما استعملت في اللاتينية بمعنى قريب من المعنى العربي ، فقيل إنها « Culture Anui » ، بمعنى تهذيب الروح ، وبمعنى التهذيب الرباني« Dei Culture»، وقد استعمل اللفظ بمعنى العبادة « Dei Culture » ، أي عبادة الله على اعتبار أن عبادة الله صقل للنفس وتهذيب لها.

ومنذ العهد الروماني ارتبط معنى الثقافة بالعلوم الإنسانية ، أي العلوم التي تنفصل فيها كل أمة من الأمم الأخرى ، كعلوم الدين واللغة والآداب التي يدخل فيها الفلسفة والفنون، أي العلوم غير العلمية وغير الطبيعية.

ثم في عصر النهضة الأوروبية أصبح اللفظ يطلق على الآداب والفنون، كما يقول « حسين مؤنس » في كتابه « الحضارة » ، وكما نقل عنه «عويس»، والذي يميل إلى قصر مصطلح الثقافة على العلوم الإنسانية ، باعتبارها العلوم الأكثر تأثيراً في الرقي الإنساني الحضاري ، من الجانب الروحي ، وباعتبارها ـ كذلك ـ العلوم التي تنفصل فيها أمة عن أمة، وتشكل معالم الشخصية الذاتية للأمة ، ولا تتسع فيها المساحة ، بحيث تكون متشابهة ، أو واحدة بين كل

---

(١) عبدالحليم عويس : « ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة » ، النادي الأدبي بالرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ١٥.

الأمم، كما هو الشأن في العلوم التطبيقية.[٢]

وقريب من هذا المعنى ، الذي قلناه في بداية الحديث عن الثقافة ، من أنها نتاج خبرة تاريخية طويلة للمجتمعات، يقول « زكي اسماعيل » : إن العالمين الأنثروبولوجيين الأمريكيين « الفريد كروبير A. Kroeber » ، و« كلايد كلكهوهن C. Kluckhohn » قد عرضا لما يزيد على مائة وستين تعريفا للثقافة، وبعد أن استعرضا هذا الحشد الهائل من التعريفات لعديد من الأنثروبولوجيين أشارا إلى أنهما يستطيعان - بدون أي تحيز لأي من هذه التعريفات - أن ينتهيا إلى أن الثقافة ذات مضمون تاريخي Historical، أي من حيث كونها تراكمًا للعديد من الأنماط والمركبات الثقافية التي تراكمت عبر تاريخ ثقافي طويل، وبالتالي فهي تشتمل على الأنماط والأفكار والقيم ، ولها صفة الاختيار والانتقاء، وهي في الوقت نفسه مكتسبة .. أي تتعلم، كما أنها تجديد للسلوك الإنساني Abstract، وإن لم تكن هي السلوك نفسه، إلا أنها نتيجة لهذا السلوك» . [٣]

ويؤكد « عبود » على الأصل الذي يربط بين الثقافة والزراعة ، في اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ولكنه يقول : إنها استخدمت للتعبير عن التربية لغير الإنسان، فقط للزرع والغل (؟؟) ثم إنها اتسعت بعد ذلك لتشمل « تربية الإنسان أيضًا ، إلى جانب شمولها غير الإنسان ، من زرع وحيوان ، فصارت تعني أخلاق الناس وعاداتهم ، وأي شيئ يحتاج إلى رعاية خاصة.. ثم يبدو أن الكلمة زادت اتساعا بتوجهها إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، فصارت تعني - فيما تعني - تثقيف العقل وتهذيبه.

ثم يبدو أن الكلمة - أخيراً - بدأت تنفصل عن أصلها : « الزراعة »، لتتصل بهذا الفرع الأخير ، فصارت « ثقف » تعني صار حاذقا فطنًا ، ثقف العلم والصناعة : حذقهما ، وصارت الثقافة تعني : « العلوم والفنون التي

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٥-١٧.

(٣) زكي محمد اسماعيل : «الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي » ، عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ص ١٢٢-١٢٣.

يطلب الحذق فيها . [٤]

ويصل الكاتب أخيراً إلى المعني الشامل للثقافة ، وهو المعنى الاصطلاحي لها ، والذي اتفق عليه التربويون والأنثروبولوجيون ، والذي يستخدم الآن في العلوم الاجتماعية وهو « طريقة الحياة الكلية للمجتمع، وقد تتضمن أسلوب تناول الطعام، أو ارتداء الملابس، أو استخدام اللغة ، أو تبادل الحب أو الزواج، أو دفن الموتى ، أو لعب كرة القدم. وقد تشمل أيضًا قراءة الأدب، أو سماع الموسيقى ، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين، أو الأنواع الأخرى من النشاط»، وذلك كما يقول « عبود » ، نقلاً عن « أوتاوي » . [٥]

والثقافة ، على النقيض من العلم ، لا يمكن أن تفهم على أنها تعني مستوى عالٍ للامتياز العقلي والفني، في شخص أو مجموعة ، إذ هي ملك للجميع، فلا يوجد إنسان مثقف، وآخر غير مثقف ، على النحو الذي نستخدمه في حياتنا العادية خطأ، إذ أن لكل إنسان ثقافته، صغيراً كان هذا الإنسان أو كبيراً ، غنيًا أو فقيراً ، متعلمًا أو جاهلاً ، رجلاً أو امرأة، ولكل مجتمع من المجتمعات أيضا ثقافته، مهما كانت الظروف المحيطة بهذا المجتمع.

وعلى ذلك فالثقافة بالنسبة للفرد مرادف « للشخصية » ، والثقافة بالنسبة للمجتمع مرادف (للشخصية القومية) التي يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات ، إنها ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات، والقيم وأساليب التفكير والعمل والسلوك بأنماطه ، أو ـ باختصار ـ هي جميع طرائق الحياة التي طورها الناس في المجتمع، وكذلك المنتجات المادية » . [٦]

أما « الرميحي» فيحدثنا عن الحيرة التي تنتاب الكتاب وهم يتعاملون مع تعريفات للثقافة وصلت إلى أكثر من مائة وخمسين تعريفًا «لقد

---

(٤) عبدالغني عبود : « الحضارة الإسلامية المعاصرة » ، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٨١م، ص ص ١٨-١٩.

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠.

(٦) المرجع السابق ، ص ٢١ .

تعددت المفاهيم واتسعت لمعنى الثقافة حتى أصبحت تعنى معنى آخر هو المجتمع بكل ما فيه وبكل ما يعنيه . وهناك اليوم ما يزيد على مائة وخمسين تعريفًا للثقافة، بعضها جامع شامل، وبعضها محدد » .[٧]

ويقول الكاتب السابق : « إن المعنى الواسع للثقافة هو كل ما ينتجه مجتمع ما من إنتاج مادي ومعنوي، أي أن كل منتجات الإنسان في حياته اليومية العملية والترفيهية تمثل الثقافة لذلك المجتمع، أو لتلك المجموعة الإنسانية ، والمعنى الآخر هو المعنى الضيق للثقافة ، ويعني ما ينتجه الإنسان في مجتمعه من منتج فكري ، وهذا هو المعنى الشائع للثقافة .

ويستدرك « الرميحي » ليبين العلاقة بين الثقافة بمعناها الواسع الشامل، وبين الثقافة بمعناها الضيق إذ يمكن أن يتحول منتج فكري ما إلى واقع مادي، كأن تتكون لدى فرد أو بعض أفراد مجموعة من الأفكار السياسية أو القانونية أو العلمية ، وتتحول هذه الأفكار في وقت لاحق إلى شيئ مادي، فهناك إذا حتى في المفهوم الضيق للثقافة إمكانية التبادل بين المعنيين، أو العلاقة الجدلية بين المفهوميين » .[٨]

تعريف اليونيسكو :

وطالما أننا لا زلنا في مجال بيان أصل مصطلح « الثقافة » فلعله يكون من المناسب أن نعرض لجهد دولي تم في هذا المجال، فلقد اجتمع ممثلو «اليونيسكو» في المكسيك، خلال معظم أيام شهر يوليو والأيام الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٨٢م، في محاولة لتحديد معنى ذلك المصطلح، فيما عرف باسم «إعلان مكسيكو» وبعد مناقشات طويلة مكثفة ومركزة ، معمقة وموسعة، خرج علينا المؤتمرون بالتعريف التالي :

« إن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع

---

(٧) محمد الرميحي : « واقع الثقافة ومستقبلها في أقطار الخليج العربي » ، المستقبل العربي، العدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م، ص ٤٤.

(٨) المرجع السابق ، ص ص ٤٤-٤٥.

السمات الروحية.. والمادية.. والفكرية.. والعاطفية ، التي تميز مجتمعًا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة ، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات». [٩]

ويفسر الإعلان ـ بعد ذلك ـ الثقافة تفسيراً إجرائيًا فيقول : «إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائنًا يتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية ، والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي، وعن طريقها (أي طريق الثقافة) نهتدي إلى القيم ، ونمارس الاختيار، والثقافة هي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته كمشروع غير مكتمل ، وإعادة النظر في إنجازاته، والبحث ـ دون توان ـ عن مدلولات جديدة ، وإبداعات وأعمال يتفوق فيها على نفسه. [١٠]

ويخلص « الرميحي » في النهاية إلى : « إن الثقافة تعني جوهر المجتمع ، تعني كل ما ينتجه المجتمع من إنتاج مادي ومعنوي، كما تعني تأثر ذلك المجتمع أو تلك المجموعة الإنسانية بالنتاج المادي والمعنوي لغيرها ، وتأثيرها فيه ، ومدى النقل الكامل والاستيعاب والتمثيل، فالثقافة السائدة في مجتمع ما، أو جماعة ما، تعني السمات الأساسية.. الروحية والمادية والفكرية التي تميزهما ، هذه السمات الأساسية هي التي تميز ثقافة عن ثقافة أخرى ، وهي التي تعطي المنتج المادي والفكري خصوصيته وتفرده ». [١١]

وقد بنى الكاتب السابق رأيه على الإعلان العالمي « إعلان مكسيكو» للثقافة بمعناها الواسع الذي يضم بين عناصره : الاهتمام بالعدالة العالمية، والسلم العالمي، وحقوق الشعوب والأفراد في الديموقراطية والتنمية ، بل لقد أفرد « إعلان مكسيكو » صفحات كثيرة للحديث عن الثقافة والتنمية ،

---

(٩) المرجع السابق ، ص ٤٥ . (الوثائق الرئيسية لإعلان مكسيكو بشأن الثقافة ، والذي كان نتيجة لمؤتمر اليونيسكو للثقافة ، مكسيكو ٦ يوليو - ٦ أغسطس ١٩٨٢م).

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المرجع السابق.

والثقافة والديموقراطية ، والعلاقة الحميمة بين الثقافة والتربية وعلوم الاتصال.

ومن ناحية أخرى يضيف « العمر » أبعاداً أخرى للمعنى الشامل للثقافة ، فهي عنده « نتاج أنماط التربية ونظم التعليم ، ومبتكرات العلم، وجملة العادات والتقاليد، وكذا الأديان والمذاهب والعقائد، وذلك في إطار انطباعات وجدانية وقيم خلقية » . (١٢)

والثقافة عند « شاكر مصطفى » : « تنتظم السمات الذاتية للأمة ، من مادية وروحية وفكرية وفنية ، كما تشمل قيمها الأخلاقية والمجتمعية، ومواقفها من الحياة، وطرائق تفكيرها، وإبداعها الجمالي، ونتاجها المعرفي، وسبلها في السلوك، وهي تضم أخيراً تطلعاتها ووسائلها في الوصول إلى حياة أكثر إنسانية ، وأنبل قيمًا، وأوسع شمولاً ، وأعمق معرفة وفكراً.

والثقافة ـ بهذا المعنى ـ ليست جهداً إنسانيًا مجانيًا ، ولكنها ذات وظيفة إنسانية ـ قومية معًا، فهي بجانب الدين واللغة قوام وحدة الأمة، لأنها تنسج تكوينها الداخلي ، وتجمع أفرادها على المصير التضامني الواحد، وهي وسيلة تأكيد الذات والتمايز عن الآخرين ، بوصفها مستودع القيم.(١٣)

كما أنها سبيل الآمان والاطمئنان لأفراد الأمة الواحدة ، بوصفها أكثر النشاطات اتصالاً بكرامة الإنسان، وتعبيراً عنه وعن حريته، بالإضافة إلى أنها حصن الدفاع، لأن وظيفتها أساسية في مواجهة التحديات القومية من تجزئة وتخلف وتبعية وصهيونية، ولأنها مناط الهوية القومية المقاتلة، وآخر ما يمكن انتزاعه من النفوس، هذا إلى أنها .. أخيراً.. وسيلة اللقاء مع الآخرين على المثل العليا الإنسانية المشتركة.(١٤)

---

(١٢) عبدالله العمر : « التواصل الثقافي بين دول مجلس التعاون : الواقع والمطلوب »، مجلة التعاون ، العدد الثالث، شوال ١٤٠٦هـ - يوليو ١٩٨٦م، ص ٤٢.

(١٣) عبدالمنعم الصاوي: « عن الثقافة » ، دار القلم ، (بدون مكان نشر)، ١٩٦٦م، ص ٣٦.

(١٤) شاكر مصطفى : « التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون » ، مجلة التعاون، العدد الرابع ، محرم ١٤٠٧هـ/اكتوبر ١٩٨٦م، ص ص ٩-١٠.

ويتحرز « الرميحي » في بُعد مهم حين يتحدث عن التنوع والتفرد في الثقافة ، حتى داخل المجتمع الواحد يقول : « ولا شك أن كل جماعة لا يمكن أن تتطابق مع غيرها في سماتها الأساسية الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، ولا شك أن هناك تنوعًا وتفرداً فيها لدى جماعة دون جماعة أخرى في المجتمع نفسه أو الدولة السياسية، ولكن المراد هنا هو السمات الأساسية والجوهرية المشتركة في مجتمع ما.

وبنفس التحليل فإننا نجد سمات أساسية وجوهرية ومشتركة لدى جماعة من الناس قد تفرق بينهم (حدود) سياسية . فالسمات الأساسية الجوهرية والمشتركة الروحية والفكرية والمادية ليست بالضرورة تابعة أو مقيدة ومحصورة في إطار سياسي معين، أو ما يسمى بالدولة الحديثة ، فقد نجد في الدولة الواحدة مجموعات ذات سمات ثقافية متعددة، وقد يشترك بعض هذه المجموعات مع مجموعات أخرى - خارج الإطار السياسي - بسمات ثقافية مشتركة ».[15]

وبنفس المنطق السابق الذي يقول : إن الثقافة غير مقيدة بالحدود السياسية ، بمعنى أنها تختلف بين جماعات متعددة داخل إطار سياسي واحد ، وقد تتطابق بين جماعات أخرى عبر الحدود السياسية يصل « الرميحي» إلى مفهوم مؤداه أن محاولات توحيد « النموذج الثقافي » لاعتبارات سياسية هو في الواقع « قتل وتدمير للثقافة »، وليس تطويراً لها ، ثم إن هناك اليوم « ثقافة وطنية »، و« ثقافة إقليمية »(داخل الوطن الواحد) ، كما توجد ثقافة «عبر وطنية» مشتركة خارج الإطار السياسي. وتوجد - أيضًا - «ثقافة ذات قنوات عالمية، فعالم اليوم شديد التعقيد، وسريع الاتصال، فهي لا شك تتخطى الكثير من الجدران التي كانت إلى وقت قريب تحيط بالثقافات الوطنية ».[16]

أما « سرحان » فيقول : « إن الثقافة لا تعني تلك الصفات أو الميول

---

(١٥) محمد الرميحي : « الخليج ليس نفطًا : دراسة في إشكالية التنمية والوحدة » ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت ، ١٩٨٣م، ص ١٩١.

(١٦) المرجع السابق.

التي تميز الفرد المتعلم عن غيره من أفراد المجتمع، كما أنها لا تعني السلوك الحميد والذوق الرفيع لشخص يحسن التصرف مع الآخرين، أو ذلك النتاج التعليمي أو التخصصي في ميدان من ميادين العلم والمعرفة الذي بلغ فيه فرد ما أو مجتمع ما شأنًا عظيمًا ، فقد اعتاد الناس أن يصفوا فرداً بثقافته العالية، أو مجتمعًا بثقافته الأدبية أو الفنية، كالثقافة الإغريقية أو المصرية القديمة مثلا ». (١٧)

أما الثقافة عنده فهي : « كلٌ عضوي يتمثل في طريقة الحياة في المجتمع، وذلك الكل الذي تتشابك عناصره وتتداخل ، ويؤثر بعضها في بعض، ويتغير أو يتطور بتغير الزمان والمكان. وبعد أن يمر بعددٍ من تعريفات الثقافة يصل الكاتب إلى مفهوم شامل للثقافة يقول إنه « طريقةُ الحياة في المجتمع، بجوانبها المادية كالآلات والإنشاءات والأزياء وغيرها. والمعنوية كاللغة والأدب والفن والدين وغيرها ، وهي من صنع الإنسان في سعيه إلى التكيف مع البيئة الطبيعية الاجتماعية، لإشباع حاجاته العضوية والعقلية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية، كما أنها تتمثل في قيمة الحياة واتجاهاتها ومعاييرها الحاكمة، وفي طرق التفكير وأنماط الفكر، وفي المعتقدات والتوقعات والعلاقات التي تنظم علاقات الناس وحياتهم، وفي أنماط السلوك ومصطلحاته بين الناس في المجتمع ونظمه وأجهزته ومؤسساته.

والثقافة تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، لا عن طريق الوراثة البيولوجية، وهي ما يتعلمه الخلف من السلف عن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها، وكذلك عن طريق الإشارات والرموز. (١٨)

ثم إن ثقافة الإنسان من صنعه هو ، فهو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية ويبحث في وسائل استغلالها والتكيف معها لتحقيق مطالبه، وذلك

---

(١٧) منير المرسي سرحان : « في اجتماعيات التربية » ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (الطبعة الثالثة) ، ١٩٨١م، ص ١٢٩.

(١٨) المرجع السابق، ص ص ١٣١-١٣٢.

يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني ، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني، وانطلاقًا من علاقاته الإنسانية بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، وتنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي وتدور حول محور المنفعة والاستفادة، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه ، والقيم والمعايير التي تحكمه ، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه، ويتم ذلك كله في إطار الثقافة.(١٩)

ويفرق « سرحان » بين المجتمع البشري وغيره من المجتمعات الحيوانية الأخرى على أساس الثقافة، فهي التي تميز المجتمع الإنساني بلغته وذكائه وإنتاجه عن المجتمعات الحيوانية » فلبعض الحيوانات كالنحل والنمل والطيور وغيرها من الكائنات مجتمعات ، ولكن ليس لها ثقافة ذلك أنها تعيش حياتها على أساس سلوكها الفطري وتكوينها الجسماني المعد من قبل، ومن ثم فهي لا تحتاج عند ولادتها أن تتعلم من الكبار إلا قليلاً، لأنها تكون قد اكتملت عندها إمكانات تكيفها مع البيئة التي تعيش فيها ، لذلك تقصر طفولة الحيوان عن الإنسان.(٢٠)

أما « قمبر » وزملاؤه فيقولون : « إنه تستعمل كلمة ثقافة بمعان مختلفة، فهي تؤخذ عادة على أنها تعني مستوى عال من الامتياز العقلي والفني لشخص أو مجموعة، وقد تفهم - أيضًا - بمعنى المعارف والمعلومات الواسعة التي لدى المتعلمين تعليمًا عاليًا، فيعرف البعض الشخص المثقف بانه ذلك الشخص الذي يحظى بنصيب وافر من العلم والمعرفة، فهو يقرأ الكتب والصحف والمجلات، ويعرف سير العلماء، ويتوافر لديه قسط معقول من المعرفة

---

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٣٢.

والفنون والعلوم والآداب » . [٢١]

ثم يستدرك المؤلفون السابقون قائلين : إن تعريف الثقافة بهذا الشكل ، أي قصرها على النواحي الفكرية (المعرفية) يعتبر تعريفًا ناقصًا لأنه « يهمل المكونات الأخرى للخبرة ، مثل المهارات والعادات والاهتمامات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير، وما يبنى على كل ذلك من أنماط السلوك والتجديدات والاختراعات والتطبيقات التي توصل إليها الإنسان خلال العصور السابقة، وتجمعت آثارها لديه في صورة ذخيرة كبرى تتوارثها الأجيال ، وتنتفع بها، وتضيف إليها ». [٢٢]

ويبين لنا الكتّاب السابقون اتجاهين في فهم الثقافة ينقلونهما عن «فاروق اسماعيل » ، ومن خلال هذه الاتجاهين يمكن عرض معالجة الباحثين لمفهوم الثقافة وحصر الخلافات بينهما ، كما يقولون :

أ الاتجاه الأول (الواقعي) :

ومن أقطابه « تايلور » و « بواس » و«ديكسون»، وهم ينظرون إلى الثقافة كصفة تميز السلوك الإنساني ، وهم عادة ما يعرفون المفهوم بلغة « اكتساب » العادات والتقاليد..إلخ، فهم يرون أن الثقافة لها وجود خاص متمايز مستقل عن الأفراد الحاملين لها. والثقافة عندهم هي « ما يفعله المجتمع وما يفكر فيه » .. وهي العناصر الموروثة خلال حياة الناس، سواء كانت هذه الموروثات مادية أو روحية ، فالثقافة هنا « فوق عضوية » ، أي توجد وتعمل وفق منطقها الخاص، وهي مستقلة عن الإنسان.

ب ـ الاتجاه الثاني (المثالي) :

وهو الاتجاه المثالي ، ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه « أوسجود »

(٢١) محمود قمبر وآخران : « دراسات في أصول التربية » ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٣٢.

(٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٣٢-٣٣.

و«رالف لنتون» و « كروبر»، وهؤلاء ينظرون إلى الثقافة على اعتبار أنها مجموعة من الأفكار في عقول الأفراد ، أو أنها « مفهومات مألوفة ومدركة » . إن الثقافة هنا ليست شيئًا متمايز الوجود بحيث يمكن لمسه. إنما الثقافة عند أصحاب هذا الاتجاه مجرد مدركات في عقول الذين يشاركون فيها. إنها بالأحرى جزء من الكائن العضوي يتخذ شكل أفكار أو آراء أو معلومات يستخدمها في تحديد السلوك الذي يستهدفه». وهذا الكلام ـ كما سبق القول ـ نقله « قمبر وزملاؤه » عن «فاروق اسماعيل». (٢٣)

ثم نقرأ عن المفهوم الشامل للثقافة ، حيث يقول المؤلفون السابقون «إن النظرة الشاملة إزاء الثقافة توجب علينا أن نأخذ في الاعتبار كلا من الاتجاهين المثالي والواقعي ، فالثقافة عضوية ، بمعنى أنها إدراك الناس أنفسهم للأشياء من حولهم، وخبرتهم في التعامل معها، فالثقافة في ذهن حاملها مدرك عقلي معرفي، بمثابة طريقة إجرائية Recipe تمكننا من إنتاج السلوك أو الأشياء المادية ، وهذه الطريقة الإجرائية تشتمل على توجيهات وإرشادات تحدد الأداء والسلوك، وتجعل للأشياء معنى».

لكن الثقافة في الوقت نفسه فوق عضوية ، فهي حقيقة مستقلة عن حامليها، وليست مجرد مفهوم في عقلهم، إنها كينونة لها وجودها المتمايز، وتعمل وفقًا لقوانينها ، ولا يوجد أي تناقض في الجمع بين الاتجاهين، فلأن الثقافة مفهوم.. أو مركب عقلي ، في عقل حامله، فهي ذات وجود مستقل، فالمفهوم المعرفي هنا إنما يشير إلى طريقة واقعية تنتظم الظواهر والأشياء القائمة بالفعل، ولأن هناك أنسقة معرفية توجه السلوك ونتائج السلوك، فهناك أنسقة عمل (سلوك ونتائج السلوك) يؤثر بدوره في صنع المفاهيم والمدركات، إن النظرة الشاملة للثقافة تقتضي إقرار العلاقة المتبادلة بين الفكر والواقع ، بين الإنسان وثقافته». (٢٤)

(٢٣) فاروق مصطفى اسماعيل : «الأنثروبولوجيا الثقافية» الدوحة ، قطر، ١٩٨٦م، ص ٩٣.

(٢٤) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٦.

ونصل في نهاية رحلتنا في البحث في تحديد أصل ومعنى الثقافة، نصل إلى الجهد الكبير الذي بذلته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حين أقدمت على وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية » ، التي قدمت فيها بحوث كثيرة ، نوقشت في اجتماعات موسعة، وخرجت في عدد من المجلدات الضخمة، بعد أن طبعت في الكويت عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

تعريف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم :

يقول أصحاب هذه الخطة الشاملة عن الثقافة ما يلي :

« إن البحث في الثقافة ليس بالأمر السهل، فهي نشاط إنساني بالغ التعقيد والعمق والتشعب . والمصطلح الذي يعبر عنها قد يبدو التعريف به في ميسور كل امرئ.. من كل مستوى ، لكن هذا التعريف ظل نسبيًا قاصراً عن الإحاطة، محتملاً للضيق والسعة، عرضة إلى اللبس أيضًا . ولعل كثرة تداول الكلمة وتعدد ميادينها وسَّع مدلولها، وزاد إبهامها، وحملها ألوانًا من الأبعاد والمعاني والحدود ».[(٢٥)]

وتتحدث تلك الخطة عن أصل كلمة « ثقافة » فتقول : « إن الثقافة بالمعنى العربي للكلمة لا تعني أكثر من سرعة التعليم والحذق والفطنة، وثبات المعرفة بما يحتاج المرء إليه، لكنها منذ مطلع هذا القرن حملت معنى اصطلاحيًا أريد به أن يترجم المعنى الذي حملته منذ أوائل القرن الثامن عشر كلمة CULTURE اللاتينية، بعد أن لاقت هذه الكلمة المصطلح رواجًا في عصر التنوير الأوروبي ، وخاصة في ألمانيا. على أن شيوعها في الفكر الأوروبي أدى إلى تشعب معانيها، وإلى إبهام هذه المعاني، فقد أضاعت الثقافة من وضوحها بقدر ما كسبت من الحظوة والشيوع.

والباحثون في محاولاتهم ـ منذ قرن من الزمان ـ كي يعطوا الكلمة التعريف الواحد الشامل زادوا في تعقيدها، وفي اختلاف هذه التعريفات التي

---

(٢٥) الخطة الشاملة للثقافة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد الأول، الكويت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ٤١.

فاقت المائتين عددا فثمة من يميل إلى دراسة الثقافة في حد ذاتها ، التنقيب عن وظائفها الاجتماعية المطلقة ، مهملا الاستعانة بتاريخها وعلاقاتها مع الأفراد، وهناك من يرجح كفة التاريخ، ولا يفهم الثقافة إلا من خلال منظورها التاريخي البحث، وبين هذين المفهومين تمتد تفسيرات شتى مغايرة. (٢٦)

وتقول الخطة بأنه : «لعل من أبواب الإبهام في مفهوم الثقافة، اختلاطها بمفهوم الحضارة، ففي الغرب ظهرت الكلمتان في عصر واحد، هو القرن الثامن عشر الميلادي، وتباينت معانيهما من موقع فكري إلى آخر، فالفرق طفيف بينهما في الفكر الفرنسي، ولكنه كان واسعا في الفكر الألماني حتى أصبحت الثقافة تختص بالمعنى الروحي والفكري والفني والعلمي، بينما تدل الحضارة على المعنى المادي أيضًا والتقني (أي بما نستعمل)، وهكذا جرى الاصطلاح في القرن الحالي. وعلى ضوء الواقع الأوروبي باعتبار الثقافة جزءاً من الحضارة، واعتبار الحضارة صيغة أشمل تحتضن جملة من الثقافات ترتبط بعضها ببعض بصلات واتصالات معينة، ومن هذا المنطلق يتسع مفهوم الثقافة وتختلف ممارستها باختلاف المجتمعات ، وتركيبها بين الفئات والطبقات.

وثمة إبهام آخر يأتي من تداخل مفهوم الثقافة مع مفهوم التقدم ، وأمر التفريق هاهنا أهون لأن التقدم مفهوم تقويمي مرتبط بالاتجاهات الفلسفية التي بدأت منذ عصر النهضة الأوروبية، وتجسد في مظاهر الثورات الصناعية، كما أنه دوما مفهوم نسبي يقوم على تقدير مدى الحركة الإنسانية. (٢٧)

وأخيراً يصل الذين فلسفوا خطة الثقافة العربية إلى كلام واضح بخصوص مفاهيم الثقافة والتي يقولون إنهم يستطيعون اختصار تلك المفاهيم العديدة - في النهاية - إلى مفهومين اثنين فقط هما :

أ - الثقافة بالمعنى (الأنثروبولوجي) : الذي يشمل كل فعالية للإنسان تميزه عن أفعال الطبيعة، فكل نشاط ذهني أو مادي يقوم به

---

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) المرجع السابق.

لرفض التقبل السلبي للطبيعة هو ثقافة، اعتباراً من أبسط أنواع السلوك الإنساني البدائي حتى إنسان العصر الأليكتروني. فالثقافة بهذا الشكل الواسع هي الإنسان بوصفه فاعلاً منفعلاً، ويدخل فيها كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي، سواء أكان تراكم خبرات، أو ممارسات فكرية، أو تصورات عن عقائد روحية، أو صنع أداة من الأدوات ، أو تقليد من التقاليد.

فالثقافة ضمن هذا المفهوم الواسع ، إلى جانب كونها سلوكًا بشريًا وفكريًا جماعيًا ونمط عيش مشترك، وإلى جانب كونها قيما روحية، وعقائد وتقنيات ، فهي أيضًا وأساسًا علاقة الإنسان بمحيطة ، وبموطنه الطبيعي، وبإبداعاته المادية والجمالية، وبذاكرته الجماعية ، والهيكل الشامل ، أو البنية العريضة للوعي بهذه العلاقة وبالذات الجماعية.

ب - أما المعنى الثاني فيرتبط بنوع الأساليب ، وأشكال القيم التي يبتكرها الإنسان ليكسب إنسانيته معناها الخاص، وينظم بها حياته الخاصة.. الاجتماعية والفكرية والروحية والجمالية. وفي هذا السياق فالثقافة تشمل مجموعة أنواع النشاط الفكري والفني بمعناها الواسع ، وما يتصل بها من المهارات أو يعين عليها من الوسائل ، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى ، مؤثرة فيها ، ومتأثرة بها ، معينة عليها ، ومستعينة بها.(٢٨)

وبهذا المعنى أيضا فالثقافة تنتظم جميع السمات المميزة للأمة ، من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، وتشمل مجموعة المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها ، وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتصرف والتعبير ، وطرز الحياة، كما تشمل أخيراً تطلعات الإنسان للمثل العليا، ومحاولاته إعادة النظر في منجزاته، والبحث الدائب عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله، وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته.

---

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٤٢.

والثقافة أخيراً ـ ضمن هذا المعنى نفسه ـ تمنح الإنسان القدرة على أن يفكر في نفسه ، وهي التي تجعل منا ـ فعلاً ـ كائنات إنسانية مفكرة.. ملتزمة أخلاقيًا ومعنويًا، قادرة على التقويم، وبالثقافة يميز الإنسان بين القيم، ويمارس الاختيارات ، ويعبر عن صميم ذاته، ويعي ويعرف أنه مشروع غير كامل ، ولكنه في السبيل إلى الكمال.[٢٩]

(٢٩) المرجع السابق.

الفصل الثاني

عناصر الثقافة ؟ ؟

الفصل الثاني
عناصر الثقافة

والآن .. وبعد أن انتهينا من محاولة استقصاء جذور « مصطلح الثقافة » ، ومعرفة معانيه المختلفة ، لعلنا ننتقل خطوة أبعد لنقف على عناصر الثقافة ومكوناتها ، فهي تتكون من مجموعتين رئيسيتين من العناصر هما : العناصر المادية، والعناصر غير المادية، ولعلنا نفصل فيهما بعض الشيئ، آخذين في الاعتبار أن الفصل بينهما ليس أمراً سهلاً، لسبب واحد وبسيط هو أن عناصر الثقافة كلها متكاملة ومتفاعلة ومتشابكة مع بعضها في آن واحد، ولكن متطلبات البحث والدراسة هي التي تجعلنا نلجأ إلى الفصل بين هذه العناصر ، بقصد الفهم والإحاطة.

أولاً : العناصر المادية :

وهذه العناصر تشتمل على الآتي :

١- الأشياء المادية ، مثل المساكن والشوارع والأسواق، وكذا وسائل المواصلات وغيرها ، باعتبارها نتائج مادية للسلوك.

٢- طرائق وأساليب التعامل مع هذه الأشياء المادية واستعمالها،[1]

هكذا يقول « قمبر » ومن معه. وإن كنا نتحفظ هنا على العنصر الثاني، لأن الأساليب والطرائق قد لا يحسن ادراجها ضمن الأمور المادية، إذ هي من الأمور المعنوية، بمعنى أننا لو نظرنا - مثلاً - إلى إشارات المرور التي تنتشر في معظم مدن العالم لوجدنا أن هناك مجتمعات يحترم أبناؤها تلك الإشارات ، وما تمثله من نظام، حتى ولو كانوا يقودون سياراتهم في أنصاف الليالي، أو حتى في أوقات الفجر حين تخف حركة رجال المرور ، بينما في مجتمعات أخرى لا يعير كثير

(١) محمود قمبر وآخران ، مرجع سابق، ص ٣٦.

من المواطنين هذه الإشارات أدنى اهتمام، فالقضية هنا قضية سلوك، وبالتالي فهي من الأمور المعنوية، وليست من « الأشياء » فهي جزء من التعامل مع الأشياء (إن صح التعبير) كما يقول المؤلفون السابقون، ولكنها لا ينبغي أن تندرج تحت العناصر المادية.

وفي هذا الجانب السابق يقول « سرحان » : إن المخترعات والصناعات والبناء والكساء وغير ذلك من الإنتاج المادي الذي توصل إليه الإنسان لإشباع حاجاته، إنما يتحدد استعمالها بالأفكار والاتجاهات والقيم التي تتمثل في حياة الناس ومستواهم الفكري والاجتماعي والاقتصادي، لذلك لا ينبغي فصل الجوانب المادية في الثقافة عن الجوانب المعنوية، لأن كلا منهما تؤثر في الأخرى.(٢)

« كذلك تتكامل الثقافة حين يكون هناك توازن بين كل من الإنتاجين المادي والمعنوي فيها، فلا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن، ورصف الطرق مثلا، بينما يكون هناك تخلف ملحوظ في التعليم، وارتفاع نسبة الأمية. وقد يكثر استخدام الآلات الحديثة في مجالات الحياة دون أن يصاحبه تغيير في العادات والتقاليد والمفاهيم التي تتصل بتقبل الجماعة لها، وتنظيم حياتها على أساسها، ويرتبط بهذه الحقيقة ظهور مشكلات التغير الثقافي والتوجيه الاجتماعي».(٣)

والواقع أننا قد نختلف في هذه النقطة مع الكاتب، فحديثة عن تكامل الثقافة، أي التوازن بين الإنتاجين المادي والمعنوي مفهوم ومنطقي، أما عبارته التي يقول فيها : « إنه لا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن ورصف الطرق مثلا، بينما يكون هناك تخلف ملحوظ في التعليم وارتفاع نسبة الأمية، وما تلا ذلك من عبارات حديثه السابق ففيها نظر .. !!

لقد فاته أن التغير حين يحدث في المجتمع يكون أسرع في الجوانب

---

(٢) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٤.

المادية منه في الجوانب الأخرى ، ولعل هذا هو الحال الذي كان في دول الخليج بالتحديد، وربما لا يزال سائداً في بعضها حتى الآن، فلقد تبنت هذه الدول خططًا طموح للتنمية خلال العشرين سنة الأخيرة ، نتيجة لاستثمار أموال الطفرة البترولية الهائلة التي أعقبت حرب رمضان/أكتوبر المجيدة عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، والتي جاءت نتيجة لتصحيح أسعار البترول، وكان من نتائج هذه الخطط أن أخذت مظاهر العمران العديدة (المادية) تتضح في كل ركن من أركان الخليج بشكل سريع، كذلك وصلت خدمات جديدة عديدة لجميع هذه الأركان حيث أسست الجامعات ، وبنيت المدارس، ورصفت الطرق، وشيدت منشآت هائلة من مطارات عملاقة، وموانئ ضخمة، بل إن هناك مدنا كاملة أقيمت في بعض الحالات، كذلك أنشئت شبكات كاملة للاتصالات، ربما لا تقل عن نظيراتها في الغرب، ولقد جرى كل ذلك في الوقت الذي كان يجري فيه تغيير الإنسان الخليجي من خلال التعليم والتثقيف، وبواسطة الخدمات الصحية والثقافية المتنوعة، ولكن سرعة التغيير في هذا الجانب كانت أقل بطبيعة الحال لأن التغيير في الأمور المادية أسهل وأسرع منه في البشر، طالما توفرت الإمكانات المادية، وتوفرت معها عزائم الرجال وتصميمهم على التغيير.[٤]

ثانيًا : العناصر غير المادية :

وهذه تشمل ما يلي :

١- اللغة ، وهي أداة الثقافة ووعاؤها.

٢- الفنون والآداب وسائر أنواع المعارف التي ينتجها الإنسان.

٣- الاتجاهات، والعادات ، والتقاليد، والمعايير الاجتماعية، والقيم.

---

(٤) يمكن مراجعة كتاب المؤلف : « التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية: مشكلة العمالة الأجنبية ومشكلة الطاقة (معالجة اسلامية) » ، دار الابداع الثقافي ، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٤- الدين. [*]

٥- المعتقدات الشعبية، وهي تظهر فيما نسميه بالفلكلور أو التراث الشعبي من أمثلة ، وحكم، وأساطير، وحكايات ، وفنون شعبية.

والاتجاه هو ميل عقلي نحو أشياء معينة، وهذا الميل قد يكون إيجابيًا، أو سلبيًا بالحب أو الكراهية.

أما العادة فهي عبارة عن سلوك يتكرر بالوعي أو باللاوعي في موقف معين، كعادة وضع غطاء معين على رأس الرجل ، أو على رأس المرأة ، أو الأكل بطريقة معينة ثابتة.

أما التقاليد فهي مجموعة من الطقوس التي تتبعها مجموعة من الناس في مناسبات معينة كالموت أو الزواج.

أما المعايير الاجتماعية فالمعيار هو جملة السلوكيات المتوقعة من فرد ما، في موقف معين يؤدي دوراً اجتماعيًا محدداً ، بحكم وضعه في مكانة اجتماعية محددة في ذلك الوقت.

أما القيم الاجتماعية فهي الأحكام الثابتة في المجتمع على أشياء أو سلوكيات من حيث كونها حسنة أو رديئة ، طيبة أو قبيحة . [٥]

ولكننا هنا نختلف مع المؤلفين في تعريفهم للمعايير الاجتماعية، فلم يقل أحد إن المعيار هو « جملة سلوكيات » ، إذ المعيار أقرب للمقياس الذي يحكم به الناس على سلوكيات الآخرين ، ويتصرف الآخرون في ضوء المعايير التي تضعها الجماعة لهم ، ومن هنا نحكم على أشخاص بأنهم طيبون لأنهم

(*) كنا نود لو أن المؤلفين أفردوا جزءاً خاصًا بالدين يعالجونه فيه وحده، على أساس أنه العنصر الحاكم لحياة المجتمع المسلم بطبيعة الحال، وبحيث لا يعامل كغيره من عناصر الثقافة المادية الأخرى، وبذا يصبح مثله مثل الفنون والآداب ، وكذا سائر أنواع المعارف التي يبدعها الإنسان، لأنه - وببساطة شديدة - من عند الله. إنه « صبغة الله » جل وعلا، ولذا ينبغي ألا نقارنه بما يصنعه البشر بما فيهم من نقص وقصور بل وتناقض كذلك.

(٥) محمود قمبر وآخران: مرجع سابق، ص ص ٣٦ - ٣٧ .

تصرفوا في ضوء تلك المعايير وعلى أساسها ، كما نحكم على آخرين بأنهم غير ذلك لانهم لم يلتزموا بتلك المعايير.

كذلك فإن القيم أقرب ما تكون إلى المعايير ، حيث يفسرها « فؤاد البهي السيد » على أنها معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية، وهي عامة تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة وتعتز بها ، والفرد يمتصها من بيئته الخارجية الاجتماعية، ويقيم منها موازين يبرر على أساسها أفعاله ، كما أنه يتخذها هاديًا ومرشداً له في حياته ، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد ، فتحدد لكل منهم خلانه وأصحابه، وكذا الأعداء.[٦]

(٦) فؤاد البهي السيد : « علم النفس الاجتماعي » ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤م، ص ٢٩٤. هذا ويمكن لمن أراد التوسع في مجال القيم هذا أن يعود لكتاب الدكتور على خليل مصطفى أبو العينين : « *القيم الإسلامية والتربية* » ، مكتبة ابراهيم الحلبي ، المدينة المنورة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

الفصل الثالث

خصائص الثقافة ؟ ؟

الفصل الثالث

خصائص الثقافة

للثقافة خصائص محددة وواضحة ، يمكن إيجازها فيما يلي :

أولاً : التكامل :

وهذه الخاصية معناها أن عناصر الثقافة في أي مجتمع، وفي أي مستوى ، تتكامل فيما بينها ، كما أنها تتوازن حيث نجد أن الأمور المادية في ثقافة أي مجتمع تستند على.. وتتفاعل مع الأمور المعنوية في ذلك المجتمع. وإذا حدث خلل بين الجوانب المادية والمعنوية، كأن يتقدم عنصر على آخر، وهو ما يطلق عليه مصطلح «التخلف الثقافي CULTURAL LAG»، إذا حدث ذلك ، فإن المجتمع يحاول ـ بقدر ما يستطيع ـ تصحيح ذلك الخلل ، وإلا ظهرت فيه المشكلات، وحلت به العلل والأمراض الاجتماعية المختلفة.

ثانيًا : التراكم :

فحيث قلنا في بداية الحديث عن الثقافة أنها تكتسب على مر الأجيال والعصور نتيجة احتكاك البشر بما حولهم من بيئات طبيعية ، وكذا بمن حولهم من بيئات اجتماعية، فإن مئات ، وربما آلاف ، الخبرات التي تتجمع نتيجة هذه الاحتكاكات في عقول هؤلاء البشر ، وفي سلوكياتهم ، تصبح جزءاً من ميراث الجماعة وتنتقل هذه الخبرات الثقافية ـ بجانبيها المادي والمعنوي ـ من جيل إلى آخر، دون توقف أو انقطاع » فهي إذا مستمرة لا تتوقف ولا تنقطع، وترثها الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة، ولذا أطلق عليها الأنثروبولوجي الأمريكي « رالف لينتون R. LINTON » مصطلح « التراث الاجتماعي SOCIAL HERITAGE » الذي يرثه أفراد المجتمع عمن سبقهم من أفراد مجتمعهم.[1]

وتقول الخطة الشاملة للثقافة العربية عن هذا الجانب التراكمي « إنها ـ

(١) زكي محمد اسماعيل : مرجع سابق ، ص ١٤٣.

أي الثقافة - إنجاز تراكمي متنام مستمر تاريخي، فهي بقدر ما تضيفه من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتحبب من قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحًا ومساراً ومثلاً، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساسية، كما أنه بُعد أساسي من أبعادها.(٢)

ثالثا : الإنسانية :

ومعناها أن الثقافة تختص بالعنصر البشري، دون غيره من مخلوقات الله ، وذلك ببساطة شديدة لأن الإنسان هو الذي له تاريخ يتذكره، ويتعظ بأحداثه، وله خبرات يستفيد منها، ويستعيدها ويعلمها أبناءه، فهي - أي الثقافة - فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات، وهي كذلك وسيلة الإنسان للالتقاء مع الآخرين من خلال عناصرها المختارة ، واللغة خير دليل على ذلك، والتنافس في مجالات العلوم والفنون مجال آخر لذلك الإلتقاء.

إن الإنسان - بواسطة عقله - استطاع أن يفكر ، وأن يبدع ويبتكر ، وأن يواجه الظروف الطبيعية القاسية التي اعترضت حياته، بل وأن يتغلب عليها ، بعد أن أعمل فكره فيها ، ولذا وجدنا أنماطًا من السلوك تعلمها الإنسان من مواجهته للكوارث الطبيعية، عرفها وخبرها وجربها في مواجهة تلك الكوارث، ثم إنه علمها لأبنائه من بعده فقلت مخاطر تلك الكوارث، ويكفي أن نتجه ببصرنا نحو اليابان لنرى أثر الزلازل فيها اليوم، ونتذكر آثارها المدمرة التي كانت قبل ذلك في حياة الشعب الياباني، وننظر كذلك في أثر العواصف والأعاصير في حياة المجتمع الأمريكي قديما أيام كان الهنود الحمر هم الذين يمتلكون الأرض ويعيشون هناك، واليوم بعد أن امتلكها العنصر الأوروبي الوافد الجديد، أو الغازي القوي الذي امتلك العلم والتكنولوجيا

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية ، مرجع سابق (المجلد الأول) ص ٤٠.

وطبقها في حياته وعلمها لأجياله كي تتعامل بهما مع الطبيعة ومع غيرها. (*)

رابعًا : التغير والتطور :

فمن خصائص الثقافة أنها تتغير ، في المجتمع الواحد ، بفعل ما يطرأ على ذلك المجتمع من تغيرات، فالشعب المصري على سبيل المثال - يعيش على أرض وادي النيل منذ آلاف السنين ، ولكن لا يستطيع إنسان الإدعاء بأن ثقافة قدماء المصريين كانت مثل ثقافة الشعب المصري تحت حكم اليونانيين أو الرومان، وثقافته حين من الله عليه بالإسلام بعد أن فتح المسلمون بلاده بقيادة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه . «إن الإنسان - عبر تاريخه الطويل يطور من عاداته وتقاليده وأساليب حياته وإنتاجه» ، كما يقول « قمبر » وصحبه.[٣]

خامسًا : الثقافة صانعة الإنسان :

فعلى الرغم من أن الإنسان - كما سبق القول - هو صانع الثقافة ، ومبدع عناصرها عبر عصور التاريخ المختلفة ، إلا أنها هي .. تعود فتصنعه وتشكله حسب آخر أنماطها التي وصلت إليها « إن الطفل الصغير إنما يولد في ثقافة ، وهذه الثقافة هي التي تشكل سلوكه ومفاهيمه وكذا اتجاهاته وميوله.. ويتعلم الطفل - بالوعي وباللاوعي - أنماط السلوك من الأسرة، ومن غيرها من المؤسسات الاجتماعية في المجتمع ، ولا يقبل المجتمع من سلوك الفرد الا ما يتفق مع ثقافته السائدة، والمجتع - أي مجتمع - لا يتهاون في ذلك ولا يفرط فيه على الإطلاق.

« إن الإنسان حينما يولد في ثقافة يتأثر بها ، وخلال حياته اليومية

(*) منذ بضع سنوات ضربت الشواطئ الجنوبية الشرقية للولايات المتحدة الأمريكية موجة رهيبة من الأعاصير حطمت عددا كبيرا من القوارب والمراكب في البحر ، كما حطمت عددا كبيرا جدا من المنازل على الشاطئ ، وقد وصلت الخسائر أكثر من بليون دولار ، بينما لم تتعد الخسائر البشرية سبعة أفراد فقط، وكان ذلك بسبب سماع الناس بها ، وتنفيذهم لتوجيهات الجهات المسؤولة التي بثت إليهم في شبكات التليفزيون والراديو، بعد أن تلقى هؤلاء المسؤولون تحذيرات من الأقمار الصناعية الدوارة في الفضاء.

(٣) محمود قمبر وآخران ، مرجع سابق، ص ٣٩.

يتفاعل مع بيئته المحيطة فيؤثر هو في الثقافة ، فبين الإنسان وثقافته علاقة جدلية، تأثير وتأثر، وتتأثر الثقافة حينما يجمع الأفراد على التغير ويقبلونه.[٤]

والأجيال الجديدة من أفراد المجتمع تصنع وتصهر داخل هذه الثقافة الجديدة، بكل ما فيها من تغير قد لا تكون الأجيال السابقة مرت فيه أو خبرته، وهذا معنى قولنا إن الثقافة تصنع الإنسان على الرغم من أنه هو صانعها ومبدعها.

سادسًا : الإنسان صانعها :

حيث هو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية ، بفضل العقل الذي منحه الله إياه، ويبحث في وسائل استثمارها، ويعمل على التكيف مع عناصرها لتحقيق مطالبه، واستجابة لحاجاته. إن ذلك يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وهي ليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني، انطلاقًا من علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، تنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي، وتدور حول محور المنفعة والاستفادة ، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه، والقيم والمعايير التي تحكمه، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه.[٥]

ملحوظة مهمة :

إن هذا الجزء - بالذات - الخاص بصناعة الإنسان للثقافة هو الذي يؤكد على ما ذكرناه قبل ذلك عن ضرورة فصل الدين بمفرده عند الحديث عن عناصر الثقافة من فن ولغة وغيرهما ، لأنه إذا كانت عناصر الثقافة من صنع الإنسان، فالدين ليس كذلك على وجه اليقين، لأنه منزل من فوق سبع سماوات، من عند الله ، سبحانه وتعالى، وهذا هو الفهم الصحيح الذي ينبغي أن نقيد أنفسنا به نحن المسلمين، حتى وإن قال جميع علماء الغرب أو الشرق بغير ذلك.

---

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠.

(٥) المرجع السابق، ص ١٣٢.

سابعًا : عنصر الانتقاء :

مما لا شك فيه أن الخبرات التي مرت بالإنسان ، في مجتمعاته المختلفة كانت هائلة وكثيرة ومتنوعة ، ورغم أنه سبق القول إن الثقافة تراكمية إلا أنه مما لا شك فيه أن الإنسان قد قام بعمليات انتقاء كثيرة جداً ، داخل عناصر ثقافته، إذ أنه لو أن كل خبرة مر بها كان قد حافظ عليها وأبقاها في ذاكرته أو في سجلاته لعجز اليوم عن حصرها والوقوف عليها جميعا ، ومن هنا فلابد لنا من التسليم بأن الإنسان قد قام بعمليات انتقائية واسعة وكثيرة لما كان قد تجمع لديه من عناصر ثقافية في الوقت الراهن. وفي ذلك يقول « سرحان » : « يتميز المجتمع الإنساني بقدرته على انتقاء الخبرة من رصيدها المتراكم عبر الأجيال مكونا بها رأس المال الذي يتعامل به الإنسان في انتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة الاجتماعية ». وذلك كما نقل عن « حامد عمار » في كتابه « بعض مفاهيم علم الاجتماع ».[٦]

ثامنًا : شمولها لكل المجتمع :

من الخصائص المهمة للثقافة أنها شاملة لكل أفراد المجتمع وطوائفه، بغض النظر عن غنى بعضهم وفقر البعض الآخر، وكذا بغض النظر عن تعلم البعض وجهل البعض الآخر، وكذا بغض النظر عن اشتغال البعض بالأعمال المنتجة للثقافة من آداب وفنون، وبينما البعض الآخر مستفيدون مما ينتجه غيرهم.. إلخ.

إنها إذاً تشمل النخبة من الجماهير الواسعة .. أي المبدعين من أي منبع أو نشاط كانوا، كما تشمل المستفيدين من الثقافة على حد سواء، كما تقول بذلك الخطة الشاملة للثقافة العربية.[٧] إن المجتمع كله ، بهذا المعنى ، إما منتج مفكر مبدع، وإما عامل نشيط منتج، وإما طالب علم مجد مجتهد، وإما طفلٍ نامٍ في طريقه للنضج ، والجميع مستفيدون من جهود بعضهم البعض،

---

(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٣.

(٧) الخطة الشملة للثقافة العربية ، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٣.

والمحصلة النهائية غنى المجتمع بثقافته وتطورها ، بفضل ما يتراكم لدى مؤسساته ومنظماته وهيئاته من عمل كل هؤلاء الأفراد.

تاسعًا : خاصية الاستمرار:

طالما أن الثقافة تتراكم في المجتمع ، نتيجة خبرات أفراده مع عناصر الطبيعة ، أو مع أفراد مجتمعه، أو المجتمعات الأخرى، فمعنى ذلك أنها مستمرة.. من جيل إلى جيل . وعلى الرغم من فناء الأجيال المتعاقبة إلا أن الثقافة تبقى من بعدهم لتتوارثها الأجيال من بعضها ، ولتضيف إليها كل يوم جديدا. وهذا التوارث للثقافة ، بعناصرها المختلفة ، هو الذي يؤدي إلى وجود ما يعرف بمصطلح «التراث الاجتماعي SOCIAL HERITAGE » الذي يرثه أفراد المجتمع، أو بمعنى أصح.. أجيال المجتمع اللاحقة، من الأجيال السابقة، وذلك كما يقول « رالف لينتون R. LINTON » الأنثروبولوجي الأمريكي المعروفي ، وكما نقل عنه « اسماعيل » قوله : إن للثقافة قدرتها الهائلة على الانتقال التاريخي داخل المجتمع الواحد، بل وحتى من مجتمع إلى آخر.(٨)

عاشراً : الثقافة فكر وعمل :

حينما وجد الإنسان على سطح هذه الأرض كان عليه أن يفكر ، وأن يعمل ، حتى يستطيع البقاء، ومنذ اللحظة الأولى التي واجهته فيها مشكلة ، كما يعلمنا القرآن الكريم ، وكانت مشكلة دفن الموتى ، حين أرسل الله ، سبحان وتعالى ، غرابًا يعلم الإنسان الدرس الأول فيها﴿ فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه ﴾ وقد اعترف الإنسان «قابيل بن آدم » بعجزه وجهله أمام ذلك الطائر ﴿ يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ ، ولكنه تعلم الدرس، بعد أن أعمل فكره فيه بسبب الخبرة السيئة التي مرت به، ومنذ ذلك الوقت وهو يفكر.. ويعمل » إن أي عمل إنساني لا يتم إلا إذا كان ترجمة لأفكار معينة، كما أن

---

(٨) زكي محمد اسماعيل : مرجع سابق، ص ١٤٤.

العناصر المادية ، على اختلاف أشكالها وطرزها ، لا تخرج عن كونها أفكاراً تجسدت في أعمال .. والدين الإسلامي لا يتمثل في العقيدة وحدها ، وإنما يتجلى في المعاملات والعبادات والشعائر التي يؤديها الإنسان المسلم ، امتثالاً لأوامر الإسلام ونواهيه » .[٩]

حادي عشر : الثقافة نسيج معقد :

تشتمل الثقافة على عدد كبير من السمات والمركبات والنظم والأنساق والأنماط الثقافية ، وذلك لتراكم التراث الثقافي واستمراره عبر عصور طويلة ، وكذلك لاستعارة عديد من السمات والأنماط الثقافية من خارج المجتمع نفسه، ويرجع تعقد وتشابك العناصر الثقافية إلى أمر مهم، هو أن القدر الأكبر من السلوك البشري ليس مجرد تجمع عشوائي من الأنشطة التي تمثل أنساقا ترتبط ببعضها البعض، وإنما يتم هذا الارتباط الوثيق من خلال ارتباط وتنسيق دقيق لهذه العناصر التي تتداخل وتتشابك فيما بينها بحيث لا يفهم نمط منها إلا بارتباطه بالأنماط والعناصر الأخرى.[١٠]

ثاني عشر : القابلية للانتشار :

كثيراً ما تكون المخترعات والاكتشافات، بطبيعتها المادية والاجتماعية، من إنتاج فرد أو جماعة..في بادئ الأمر، فإذا بقيت وقفا على هذا المستوى الفردي أو الجماعي تلاشت بموت الفرد أو الجماعة التي اكتشفتها ، ولكنها تنتشر عن طريق الأفراد ، داخل المجتمع الواحد، أو عن طريق الجماعات الإنسانية في المجتمعات.

وانتشار هذه المخترعات يتم عادة على أساس احتوائها كعناصر ثقافية جديدة داخل الكيان العام لثقافة المجتمع، فالانتشار هو انتقال عناصر ثقافية داخل الثقافة نفسها ، من جزء إلى أجزاء أخرى، لتشمل كل الثقافة، أو انتقال هذه العناصر الثقافية من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر، ويكون الانتشار

---

(٩) المرجع السابق، ص ١٤٥.

(١٠) المرجع السابق، ص ص ١٤٥-١٤٦.

مباشراً عن طريق احتكاك الأفراد والجماعات ببعضها البعض داخل المجتمع الواحد ، أو عن طريق احتكاك المجتمعات ببعضها البعض.[11]

هذا، ويكون الانتشار سريعًا وفعالاً حين تبدو أهمية العناصر الثقافية المنقولة، إذ يتوقف قبولها في المجتمع على ما تتميز به من فائدة له، كأن تكون قادرة على حل مشكلة معينة، أو أن تكون قادرة على إشباع حاجة لأفراده، فتزداد درجة انتشارها وتكاملها داخل الإطار الثقافي العام لثقافته، لذلك فإن انتشار العناصر الثقافية المادية كالمخترعات والأدوات والمنتجات الصناعية، يكون أكثر في سرعته من انتشار العناصر الثقافية غير المادية كالمفاهيم والاتجاهات والعادات السلوكية وغيرها مما يتصل بأنماط السلوك في الثقافة.[12]

ولعل مثال انتقال المخترعات المادية وانتشارها في دول الخليج العربية يبين ما سبق بوضوح ويفسره، حيث تعج شوارع الخليج وطرقاته بالسيارات من كل شكل ولون ، وحيث تنتشر المحلات الضخمة (السوبر ماركت) التي تمتلئ بكل ما هو منتج وموجود في بلاد العالم الغربي من ماديات، بينما لم تستطع القيم والاتجاهات الغربية أن تخترق مجتمعات الخليج بنفس هذا القدر الذي فعلته العناصر المادية ، وإن كانت هناك ـ للأمانة ـ بوادر مقلقة في هذا الشأن لا تخفى على ذوي الحس السليم والفهم الواعي للأمور.

ثالث عشر : حركية الثقافة :

وقد يكون هذا المصطلح غريبا بعض الشيئ ، ولكننا نقصد به وضع الثقافة من حيث هي ديناميكية متحركة، أو استاتيكية ساكنة. ومعروف أن الجمود التام معناه الموت، ولذلك فحينما نقول : إن ثقافة ما ثقافة جامدة أو ساكنة فلا يعني ذلك أنها ثقافة ميتة لا حراك فيها ، ولكن معناه أنها ثقافة هادئة الحركة ، لا تنزع الى السرعة والحركة النشيطة ، وأن حياة الأفراد فيها شبه ثابتة، وأدوارهم الاجتماعية محفوظة ، أو شبه محفوظة.. التغير فيها

(١١) منير المرسي سرحان ، مرجع سابق، ص ص ١٤٧-١٤٨.

(١٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٨-١٤٩.

بسيط جداً ومحدود ، وهذه ـ عادة ـ هي ثقافات المجتمعات البدائية، وتقترب منها ثقافة المجتمعات الريفية أو البدوية البعيدة عن المدن، والبعيدة ـ بالتالي ـ عن التأثيرات المتسارعة للأحداث.

وعكس ذلك ، بطبيعة الحال، ثقافة المجتمعات الحية الديناميكية المنفتحة على الثقافات الأخرى بكل تياراتها ، تتأثر بها، وتؤثر فيها ، تأخذ منها وتعطيها، وهي بذلك تساير روح العصر وتقدمه العلمي والتكنولوجي، كذلك نجدها تأخذ بالنظام الديموقراطي كأسلوب حياة يرقى بالمجتمع، وينهض بأوضاعه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويمكن أفراده من « الحراك الاجتماعي Social Mobility » بين أفراده وجماعاته وطوائفه وطبقاته. وتتمثل الثقافة المتغيرة المتحركة ـ بصفة عامة ـ في ثقافة أهل المدن، وفي الثقافات التقدمية ، بعكس القرى والثقافات البدائية.(١٣)

رابع عشر : الثقافة تكتسب بالتعلم :

« لما كانت الثقافة تاريخية المنشأ..أي أنها تكونت على مدار التاريخ البشري، وقد شارك فيها أفراد الجماعة البشرية ككل ، أو على الأقل في جانب منها معين، فإنها تنتقل فيما بينهم ، وهذا الانتقال يتم عن طريق التعليم والتعلم والتقليد والتلقين، من جماعة لأخرى، أو من أفراد لآخرين ، عبر الزمان والمكان ، الأمر الذي جعل الثقافة وسيلة للاتصال بين الأجيال المختلفة ، وليس بين أفراد الجيل الواحد ولا يتم هذا الاتصال عن طريق الوراثة البيولوجية، وانما يتم عن طريق التنشئة الاجتماعية Socialization ، أو التنشئة الثقافية Enculturation، تلك التي بموجبها تنتقل الثقافة من جيل لآخر .. إن الطفل الإنساني يولد صفحة بيضاء تخط الثقافة بصماتها عليها، تلك البصمات التي تتمثل في أنماط السلوك ، وطرائق العادات، وطبيعة القيم والأخلاقيات من خلال نموهم في المجتمع، وفي إطار تنشئتهم الثقافية والاجتماعية في محضن الأسرة والجماعة والمجتمع والدولة. يقول الرسول ﷺ ما معناه : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

(١٣) المرجع السابق، ص ص ١٥٠-١٥١.

الفصل الرابع

مكونات الثقافة

الفصل الرابع
مكونات الثقافة

إذا كانت الصفحات الماضية قد تعاملت مع « الثقافة » من حيث جذورها ، ومن حيث نشأتها ، وكذا من حيث معانيها المختلفة، وكذا من حيث خصائصها ، فما - يا ترى - مركبات تلك الثقافة ..؟ أو بمعنى آخر ما الأجزاء التي تتركب أو تتكون منها الثقافة ..؟ لعل الصفحات القادمة تتناول هذا الجانب بشيئ من التفصيل ، وهي - عمومًا - تتكون من الآتي :

أولاً : العموميات Universals :

وهي تمثل ذلك القدر المشترك بين أفراد الجماعة، وهو الأكثر أهمية من مكونات الثقافة ، حيث يشتمل على الدين واللغة والعادات والتقاليد والقيم والمعايير التي تحكم تصرفات الأفراد داخل المجتمع، وتأتي أهمية هذه العموميات من كونها هي التي توحد أبناء المجتمع الواحد ، وتؤلف بينهم، وتعطيهم طابعهم الخاص الذي يفرق بينهم وبين غيرهم من المجتمعات أو الشعوب، كما أن هذه العموميات هي التي تعمل على تماسك أفراد المجتمع، وعلى شدة تعاضدهم مع بعضهم البعض ، خاصة في أوقات الشدة والأزمات، أو الحروب بينهم وبين الآخرين، فهنا تبدو قيمة تلك العموميات في ضم أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، كما أنها تعمل على تقريب مشاعرهم، وبعث حبهم لبعضهم البعض، كما أنها تجلي حرصهم على الصالح العام لمجتمعهم ، خاصة في أوقات الأزمات والحروب والصراعات ، لأنه من المعروف أن العدوان الخارجي يعمل على توحيد القوى الداخلية للمجتمع.

ودائما ما تلجأ الجماعة إلى هذه العموميات تتعلق بها، بل وتنتصر بها، وكان رسول الله ﷺ ، يطلب من أصحابه أن يكثروا من ذكر الله، سبحانه وتعالى، عند لقاء العدو ، ومعنى ذلك أنه كان يلجأ إلى عنصر « الإيمان» يبثه في نفوس أصحابه حتى يثبتوا في وجه أعداء الإسلام. ومعروف أن الدين في

المجتمع المسلم هو أول أمر في تلك العموميات، ودول اليوم تحاول ، خاصة من خلال وسائل الإعلام والتربية، أن تذكر أبناءها بماضيهم ، وأن تذكرهم بما يجمعهم ويربطهم ويوحدهم أثناء الأزمات والصراعات، وتلك هي صميم العموميات.

كذلك يمكن القول بأن هذه العموميات هي التي تعطي المجتمع لونه الذي يميزه عن غيره من المجتمعات ، أو بعبارة أخرى ، هي التي تشكل شخصيته، حيث أن لكل مجتمع شخصيته التي تميزه ويعرف بها ، تمامًا مثله في ذلك مثل الأفراد، ويستطيع أفراد المجتمع الواحد - عن طريق هذه العموميات أن يتعارفوا، بل وأن يتجاذبوا إلى بعضهم البعض، خاصة عند تواجدهم خارج حدود مجتمعاتهم، بحيث يعرفون بعضهم في يسر وسهولة، حتى دون أن يكون بينهم سابق معرفة أو تعارف على المستوى الشخصي.

ثانيًا : الخصوصيات Specialities:

وإذا كانت العموميات تشمل كل أفراد المجتمع بجميع مستوياتهم التعليمية والعلمية والثقافية والاقتصادية، إلا أن الخصوصيات شيئ آخر، إذ تختص بها طوائف معينة من أبناء المجتع يمتلكون مهاراتها، ويتحكمون في أسرارها ، ويعرفون معرفة اليقين طرق التعامل بها، فهي - بذلك - وقف عليهم، وحكر خاص بهم، لا يدخل من أبوابها إلا من تأهل لها، وسمحت له قدراته بالمرور من خلال متطلباتها، حيث لها لغتها الخاصة بها، وقواعدها التي ينبغي الالتزام بها، بل وأساليبها في التعامل والتخاطب.

هذا ويقسم البعض هذه الخصوصيات إلى نوعين هما :

أ - الخصوصيات المهنية :

وهي التي تستلزم لممارستها خبرات ومهارات فنية ، ومصطلحات سلوكية ، دون اعتبار لأصحاب هذه المهارات من الأفراد ، فهي ليست وقفا عليهم، كما يقول « سرحان » ، بل تسمح بدخول أفراد الفئات الأخرى (كان ينبغي القول : أفراد المجتمع الآخرين) للعمل فيه،

فالعمل الزراعي والصناعي ، والاشتغال بالطب والمحاماة ، وكذا التدريس.. ليس قاصراً على فئة بعينها من الناس، بل هو عمل مسموح به لمن يشاء من أفراد المجتمع (وهنا أيضا نقول : إن المؤلف كان ينبغي أن يقول : : لمن يقدر عليه من أفراد المجتمع).

نخلص من ذلك إلى أن فئات الناس في هذا القسم ليست ثابتة، وأن كل نوعية عمل تخصصية تكسب المشتغلين بها نمط شخصية معينة، ومصطلحات سلوكية تختلف عن مثيلاتها في أنواع الأعمال الأخرى، وبازدياد العلم وتقدمه ، وبتطور الحياة، خاصة في جانبها الصناعي التكنولوجي المتقدم نجد زيادة في تقسيم العمل، وتشعبًا في تخصصاته المتشعبة، ومن ثم فإن هذه التخصصات الفنية تزداد ، وتزداد معها ـ بالتالي ـ خصوصيات الثقافة.[1]

ب ـ الخصوصيات الطبقية :

وهذه الخصوصيات تقتصر على فئات بعينها في المجتمع ، إذ أن في كل مجتمع طبقات راقية (أرستوقراطية)، وطبقات متوسطة، ثم طبقات قاع المجتمع، والتي يطلق عليها البعض طبقات الرعاع أو الدهماء ، « وكل طبقة من هذه الطبقات لها قيمها واتجاهاتها، وكذا مصطلحات سلوكها،كما أن لها آدابها ومعاييرها الخاصة المنظمة لحياتها، والمتحكمة في علاقاتها بغيرها من الطبقات، فالاهتمامات الخاصة بالطبقة الراقية ـ مثلاً ـ تنعكس في اختيارها لأساليب وأدوات وأماكن شغل وقت فراغ أفرادها ، وفي متابعة الموضات في الأزياء وموديلات السيارات، وفي تفضيل أنواع من المأكولات والمشروبات، وفي الالتزام بمراسيم وشكليات حضور الحفلات والسهرات، وغير ذلك مما لا تقدر عليه الطبقات الاجتماعات الأخرى.[2]

---

(١) منير المرسي سرحان : مرجع سابق ، ص ١٤٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

والفرق بين الخصوصيات الطبقية والخصوصيات المهنية يكمن في إمكانية الدخول في هذه الخصوصيات ومعايشتها، فبينما يكون الدخول في الخصوصيات المهنية متاحًا لجميع فئات المجتمع طالما توافرت لديهم الاستعدادات والرغبات والمؤهلات العلمية المناسبة والمطلوبة لذلك، نجد أن ذلك أمر شاق وعسير بالنسبة للدخول في الخصوصيات الطبقية.

وتتسم الخصوصيات الثقافية - بنوعيها - بأنها ليست قدراً مشتركا بين جميع أفراد المجتمع ، ومع ذلك فإن كل فرد في المجتمع يعرف عنها بقدر ، فالناس يعرفون أهمية الطب في حياتهم ، كما يقدرون عمل الطبيب، ويتفهمون بعض اتجاهاته ومقاصده في علاج مرضاهم، ولكنهم لا يعرفون دقائق عمله المهني والفني، كما أنهم لا يقفون على بلاغته العلمية ، ومصطلحاته التي يستخدمها مع زملاء المهنة ، لأنها قاصرة عليهم بطبيعة الحال.

ثالثًا : المتغيرات Alternatives:

ويطلق عليها البعض مصطلح « البدائل » ، بدلاً من المتغيرات ، وهي لا تنتسب إلى « عموميات الثقافة » بحيث تشيع بين جميع أفراد المجتمع وطوائفه وجماعاته، كما أنها لا تنتسب إلى « الخصوصيات » بحيث تكون قاصرة على فئة بعينها ، أو طائفة من طوائف المجتمع بذاتها، وإنما هي - في حقيقة الأمر - أمور مستحدثة في حياة المجتمع، وهي تأتيه - غالبا - من خارج حدوده، نتيجة للاحتكاك المباشر بينه وبين مجتمعات أخرى ذوات ثقافات مختلفة. وفي هذه الأيام يمكننا القول : إنها قد تصل إلى المجتمع بطريق غير مباشر عن طريق البث التليفزيوني المباشر وعن طرق أخرى بطبيعة الحال.

وأهمية هذه المتغيرات أنها تمثل الأطراف التي تنمو الثقافة بواسطتها، أو من خلالها ، فحينما تظهر إحدى هذه المتغيرات فإنها تسبب قلقا في المجتمع، أو على الأقل تسبب ذلك القلق في بعض قطاعاته لأنها جسم غريب يوشك أو يود أن يستقر في صلب المجتمع، وعادة ما تكون هناك مقاومة مبدئية من المجتمع لذلك الجسم الغريب.

ولكن إذا أثبتت المتغيرات الجديدة أنها ذات فائدة واضحة للمجتمع، أو أنها حلت إحدى مشكلاته التي كانت تجابهه فإنها تثبت أقدامها فيه، وإذا كانت فائدتها تعود على طائف معينة من أبناء المجتمع بالتحديد صارت من خصوصيات ذلك المجتمع، أما إذا برهنت على أنها مفيدة ونافعة للمجتمع كله فحينئذ تصبح من عموميات الثقافة فيه، وتدخل في صميم نسيجه ، وتصبح جزءاً أو ركنا ركينا من ثقافته لا يمكن الاستغناء عنها ، لا تنفك عنه ، ولا هو ينفك منها.

ولعل مثال « السيارة » ودخولها إلى مجتمعات الخليج العربي يوضح هذه الفكرة ويجليها ، فلم يكن أفراد تلك المجتمعات يعرفون وسيلة للانتقال بين مدنهم والقرى والهجر سوى السير على الأقدام، أو ركوب الجمال أو غيرها من دواب الحمل ، ولكن حينما دخلت السيارة لأول مرة في حياتهم فمما لا شك فيه أن كثيرين منهم قد استغربوها لأول مرة ، وكثيرين منهم ـ لا شك ـ أجفلوا منها ، وخافوا من المغامرة بركوبها ، بل إن بعضهم ربما يكون قد حذر غيره من إتيان ذلك ، خاصة بعد أن يكونوا قد شاهدوا بعض حوادثها التي راح ضحيتها نفر ممن يعرفون، وربما يكون ذلك قد نقل إليهم سماعًا، أو حتى عن طريق الإشاعات..!!

ولكن .. وبمرور الوقت أثبتت السيارة أنها « عنصر متغير » نافع ، بل شديد النفع، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار المسافات الشاسعة في شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد في المملكة العربية السعودية، وإذا أخذنا في الاعتبار كذلك الكم الهائل من المصالح التي بدأت تقضيها السيارة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وبالذات بعد أن أنشئت لها شبكات هائلة من الطرق الرائعة، ولذلك فإنه ليس غريبًا الآن أن صار أمام كل بيت في دول الخليج عدد من السيارات يمتلكه أفراد الأسرة الواحدة ، وأصبح هذا المتغير الثقافي الجديد جزءاً من عموميات الثقافة الخليجية يهتم به الكبار والشباب .. بل والصغار على حد سواء ويستوردون منه أحدث الطرز والموديلات.

هذا عن المتغيرات في جانبها المادي، وقد رأينا أنه يدخل إلى ثقافة المجتمع بسرعة بقدر ما يثبت فائدته ومنفعته، ولكن هناك متغيرات معنوية، فلو أن مجموعة من الشباب من أبناء مجتمع ما من مجتمعات الخليج المحافظة، ذهبت للخارج بقصد السياحة ، أو حتى بقصد الدراسة، وعادت معها ببعض الأفكار الإباحية التي يعج بها الغرب أو الشرق وتسمح به المجتمعات هناك، ثم حاول أفراد هذه المجموعة العائدة أن يدخلوها - كمتغير ثقافي جديد - إلى مجتمعهم المحافظ فإنهم ، دون أدنى شك، سوف يواجهون بالرفض من جميع أفراد المجتمع، أو من النسبة الغالبة منهم على الأقل، وسوف تكون النتيجة هي فشل ذلك المتغير الجديد في غزو المجتمع ، أو في البقاء على أرضه ، ولا يكون المصير إلا أن تذوي وتذبل،.. ومن ثم تموت ويقضى عليها نهائيًا ، ومن هنا يصدق قول « سرحان » : « إن المتغيرات المتصلة بالجوانب المادية في الثقافة يسهل استقرارها نتيجة سرعة تقبلها من أفراد المجتمع، نظراً لفعالية وظيفتها ، وظهور أثرها سريعًا.

بينما نجد العكس في استقرار المتغيرات المتصلة بالجوانب المعنوية في الثقافة كالقيم، والاتجاهات الفكرية، والخلقية، والعادات، والتقاليد الاجتماعية، نظراً لصعوبة تكيف الأفراد معها، واستبدال العلاقات القائمة فعلاً بعلاقات أخرى، وهكذا نجد أن المتغيرات قد تستقر سريعًا، أو قد تبقى مترددة حائرة متنافسة، أو قد تنزوي ليقوم مقامها متغيرات أخرى تمر بنفس الدور.. وهكذا ».[٣]

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٤.

الفصل الخامس

وظائف الثقافة

الفصل الخامس
وظائف الثقافة

للثقافة وظائف مهمة في حياة المجتمع يمكن إيجازها في النقاط التالية:

أولاً : تمييز المجتمعات عن بعضها :

أنها تميز المجتمعات البشرية عن بعضها، وتوضح السمات العامة التي يتصف بها أفراد كل مجتمع عن الآخر، ولا نقول إن الثقافات تجعل مجتمعا أفضل من الآخر، أو تجعله أكثر رقيًا من غيره، إذ الواقع أن كل مجتمع متفرد بثقافته، معتز بها، بل ومدافع عنها عند اللزوم. إن الثقافات تتمايز فيما بينها، ولكنها لا تتفاضل.

ثانيا : تماسك البناء الاجتماعي :

تعمل الثقافة على تماسك البناء الاجتماعي Social Structure داخل المجتمع ، حيث يعرف كل شخص مواقعه داخل جماعته، ومن ثم يؤدي أدواره الاجتماعية المطلوبة منه دون أن يتصادم مع غيره من الأشخاص. إن شغل أفراد المجتمع لمراكزهم الاجتماعية ، وممارسة الأدوار المنوطة بهم يتم على أساس توقعات المجتمع من هؤلاء الأفراد ، وذلك يساعد على تماسك المجتمع وإزالة عناصر الصراع .

ثالثًا : تشكيل البُعد النفسي :

تشكل الثقافة بُعداً نفسيًا Psychological مهما للفرد داخل جماعته، حيث يشعر بالأمان حين يكون بينها، لأنه يتعامل مع أفرادها على أساس الأطر والأنساق والنظم والقيم التي ارتضتها الجماعة لنفسها، وتشربها هو - أي الفرد - خلال تنشئته الاجتماعية الطويلة منذ الطفولة، كما أنه يشعر

بالأمان النفسي حين يكون خارج جماعته ويلتقي بنفر من أبناء ثقافته يحس بأحاسيسهم، ويشعر بشعورهم. إن الطمأنينة النفسية ، وإشباع الحاجة للأمن لمن أهم وظائف الثقافة.

رابعًا : توضيح المعايير والقيم :

توضح وتجلي المعايير والقيم التي تتبناها جماعة بعينها ، داخل ثقافة معينة، كما توضح للفرد حدود علاقاته وتعاملاته مع الأفراد الآخرين، ومع الهيئات والمنظمات داخل الجماعة أو المجتمع باتساعه، ومعرفة هذه الحدود والالتزام بها أمر مهم للطرفين : الأفراد من جهة والهيئات والمنظمات من جهة أخرى ، حيث يسلك كل منهم وهو على بينة من أمره ، مما يجعل العمل والتفاعل يسير بهدوء وسلاسة دون تصادمات ، بل مما يجعل الحياة نفسها هينة وسهلة.

خامسًا : إيجاد اهتمامات مشتركة :

تعمل الثقافة على إيجاد اهتمامات مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد، ووجود الأهداف المشتركة ، والسعي لتحقيق تلك الأهداف يربط أفراد المجتمع ببعضهم ويوحدهم، كما يكسبهم الشعور بالانتماء والتضامن والتعاون، ومن ثم يجنبهم الصراع والتمزق، ويحقق بينهم روح الجماعة الواحدة، ووجود هذه الروح دافع رائع لإنجاز المعجزات ، خاصة إذا كانت هناك أهداف واضحة يجمع الكل عليها، ويسعون لتحقيقها بكل جهدهم وطاقتهم.

سادسًا : حفظ التراث :

تحفظ الثقافة للمجتمع تراثه القديم ، وتعمل على نقله عبر الأجيال المتعاقبة من القديم إلى الحديث فالأحدث، ولولا هذه العملية ـ المحافظة على التراث ونقله ـ لانقطعت الصلة بين الأجيال الحالية في مجتمعاتها وبين ماضيها، ولضاعت ـ في الوقت نفسه ـ خبرات هائلة مرت بها الجماعات البشرية في صراعها الطويل مع الطبيعة ، ومع بعضها البعض، ولكان على كل جيل أن يبدأ المسيرة من جديد ، وأن يكتسب خبراته بذاته.

سابعًا: تحديد ذات الإنسان وعلاقاته:

تحدد الثقافة ذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع « ما وراء الطبيعة » ، كما تقول الخطة الشاملة للثقافة العربية ، من خلال تفاعله معها ، وعلاقاته بها ، في مختلف مجالات الحياة[1]. ولا ندري لماذا لا يقول من أسهموا في وضع تلك الخطة شيئا عن علاقة الإنسان بخالقه، خاصة في مجتمعنا العربي المسلم، وذلك بدلا من الحديث عن « ما وراء الطبيعة »..؟؟!!

ثامنًا : تيسير سبل التفاعل للإنسان :

الثقافة قوام الحياة الاجتماعية، وظيفة وحركة ، فليس من عمل اجتماعي ، أو فني جمالي ، أو فكري يتم إنسانيا خارج دائرتها ، وهي التي تيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه.. مادة وبشراً ومؤسسات.[2]

تاسعًا : توحيد الأمة :

هي وسيلة وحدة الأمة (المجتمع) لأنها هي التي تنسج وحدة التكوين الداخلي فيها، وتوحد في أعماق الذات نماذجها البشرية وقيمها، وتجمع أفرادها على الالتزام بمصيرها التضامني الواحد.

عاشرًا : تأكيد الذات:

هي وسيلة تأكيد للذات وللتمايز عن الآخرين (وليس للتميز.. فالفرق كبير)، وهي بقدر ما تقرب المرء من قومه تبرز من خلاله عبقريته الخاصة، وتكشف عن تباين باقي البشر وتفرده الإنساني عنهم[3] (؟؟).

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية ، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣.

ملحوظة :

إننا إذا كنا نقبل فكرة التمايز بمعنى الاختلاف إلا أن فكرة تفرد الإنسان عن باقي البشر هذه ، والتي يقول بها واضعو خطة الثقافة العربية يصعب قبولها ، حقيقة لكل إنسان سمات وقدرات تختلف عن الآخرين، ولكن ليس لدرجة تفرد إنسان واحد عن جميع البشر..!! ويكفي أن الله ، سبحانه وتعالى، يقول في محكم آياته على لسان سيد الخلق أجمعين ﷺ،﴿ قل إنما أنا بشر .. مثلكم﴾، كما يقول ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ .

حادي عشر : وسيلة دفاع وحصن أمان :

هي وسلة دفاع ، وحصن أمان في اللحظات المصيرية، لأنها آخر ما يمكن انتزاعه من النفوس[٤]، والواقع أن هذا القول ينطبق خاصة على جانب «الإيمان» في حياة الأفراد ، فهو الملجأ الأخير الذي يلجأ إليه الإنسان، ويعتصم به، ولعل ما يجري في البوسنة والهرسك، وفي الشيشان ، هذه الأيام من اعتصام المسلمين بدينهم ، أمام الصرب المجرمين والشيوعيين الكافرين ، يوضح دور الإيمان في حياة البشر، وقد سبق ورأينا الأعاجيب في الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، في معارك الجهاد بين كل من الجزائريين والفرنسيين، وبين الأفغان والروس[*]، وذلك حين اعتصم المسلمون بدينهم وإيمانهم وقاتلوا أهل الشرك والكفر، ودافعوا عن أوطانهم ، ودفعوا أرواحهم حتى أتاهم نصر الله المبين، وهو نفس ما يجري الآن في الأرض المقدسة.. فلسطين ، بين المؤمنين وبين اليهود الملعونين.

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤.

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع مراجعة كتاب المؤلف: «أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.

الفصل السادس

أهمية التربية
في حياة المجتمع

الفصل السادس

أهمية التربية في حياة المجتمع

ماهية التربية :

منذ وجدت المجتمعات البشرية على وجه الأرض، وهي تتخذ من التربية وسيلة لتنشئة أفرادها ، وللعمل على تكيفهم مع البيئات المحيطة بهم، والتربية بهذا المعنى قرينة للحياة ذاتها.

فالأسرة تتولى العناية بصغارها كي يتوافقوا مع المجتمع الصغير المحيط بهم في نطاقها ، ومع المجتمع الخارجي ، كي يستطيعوا التعامل معه، والعيش في خضم حياته، ولأن التربية تحتل موقعًا خطيراً في حياة المجتمع فإنها لم تترك للأسرة .. فقط، كما أنها لم تترك للأفراد، وإنما تدخلت فيها الجماعة أو المجتمع، وألقت وراءها بثقلها.

إن ما يميز أفراد مجتمع ما عن أفراد مجتمع آخر هو ثقافة ذلك المجتمع ونوع التربية فيه، وللمحافظة على بقاء الجماعة واستمرار وجودها فإن المجتمعات تحرص على أن تلقن الصغار من أفرادها أساسيات ثقافتها، ومبادئ تربيتها، حتى يخرجوا إلى الحياة وهم متماسكون اجتماعيًا وثقافيًا وفكريًا ، بحيث لا تسهل إذابتهم في مجتمعات أخرى ، وبحيث يقاومون ما قد يتعرضون له من ضغوط تقع عليهم ، سواء كانت من جانب الطبيعة وعواملها، أو من جانب المجتمعات المحيطة بهم، والتي قد تطمع فيما عندهم من خيرات أو ثروات، أو من جانب وسائل الإعلام الحديثة الموجهة إليهم وإلى مجتمعاتهم.

التربية عملية مرادفة للحياة:

والتربية ، بناءً على هذا الأساس ، عملية مستمرة مرادفة للحياة ذاتها، فهي تبدأ مع الإنسان منذ ولادته، بل وحتى قبل ذلك الميلاد ، وهذه تستمر معه طيلة سنى عمره ، ولا تنتهي إلا بانتهائها.

ولعل هذا المعنى هو الذي كان - ولا يزال - وراء عناية الإسلام واهتمامه بالطفولة وتنشئتها ، حتى قبل الزواج، عملاً بحديث رسول الله ﷺ :« تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس ». ولقد حرص الإسلام على العناية بالأطفال منذ ميلادهم - كما يقول « حسن عبدالعال » : « بل لقد شملت عنايته مرحلة ما قبل الميلاد ، حين دعا إلى اختيار الزوجة الصالحة ، لتكون أما صالحة ، توفر المناخ الطيب ، والبيئة الملائمة لتربية الطفل، وأيضًا برعايته والعناية بصحته الجسمية والنفسية ».[1]

التربية والتطبيع الاجتماعي :

وعلى ذلك فإن التربية عبارة عن عملية تشكيل لشخصية الفرد ، ولبناء حياته داخل الإطار الذي ارتضته الجماعة لنفسها، والذي وضعت معاييره وحددت ضوابطه، وهذه العملية « تبدأ مع الإنسان طفلاً يتشرب القيم والاتجاهات والتصورات من والديه، ثم ينمو الطفل، ويحتك بالأقارب والجيران، فتزيد دائرة احتكاكاته، ثم يذهب إلى المدرسة، إن كان هناك تعليم مدرسي، فتتسع الدائرة أكثر ، كما يقول بذلك « عبود » .[2]

ويقول « سويفت Swift » إن التربية هي الطريقة التي يتمكن الفرد بواسطتها أن يكتسب الكثير من القدرات البدنية والأخلاقية والاجتماعية ، تلك القدرات التي تتطلبها الجماعة التي ولد بها، والتي يرغب أن يعمل فيها . ويسمى علماء الاجتماع هذه العملية بالتطبيع الاجتماعي ، أو التنشئة الاجتماعية Socialization، وترجع أهمية هذا المصطلح إلى سببين ، فهو يؤكد في المقام الأول على أن التربية عملية اجتماعية ، تحدث في إطار اجتماعي، كما أنها تتم بالطرق والأساليب التي تتطلبها قوانين الجماعة.[3]

(١) حسن عبدالعال : «التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

(٢) عبدالغني عبود : « الأيديولوجية والتربية : مدخل لدراسة التربية المقارنة»، دار الفكر العربي، القاهرة ، ط٢، ١٩٧٨م، ص ص ٢٦-٢٧.

(٣) د. ف. سويفت : « اجتماعيات التربية: دراسة تمهيدية تحليلية» ، ترجمة محمد سمير حسانين، مؤسسة سعيد للطباعة، طنطا ، ط٢، ١٩٧٧م، ص ١٦.

ومعروف أننا لا نستطيع - كما يقول « جونسون Johnson » : أن نتحدث عن شخصية الطفل الوليد » ، وذلك ببساطة لأن هذا الرضيع لا يمتلك هذه الشخصية بالمعنى الصحيح . إن الشخصيـة عبارة عن نظام داخلي معقد A Complex Inner System يمثل العالم الخارجي ، بعد أن تحتك به وتتفاعل مع عوامله.[٤] ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ : « يولد الطفل على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ».

وهذا الكلام يقودنا إلى عملية التطبيع الاجتماعي التي حدثنا عنها «سويفت » والتي هي من أخطر المهام التي تقوم بها الجماعة تجاه أفرادها الجدد من الناشئين حتى يستطيعوا أن يتكيفوا مع الجماعة المحيطة بهم، وأن يتوافقوا مع ما أصطلح عليه أفراد المجتمع، وبالتالي فإن هذه العملية - عملية التطبيع الاجتماعي - عملية تربوية بالدرجة الأولى ، يتمكن الفرد أو الناشئ الجديد، من خلالها ، من القيام بالأدوار الاجتماعية الجديدة عليه المطلوبة منه للعيش والتوافق داخل مجتمعه.

هذا ويركز علماء الاجتماع كثيراً جداً - في عملية التطبيع الاجتماعي هذه، على دور الأسرة ، وهم بطبيعة الحال لا يغفلون دور المجتمع الخارجي، ولكنهم يقولون بأن الاحتكاك الأول للطفل، بأفراد أسرته، وخاصة والدته ، يصنع البنود الأولى لتطبيع المولود وتكيفه مع مجتمعه.

جماعات الرفاق :

وإذا كانت الأسرة تلعب الدور الأول والأساس في عملية التطبيع الاجتماعي - التي هي عملية تربوية بالدرجة الأولى - في المراحل الأولى من حياة الطفل، إلا أنها تبدأ في فقدان مساحة التأثير عليه في كل يوم يشب فيه عن الطوق ويبدأ في الاحتكاك بالعالم الخارجي، حيث تشاركها ذلك التأثير جماعات

---

(٤) Robert T. Bell (Ed). Harry M. Johnson : Socialization (in the Sociology of Education), Temple University. The Dorsey Press, Inc., IL, 1962, Pl. 85.

أخرى من المجتمع، ، من أهمها وأخطرها جماعات الأنداد أو النظراء (الرفاق The Peer Groups) والتي يتضح تأثيرها على أفرادها بشكل كبير ، خاصة في مرحلة المراهقة ، حتى إن بعض الدراسات في هذا المجال قد أثبتت أن تأثير أفراد هذه الجماعات على بعضهم البعض يكون في بعض الأحيان ـ أقوى كثيراً من تأثير الأسرة ذاتها على أبنائها.

ويوضح لنا المعنى السابق أحد علماء الاجتماع الأمريكيين قائلا : « إنه إذا كانت جماعة الأتراب واضحة بعض الشيئ في مرحلة الطفولة، إلا أنها تصبح مظهراً سائداً ومسيطراً على الحياة الاجتماعية للمراهقين ».(٥)

ويفسر البعض هذا الصراع الذي يأخذ مجراه ، بين المراهق وأسرته، خاصة في المجتمعات الحديثة المتقدمة ، على أساس أن المراهقين يقضون مع بعضهم أوقاتًا أطول بكثير مما يقضون مع أسرهم ، كما أن تماثلهم أو تقاربهم في السن يجعل تفكيرهم متقاربًا، وبالتالي فحينما يوجد اختلاف حاد بين القيم التي تتمسك بها الأسرة وتلك التي تسود « جماعات الأتراب »، نجد أن أفراد هذه الجماعات من المراهقين يفكرون ويسلكون في إطار قيم هذه الجماعات، والتي قد تكون ـ أحيانًا ـ معادية ومتصادمة مع ما تعتقده الأسرة .(٦)

العمل على تكييف الفرد :

وعلى ذلك فإذا نظرنا إلى التربية لوجدنا أن إحدى أهم الوظائف التي تقوم بها بالنسبة للفرد والجماعة هي وظيفة العمل على تكييف الفرد مع نفسه، ومن ثم تكيفه مع جماعته، فهي إذاً تكيف من جانب الفرد للعيش مع الجماعة، وللتوافق مع متطلباتها ومعاييرها وعاداتها وقيمها .. بل وقيودها أحيانًا.

كما أنها عملية تكييفية من جانب الجماعة لهذا الفرد كي يستطيع أن يساير ما تضعه الجماعة من معايير ، وأن يعمل ـ مع غيره من أفراد المجتمع ـ

(٥) Ruth Schoral Covan: The American Family, Thomas Y. Growell Company N.Y. Third Edition, 1984.

(٦) Earl Raab Gertrude Joeger: Major Social Problems, Harper Ron Publishers, New York- Evanston London, 1964. PP. 330-331.

لتحقيق أهداف تلك الجماعة. والعملية بهذا الشكل، كما يقول « سرحان » : عبارة عن عملية تكيف بين الفرد وبيئته، وهذه العملية تنشأ عن اشتراك الفرد - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - في الحياة الاجتماعية الراعية للجنس البشري، وباستمرار هذه المشاركة واتصالها تتشكل عادات الفرد واتجاهاته، وقيمه الفكرية والخلقية والاجتماعية، فهي تمثل الحصيلة الكلية لاتحاد الخبرات الإنسانية التي تشكل ما يسمى بالشخصية . [٧]

هذا ، ويعرف أحد الباحثين التربية على أنها تلك الجهود التي تتعلق بتعليم أفراد المجتمع من الجيل الجديد كيف يسلكون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشأون فيه.

ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك، وتنميته وتطويره وتغييره، أي أن هدفها أن تنقل إلى أفراد الجيل الجديد المهارات والمعتقدات والاتجاهات، وأنماط السلوك المختلفة التي تجعل منهم مواطنين صالحين في مجتمعهم ، متكيفين مع الجماعة التي يعيشون بينها، أي أن التربية عملية تعليم وتعلم لأنماط متوقعة من السلوك الإنساني . [٨]

هذا ، ويركز بعض المفكرين التربويين على أن مهمة التربية هي أنها تهتم - بالدرجة الأولى - بتنمية الشخصية داخل الإطار الاجتماعي الذي توجد فيه هذه الشخصية وتتفاعل، والمفهوم الذي يأخذون به فيما يتعلق بالشخصية هو أنها «كل منظم شامل يتضمن الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والروحية، كما يتضمن الخُلق والمزاج اللذين يعتبران أجزاء من شخصية الفرد ». [٩]

---

(٧) منير المرسي سرحان : مرجع سابق ، ص ١٩.

(٨) محمد لبيب النجيحي : الأسس الاجتماعية للتربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٧، ١٩٧٨م، ص ٩.

(٩) أ. ك. أتاواي : التربية والمجتمع، ترجمة وهيب ابراهيم سمعان وآخرين ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م، ص ٥.

التربية وتنمية قوى الإنسان :

وفي بعض كتابات « هتشنزHutchins » نجده يركز على أن التربية تهدف - ضمن ما تهدف - إلى تنمية قوى الإنسان العقلية Intellectual، والأخلاقية Moral ، وكذا القوى الروحية Spiritual Powers، وبما أن جهة واحدة من المجتمع، أو مؤسسة واحدة - كالمدرسة مثلاً - لا تستطيع أن تنمي كل تلك القوى ، فإن العديد من المؤسسات مثل المدرسة والمنزل والمؤسسات الدينية ، يجب أن تعمل جميعًا .. معا في تناسق Harmony وتعاون ، كي تحقق هذه الجوانب في الإنسان، وكي تعمل على تنميتها.[10]

التربية ونقل التراث الثقافي :

كذلك يربط البعض بين التربية والمجتمع الذي تعمل فيه ، وكذا بين التربية وبين ثقافة المجتمع التي تميز أفراد ذلك المجتمع عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى ، وذلك كما يقول « أبو الفتوح رضوان وزملاؤه » : فالتربية هي العملية التي يتم بها نقل التراث الثقافي وتحسينه على مر الأجيال، وهي عملية تقديم ثقافة المجتمع لأفراده الصغار وتشكيلهم على نحو يجعلهم قادرين على أن يكونوا حملة هذه الثقافة ، وبدون هذا التقديم وذلك النقل تضمحل الثقافة وينحط المجتمع، وعلى هذا الأساس فإنه كما أن التربية ضرورية للمجتمع فهي ضرورية للفرد نفسه، إذ أن تشرب الفرد لثقافة المجتمع يكسبه الصفة الاجتماعية المطلوبة للعيش في المجتمع الذي ينتمي إليه، وعلى ذلك فالتربية ضرورة اجتماعية وضرورة فردية بنفس المقدار.[11]

---

(١٠) Robert M. Hutchins: The Basis of Education (Readings in the Socio - Cultural Foundations of Education, Omni Press, Inc., Florida, 1975, P.142.

(١١) أبو الفتوح رضوان وآخرون : المدرس في المدرسة والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٥.

التربية والدعوة إلى العالمية :

وإن كانت هناك بعض الكتابات الحديثة في التربية قد بدأت تنادي بتوسيع دائرة اهتمام التربويين لتخرج بهم عن نطاق مجتمعاتهم ، كي يهتموا في بحوثهم وكتاباتهم بالأبعاد العالمية ، خاصة ونحن نعيش في مجتمع «لحظي الاتصال» ، سريع المواصلات ، بحيث أن هذا العالم قد أصبح مثل قرية صغيرة، قرية يعرف أفرادها كل ما يقع في أي ركن من أركان المعمورة، وذلك كما نادى «جارسيا Garcia» خلال الثمانينات .[(١٢)]

ولكن ..

ينبغي علينا نحن في مجتمعاتنا الإسلامية أن نكون واعين لأبعاد هذه الدعوة «العالمية » في التربية الثقافية، فهي إن صلحت ـ في الوقت الحاضر، الذي نحن فيه ضعاف متفرقون ـ لغيرنا من الدول القوية التي تعمل على فرض ثقافاتها واتجاهاتها، وأنماط تربيتها على كثير من شعوب العالم، إلا أنها لا تصلح لنا بالقطع ، وذلك حتى لا نذوب في ثقافات هذه المجتمعات ، خاصة أبناؤنا وبناتنا الذين يتعرضون لهذا النوع من الغزو الثقافي والفكري الذي يأتيهم عبر قنوات الاتصال المختلفة وهم على أرضنا وبين ظهرانينا، بينما يتعرض لهذا الغزو ـ بشدة ـ أبناؤنا الذين يذهبون للدراسة بالخارج، أو الذين يسافرون للسياحة كل عام.

وعلى سبيل المثال فإن مجتمعات الغرب المتقدم تعمل الآن على زيادة رفاهية مواطنيها، وإيجاد فرص الاستمتاع بالحياة والترف الزائد، كما تعمل على زيادة حصيلة أفرادها من استثمار أوقات الفراغ، ومن كثرة الاستهلاك، بل إنها تعمل على إيجاد الرغبات الحادة في ذلك عن طريق الدعاية والإعلام.[(١٣)]

---

(١٢) Ricardo L. Garcia: Education For Cultural Pluralism: Global Roots Stew, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, P.7.

(١٣) Thomes E. Curtis: Aethentic Education : The Quality of Life, Phi Delta Kappa Eductional Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, P.10.

بينما مجتمعاتنا التي تئن تحت وطأة مشكلات الحاجة إلى الأمن الثقافي والسياس والعسكري والغذائي .. وربما كل أنواع الأمن المعروفة (!!) في هذه المجتمعات ينبغي أن تكون أهداف تربيتها موجهة توجيهًا صارمًا ناحية العمل وإتقانه، وبذل الجهد والعرق ، بغية الإنتاج.. دون توقف ، حتى نستطيع أن نضع أقدامنا على طريق تعويض المسافات الهائلة التي تفصل بين مجتمعاتنا النامية وتلك المجتمعات المتقدمة ، والتي تزداد تقدمًا كل يوم .. بل كل ساعة..!!

أولويات تربوية :

ولعلنا نتعظ من هذا المثل الطيب الذي يتمثله الأمريكيون جيداً في قول حكيم من حكمائهم هو « جون آدمز John Adams» : « ينبغي عليّ أن أدرس السياسة والحرب ، حتى يكون لأبنائي الحرية في دراسة الرياضيات والفلسفة والجغرافيا والتاريخ الطبيعي والعمارة البحرية والملاحة والتجارة والزراعة، وذلك كي يمتلك أبناؤهم الحق في دراسة الرسم والشعر والموسيقى والهندسة المعمارية » .(١٤)

ولعل الأولويات هنا واضحة في أذهاننا.. كما رتبها ذلك الحصيف الأمريكي لقومه، فعلوم القوة والمنعة والعزة.. تأتي أولاً، ثم العلوم التي تتطلبها المعيشة الجادة على ظهر الأرض، ومن بعد ذلك تأتي علوم الترف والجمال ، والاستمتاع بأوقات الفراغ واللهو..!!

شمولية التربية :

هذا ، وحينما نتحدث عن التربية ينبغي أن يكون واضحًا أننا لا نقصد بها ذلك المعنى الضيق المحدود الذي يفهمها البعض على أساسه، باعتبار أن أمور التربية تتعلق فقط بالمدرسة أو الجامعة، وبالدرس والمدرس، وبالفصل والسبورة وبالكتاب والمنهج والمقرر.. !!

---

(١٤) Ibid., P.8.

وإنما نحن نتحدث عنها بمعناها الواسع الشامل، ذلك المعنى الذي يجعل مؤسسات المجتمع كله - بلا استثناء - مؤسسات تربوية تسهم، أو ينبغي أن تسهم، في تربية المواطن، وفي توسيع دوائر خبراته ومداركه ومعارفه، كما تسهم في شحذ عزيمته وإثارة وجدانه، كما أنها تسهم في إثارة وعيه بأحوال مجتمعه وظروفه الداخلية، بل والخارجية، ومن ثم بالمشكلات التي تعترض حياته، وبالتالي بأساليب حلول تلك المشكلات.

إن هذه المؤسسات في مجتمعنا تشمل الأسرة والمسجد والمكتبة ، وتمر على النادي الأدبي والرياضي، وكذا أجهزة الإعلام ووسائله المختلفة والمتنوعة، ومنها إلى المؤسسات الثقافية والصناعية والتجارية والزراعية، إلى تلك التي تهتم بالخدمات في المجتمع، وقد عبر عن ذلك واحد من التربويين المعاصرين في الولايات المتحدة الأمريكية هو « كيلي » حين نادى بأن التربية لا ينبغي أن تتوقف حدودها عند أسوار المدارس أو الجامعات ، لأنها بذلك تصبح قاصرة ومحدودة إنها ينبغي أن تمتد لتشمل قطاعات عريضة باتساع المجتمع كله، فهي في المؤسسات الثقافية، وفي دور رعاية البشر ، كما أنها ينبغي أن تكون في مؤسسات المال والأعمال، وكذا في المؤسسات الصناعية، كذلك لا يمكننا أن نغفل وجودها في أعمال الجهات التي تهتم بالترويح عن النفس والتسلية.. وذلك قليل من كثير ».[١٥]

ويحدثنا كاتب تربوي آخر هو « كيندر Kinder» عن هذا التنوع والانتشار للمؤسسات كلها، بحيث لا يتعارض عمل إحداها مع عمل الأخرى، يقول : « إن المدرسة تؤدي دوراً عظيما في تربية النشء ، ولكنه ليس كل شيئ. إن عمل هذه المدرسة ينبغي أن يكو جزءاً يتكامل مع باقي أعمال المؤسسات الأخرى التي تخدم المجتمع، دون أي تعارض أو تناقض».[١٦]

---

(١٥) Eugene W. Kelly Jr: Beyond Schoolling: Education in a Brooder Context, Phi Dalta Kappa, Bloomington, Indiana, 1982, P.6.

(١٦) J.A. Kinder: Schol Public Relations : Commuenicating to the Community, Phi Delta Kappa, Bloomington, Indiana, 1982, P.8.

ويوسع « حسن عبدالعال » مفهوم التربية إلى عدة مجالات حين يقول نقلاً عن « منير المرسي سرحان » إن التربية تمثل الحصيلة الكلية لإنماء الخبرات البشرية التي تشكل ما يسمى بالشخصية، وهي بالإضافة إلى ذلك وسيلة فعالة يحدث من خلالها التغير في السلوك إلى جانب شدة تأثيرها في التفكير والإرادة والوجدان » .[١٧]

ويؤكد « مطاوع » على العلاقة الوثيقة بين الثلاثية التي لا تنفصل عن بعضها، ونعني بها « المجتمع.. والتربية.. والثقافة » فيقول : « إن التربية توجد في مجتمع معين له ثقافته وفلسفته التي توجه حياته. وهذه الحياة تحكمها مجموعة من القواعد والمعايير، تعتبر جزءاً من ثقافة هذا المجتمع، والتي تقوم بوظيفة تنظيم السلوك البشري، وتحوله أعمالاً هادفة ولازمة، بل وضرورية للنظام الاجتماعي الذي يعيش الإنسان في كنفه وفي ظله، ودور التربية المنشود لا يتحقق إلا حين تزود الأفراد، تبعًا لأعمارهم وقدراتهم ومستويات نضجهم ، بالمواقف التي تنمي الجوانب العقلية الابتكارية التي تمكنهم من اكتشاف آفاق جديدة تنهض بواقعهم ، إذ أنه من طبيعة الإنسان العمل والتجريب، ليخرج بأفكار ومفاهيم وافتراضات جديدة تفيد مجتمعه الذي يعيش فيه.[١٨]

التربية .. والمجتمع والثقافة :

ويوسع الكاتب السابق فكرته عن العلاقة بين التربية والمجتمع فيقول : «وقد توصل الإنسان فكريا إلى افتراضات أساسية لضبط السير العام في المجتمع ، وذلك من خلال تجاربه ومواقفه الحياتية، تتخلص فيما يلي :

- طبيعة العالم الذي عاش فيه ، كيف وجد ؟، وكيف أوجد ؟ وهذه من الافتراضات الأساسية لضمان حصوله على الغذاء والمأوى والأمن اللازم لبقائه العضوي.

---

(١٧) حسن ابراهيم عبدالعال : أثر التربية الإسلامية في الحد من الجريمة، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد الرابع عشر، السنة الخامسة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣٥.

(١٨) إبراهيم عصمت مطاوع : أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ص٨.

- مكانه في هذا العالم ، وعلاقته بالقوة أو بالقوى التي تتحكم فيه، وفي هذا العالم الذي يعيش فيه، ويتغذى منه، ويحتمي فيه.
- علاقته كفرد بزملائه ممن يعيشون معه، ومن يتعامل معهم ، وكذا الحياة الاجتماعية التي يحيونها، وما في هذا من واجبات عليه، وحقوق له.
- الطبيعة البشرية، صورة النفس، وماذا يدفع الفرد إلى هذا السلوك أو ذاك ، وماذا يدفعه إلى عمل ما .. ؟

وقد أدت هذه الافتراضات الأربعة إلى تكوين إطار من المعتقدات عن الطبيعة، وعن الإنسان في ضوء ما استطاع أن يضفيه هذا الإنسان من معانٍ على الأحداث ، وعلى سلوك غيره، ومن ثم بدأ الإنسان الفرد يشكل ويفسر نفسه وسلوكه، لا لغيره فقط، ولكن لنفسه أيضًا. (١٩)

ويصل الكاتب إلى الخلاصة من كل ذلك فهذه الجوانب هي التي تشكل فكر وثقافة وفلسفة المجتمع، واللغة التي تترجم هذا وتحيله إلى واقع هي التربية، ولا شيئ غيرها، والفكر التربوي في أي مجتمع يتشكل طبقا لهذه الافتراضات، وهي بالتالي تعكس ما وصل إليه المجتمع من حضارة ورقي، فكلما تقدمت الحضارة تعقدت الحياة وتعقدت معها شؤون التربية، وأصبح لتنظيمها أهمية اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية. (٢٠)

وعند « النحلاوي » نجد أن التربية عملية من أصعب العمليات الاجتماعية، لأنها تتم بين طرفين نقيضين تمامًا، هما الطفل الذي يولد وهو في غاية الضعف، والمجتمع الذي يملك قدرات هائلة في استثمار ما لدى هذا المولود الضعيف من إمكانات كامنة أودعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه، يقول : « إن تربية الطفل البشري أصعب أنواع التربية على الإطلاق. إنها أشبه ما تكون بمعادلة صعبة، ذات طرفين بينهما من التباين والتباعد مثل ما بين السماء

(١٩) المرجع السابق، ص ص ٨-٩.

(٢٠) المرجع السابق، .

والأرض(!!) في أحد طرفيها طفل ولد ضعيفًا عاجزاً غير مزود بشيئ من السلوك الغريزي، إلا البكاء، والحركة العشوائية، وامتصاص الثدي، ولكنه مجهز بأجهزة ووسائل مدهشة، يمكنه إذا أحسن تمرينها وإعدادها، أن يتزود مع مرور الزمن وعلى المدى البعيد، بكل ما يحتاج من الخبرات والقدرات ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. (النحل/٧٨).

وفي الطرف الآخر من هذه المعادلة التربوية الصعبة نجد البيئة بأوسع معانيها، وعلى الناشئ أن يتطبع بكل مؤثراتها، بعواملها وتضاريسها الطبيعية، وما تطرحه من مشكلات ومصاعب في وجه الحياة، كما أن عليه أن يتطبع ، وهذا أهم وأصعب، بالبيئة الإنسانية ، أي بالمجتمع البشري بأهدافه ومثله العليا ولغته وتصوراته وتفكيره وعاداته، وكلما تقدمت الحضارة اتسعت الشقة بين قدرة الناشئين الفطريين وبين معايير الكبار وعاداتهم في الحياة.(٢١)

أما « قمبر » وزملاؤه فيربطون مباشرة بين الثلاثية التي سبق الحديث عنها، ونقصد بها ثلاثية (المجتمع ـ التربية ـ الثقافة) حيث أن التربية عندهم « مؤسسة اجتماعية تضطلع بمسؤولية إعادة إنتاج ثقافة المجتمع وعلاقاته الاجتماعية، أو بعبارة أخرى نقل التراث الثقافي والاجتماعي، والمحافظة على بقائه واستمراره، وذلك بمعنى إكساب الأطفال والشباب معارف وقيم وعادات مجتمع الكبار، بما يؤهلهم لعضوية ذلك المجتمع.(٢٢)

على ذلك فالتربية عند المؤلفين السابقين عبارة عن «رباط اجتماعي» لنقل « ثقافة المجتع » من جيل إلى جيل، وقد وسعوا مفهوم التربية كما ينبغي أن تكون فهي :

* « فن متعلم » من حيث أنها « نشاط ينطوي على عملية تعليم وتعلم،

---

(٢١) عبدالرحمن النحلاوي : التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة الرياض، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، صص ٥-٦.

(٢٢) محمود قمبر وآخران : مرجع سابق، ص ص ١٣-١٤.

يقود فيها المعلم تلاميذه ، ويتطلب بالطبع قدراً كبيراً من تكنولوجيا التعليم، فالتعليم والتعلم عملية تتصل بوسائل وأساليب وطرائق، كما تتصل بقدرات ومهارات تمكن المعلم والمتعلم من استخدام هذه الوسائل والأساليب والطرائق بمهارة ودقة.

* والتربية « مؤسسة اجتماعية » ، فهي المؤسسة الأولى للإنسان لنقل ثقافته وتراثه الاجتماعي، وهي ذات أهداف محددة وطرائق ووسائل وأشكال محددة من قبل المجتمع ، وهي كذلك لأنها تشتمل على مجموعة أجهزة ، أو بلغة أدق تنظيمات مختلفة، رسمية وغير رسمية، تكوّن في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه المؤسسة التربوية مثل : الأسرة والمدرسة ، وأجهزة الإعلام، والحي.

* والتربية « منتج » ، فقولنا إن شخصا ما .. متعلم ، أو أتم تربية معينة، فمعنى ذلك أن هذا الشخص قد اكتسب قدراً معينًا من المعارف والمهارات والثقافة (قيم وعادات وطموحات ونماذج سلوكية) حسب مقدار ونوع التربية التي حصل عليها.

والتربية كمنتج إما أن تكون تربية عامة أو تربية متخصصة. والتربية العامة بمعنى ذلك القدر من المعارف والمهارات والثقافة الذي يعد الفرد للمواطنة، ولفظ « عامة » يعني معارف وثقافة غير متخصصة. أما التربية المتخصصة فتعني حصول الفرد على نوع من المعارف والثقافة يؤهله للقيام بعمل معين في الصناعة أو الزراعة، أو أي من النواحي الفنية في المجتمع حيث أن الإعداد للمواطنة يتطلب إكساب الفرد تربية عامة، والإعداد للعمل المتخصص في الحياة يتطلب إكساب الفرد تربية خاصة.

* والتربية « علم » لأنها تمثل جسما من المعرفة المتخصصة، والمناهج الخاصة للبحث والتجريب، فالتربية في جوانبها الثلاثة السابقة هي موضوعات للدراسة والبحث العلمي المنظم، وهي مجالات للحصول على

معارف وقوانين ونظريات في التربية .»[٢٣]

ويختتم الكتّاب السابقون فكرهم عن التربية بقولهم « وثمة علوم تربوية مختلفة، كل منها يتخذ من أحد الجوانب التربوية موضوعًا للبحث والدراسة بهدف اكتشاف القوانين والنظريات التي تفسر وتحلل أبعاد العمل التربوي في جوانبه المختلفة ، فهناك علوم أصول التربية « تاريخ التربية، واجتماعيات التربية، وفلسفة التربية، والتربية المقارنة، تعليم الكبار) ، وهناك علوم المناهج وطرق التدريس، وهناك علوم الإدارة التربوية، وهناك علم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وغيرها من العلوم التي تتخذ من التربية كنشاط عملي (!!) حقلاً وموضوعًا للبحث والدراسة.»[٢٤]

التربية الإسلامية :

وهنا يأخذنا الشيخ « محمد قطب » ، حفظه الله، إلى نوع بعينه من «التربية».. هي «التربية الإسلامية» التي هي « منهج متكامل لا يترك صغيرة ولا كبيرة.. يشمل النفس الإنسانية كلها بحذافيرها، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل.. منهج فريد في كل مناهج الأرض ، وإن التقى ببعضها في التفصيلات والفروع، فريد في شموله ويقظته لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية، وكل خالجة ، وكلّ فكرة، وكل شعور. وفريد في اثره في داخل النفس وفي وقائع الحياة، فقد كان من أثره تلك الأمة العجيبة في التاريخ.

الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء، والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها في الأرض، تفتح وتغزو، تعمر وتبني، تقيم مُثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد.

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ص ١٦-١٧.

(٢٤) المرجع السابق.

هذه الأمة كلها من نتاج هذا المنهج - منهج التربية الإسلامية - كلها، بمادياتها ومعنوياتها ، بمشاعرها وأفكارها ، وسلوكها وأعمالها ، أمة فريدة في التاريخ [٢٥] ويؤكد الكاتب الإسلامي الحصيف على تفرد منهج التربية الإسلامية وتميزه على بقية مناهج التربية البشرية الأخرى التي اهتم بعضها بالجوانب المادية وأغرق فيها على حساب الجوانب الروحية ، والبعض فعل عكس ذلك تمامًا، ولذا جاءت تربيتهم ناقصة أو منتقصة ، عكس التربية الإسلامية، وعكس منهجها القويم الذي أنزل على قلب النبي ﷺ من فوق سبع سماوات، يقول الشيخ محمد قطب .. بعد استعراض سمات التربيات البشرية الناقصة :

« ومن بخس الإنسان لقدر نفسه أن يجهل طاقاته أو يهدر بعضها لحساب بعض، فهو يستطيع دائمًا أن يكون نفسه كلها، وأن يعمل بطاقاته جميعا في واقع الحياة. يستطيع أن يكون الإنسان العابد لله، المستمد من هداه، ويكون الإنسان المفكر المتعرف على أسرار الكون وقوانينه، ويكون الإنسان العامل بجهده الحيوي لترقية الحياة وتنميتها، ولن يعطله جانب من هذه الجوانب - حين يسير على المنهج السوي - أن يشبع الجوانب الأخرى ، أن يستفيد منها إلى غايتها، فهكذا خلقه الله قادراً على هذا النشاط المتعدد ، محققا لكيانه في الاتجاهات كلها، وبهذه الطاقات المتعددة ذاتها منحه الخلافة في هذه الحياة.

بل الأمر أبعد من ذلك ، فهو حين يستغل طاقاته كلها يكون أجود إنتاجًا، وأوفر حصيلة ، فهذا المخلوق البشري كالنبع الثر، يفيض بقدر ما تتفتح منه العيون، كلما فتحت عين جديدة تدفق المجموع، وهذا واقع الحياة الإسلامية الأولى هو الشاهد على تلك الظاهرة البشرية الفذة، فقد نشطت في كل اتجاه.. في العلم والعمل والفتح والتنظيم والتشييد، فكان علماؤها هم العلماء، وقادتها هم القادة، ونظامها هو النظام، وحضارتها هي الحضارة ولم تشعر أن نشاطها

(٢٥) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول) ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ص ٩-١٠.

المادي يمنعها من عبادة الله والاستمداد من هديه، ولا أن عبادة الله تمنعها من الضرب في مناكب الأرض ولا عمارتها ، ولا أن هذا وذاك يمنعانها من التفكير العلمي التجريبي، بل كانت هذه الجماعة ـ كما يقول «جب» وغيره من المستشرقين ـ هي التي أدخلت الطريقة التجريبية في البحث العلمي .[٢٦]

وحين يجنح الإنسان بطاقة من طاقاته على حساب بقية الطاقات، فذلك اختلال في باطن النفس ينتج عنه اختلال في واقع الحياة ، حين يجنح بطاقته الحيوية فيسعى الى المتاع الزائد عن الحد، أو يجنح بطاقته العقلية فيعيش في برج عاجي بعيداً عن واقع الحياة، أو يجنح بطاقته الروحية فيهوّم في سبحات روحية سلبية لا تتحول إلى عمل وإنتاج في عالم الحس، فلن يكون سعيداً وهو فرد ، لأنه يظل يظلع في مشيته وتختل مواقع أقدامه ـ لأن الثقل يقع عليها بغير توازن ـ ولن يكون سعيداً وهو مجموع، فلا يمكن أن تستقيم حياة جماعة كل همها المتاع الحيواني، وقد انهارت فرنسا حين وصلت إلى هذا المدى من المتاع، ولا جماعة يشتغل مفكروها بالفلسفة المنقطعة عن واقع الأرض ، وقد تعرضت أوروبا لأعنف الاضطرابات في القرنين الأخيرين، وانتهت إلى الشيوعية في نهاية المطاف، وكرد فعل للفلسفة المثالية التي كانت تحلق في أفكارها النظرية الخاوية وتترك جموع البشر يأكلهم الجوع والحرمان والمذلة المهينة لكرامة البشرية، ولا جماعة تعيش في تهويمة الروح السالبة، وقد كانت الهند والصين ترزحان تحت وطأة التأخر والانكماش والضياع حتى بدأتا تتخلصان أخيراً من هذه التهويمة السالبة وتعيشان واقع الحياة.

لذلك يحرص الإسلام على التوازن ، ويجعله هدفًا أساسيًا في منهاجه، ويبذل فيه كل ما في الطاقة من جهد ، يبدأ فيه مع الطفل من مولده ، ويسير فيه مع الإنسان في جميع مراحل نموه، ولا يتركه في لحظة واحدة دون معاونة أو توجيه وطريقته هي التوقيع على أوتار النفس كلها، مجتمعة مترابطة في آن

(٢٦) المرجع السابق.

واحد حيث يؤدي ذلك إلى التوازن المنشود حين تتخذ له الوسائل الصحيحة التي يرسمها منهج الإسلام.[٢٧]

وأخيراً ..

فإنه يمكننا القول بأن ما يقول به الشيخ « محمد قطب » هو التعبير الحقيقي عن روح التربية الإسلامية الحقيقية التي بدأها الرسول ﷺ منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، يوم أخذ يربي صحابته الكرام على هدي القرآن الكريم، في مكة المكرمة، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، أول مدرسة فعلية في الإسلام، بغض النظر عما يقوله بعض من يؤرخون للتربية الإسلامية ، أو لتاريخ التربية في الإسلام قائلين إنها بدأت في القرن الرابع الهجري، ويستشهدون على ذلك ببناء أول مدرسة في ذلك القرن.

والواقع أننا لو تبعناهم في ذلك فإننا نكون من الذين يؤرخون للمباني والمنشآت ، وليس للتربية ذاتها ولا لمخرجاتها من الرجال العظام ـ صحابة رسول الله ﷺ ـ أولئك الذين غيروا وجه الدنيا بعد أن غيرتهم تربية الرسول ﷺ ، من داخلهم ، فخرج منهم المجاهدون في سبيل الله الذين أذلوا الكفار والمشركين ومهدوا الطريق للإسلام كي ينساح في بلاد العالم المعروفة آنذاك، كما تخرج منهم العلماء الأفذاذ في كل مجال من مجالات العلوم المختلفة ، سواء كانت علومًا شرعية أو علومًا دنيوية فتحوا فيها آفاقًا بالاجتهاد ما طرقها أحد قبلهم، فأرسوا بذلك أسس الحضارة الإسلامية الرائعة التي سادت العالم قرونا طويلة من الزمان و واعترف بها وبفضلها الأعداء قبل الأصدقاء، كما تخرج منها آلاف وآلاف من المسلمين العاملين الذين كدوا وتعبوا وعرقوا في كل مجال من مجالات العمل عرفته البشرية، من الزراعة إلى الصناعة، ومن التجارة إلى التعدين، بحيث اكتفى مجتمعهم المسلم بحاجاته كلها في مأكل وملبس ومشرب،

(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٩.

سداً لحاجاته، واعتزازاً بجهد أبنائه، وتلك غاية من غايات التربية في المجتمعات الحديثة لا تتهاون فيها ولا تتنازل عنها، وقد حققها أجدادنا المسلمون العظام منذ قيام دولة الإسلام لأول مرة في المدينة المنورة على هدي الرسول ﷺ.(*)

هذه هي التربية التي ربى الرسول ﷺ أصحابه عليها، فكانوا هم الذين أرسوا دعائم الحضارة الإسلامية التي نعتز بها إلى يومنا هذا ، ولكن إذا كانت صورة العالم الإسلامي الآن ليست على ما يرام ، ولا على الوضع الذي ينبغي أن تكون عليه فإن الخطأ هنا ليس في تربية الإسلام ولكنها في المسلمين أنفسهم الذين بعدوا عن الإسلام وعن روحه وعن تطبيقه ، ومن هنا أصبحوا يتطلعون إلى ما عند غيرهم، وأصبحت أمثلتهم يضربونها من شعوب ومجتمعات غيرهم، يرون فيها المثل والنموذج الذي ينبغي أن يقتدي به وأن يحتذى ، وصرنا نتحدث عن اليابان وعن التربية في اليابان، وعن أمريكا وعن التربية في أمريكا .. إلخ، ونسينا أن النبع الصافي عندنا ، وأننا لا يمكن أن نتقدم بالاستيراد، أو عن طريق الاستيراد، حيث أن التربية عملية مجتمعية بالدرجة الأولى، ومعنى ذلك أن تربية مجتمع لا تصلح لمجتمع آخر، وعسى أن يهدينا الله إلى الحق فنعود إلى الطريق السليم والوحيد ، وهو طريق الإسلام وتربية الإسلام.

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة في هذا الموضوع مراجعة الكتابين الآتيين:

١- عبدالعزيز محمد العمري: الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسولﷺ .

٢- أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، در العلم، الكويت، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

الفصل السابع

الغزو الثقافي

الفصل السابع

الغزو الثقافي

مدخل :

يعتبر الغزو الثقافي، وهو بطبيعة الحال يشمل الغزو الفكري، أحد أشكال الاستعمار الجديدة. ولعل عودة تاريخية خاطفة تكشف لنا الغطاء عن جذور هذا الغزو الثقافي، وذلك كما أثبتته الأحداث، فعلى الرغم من استمرار الحروب الصليبية قرابة قرنين من الزمان إلا أن الخاتمة كانت لصالح المسلمين وفي صفهم، حين استطاع القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي أن يجمع صفوفهم ، وأن يوحد كلمتهم، ومن ثم يضعهم على الطريق السليم، طريق حماة الدين الأوائل ، والمدافعين عنه ، وهو طريق الجهاد العظيم، فكان أن هزموا ملوك أوروبا وأباطرتها وقوادها، وردوهم على أعقابهم خاسرين يجرجرون أذيال الهزيمة، ويلعقون جراح الذل والخزي والعار.[1]

ومرت ظروف أخرى بالعالم الإسلامي انهارت خلالها الخلافة الإسلامية في بغداد تحت ضربات جحافل التتار الذين اندفعوا من أواسط آسيا، يحرقون ويخربون ويدمرون، كالإعصار العاتي الذي لا يجد من يصده، أو يقف في طريقه.

وشاء الله، جلت قدرته، أن توحد كلمة المسلمين تحت قيادات إسلامية مؤمنة واعية مجاهدة، مثل شيخ الإسلام « أحمد بن تيمية » ، وشيخ الإسلام «العز بن عبدالسلام»، وقطز.. وغيرهم، فأوقفوا اندفاع ذلك الإعصار العاتي، وردوا أصحابه على أعقابهم خاسرين، في معركة «عين جالوت» الشهيرة.

وفي الشمال الشرقي من العالم الإسلامي ظهر الأتراك العثمانيون

(١) لمن أراد أن يتزود حول هذا الموضوع أن يعود لكتاب الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

بدولتـهم الفتـيـة، تلك التي حملت لواء الإسلام خفـاقًا، واجتـازت به الفاصل الضيق بين آسيا وأوروبا ، وتوغل مجاهدوها في قلب أوروبا الشرقي، مجاهدين في سبيل الله، حتى دقوا أبواب « فيينا » عاصمة النمسا. وصعقت أوروبا حين وجدت نفسها، وقد انحشرت كالبندقة في كسارتها، فهؤلاء هم المسلمون في شرقها يدقون أبوابها، بينما إخوانهم في أقصى الغرب قد فتحوا بلاد الأندلس، وأقاموا فيها حضارة فتية ذات إنجازات متميزة في كل مجال، وهم لم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يسعون لفتح فرنسا كذلك.

ومرت فترة من الزمان تيقظت خلالها أوروبا، في الوقت الذي أخلد فيه المسلمون للنوم العميق، والسبات القاتل، وضاعت أيام عزيزة وغالية عليهم، خاصة حين عرفت أوروبا طريقها إلى العلوم والكشوف، بعد أن أخذ علماؤها أسس تلك العلوم والاكتشافات من علوم المسلمين ومعارفهم ومكتشفاتهم،[٢] بل ومن تطبيقاتهم العلمية في مجالات الحياة المختلفة.[*]

بدايات الاستعمار الأوروبي للمنطقة العربية :

وران صمت مريب على مياه البحر المتوسط، تلك المياه التي ارتادها المجاهدون المسلمون فيما سبق، حتى حولوها إلى بحيرة إسلامية، ثم فزعت هذه المياه في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حين خرجت من شواطئ فرنسا الجنوبية حملة بحرية قوية متقدمة، وكانت تحمل ـ ضمن ما تحمل ـ المدفع.. والبارود.. والمطبعة.. !!

ووصلت حملة « بونابرت » إلى مصر ، أو إلى الشواطئ المصرية عام ١٧٩٨م، مفتتحة عصراً جديداً ، بين الشرق المسلم، والغرب النصراني، ودفع المسلمون غاليًا .. وغاليًا جداً .. ثمن نومهم ، وثمن ابتعادهم عن الدين، وثمن

---

(٢) محمد عبدالعليم مرسي : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٠هـ.

(*) لمن أراد الاستزادة في هذا المجال أن يعود لكتاب محمد جلال كشك، رحمه الله؛ «ودخلت الخيل الأزهر»، في طبعته الثالثة الصادرة عن دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

تركهم الفريضة الجهاد، وكذا ثمن بعدهم عن طلب العلم والتبحر فيه، كما حثهم الإسلام من أول آية فيه، ومازال المسلمون ـ منذ ذلك الحين ـ يدفعون .. حتى اليوم..!!

وإذا كان « بونابرت » قد افتتح عصر الحروب الصليبية الجديدة بدخول خيله إلى ساحات الأزهر الشريف، فإن هذه الحروب لم تنقطع ، ولم تتوقف ـ في واقع الأمر ـ منذ ذلك التاريخ، وهي تقترب الآن من نهاية قرنها الثاني ، فلا يزال التاريخ يذكر الحقد الدفين الذي جعل أحد قواد أوروبا النصرانية يقف في نهاية الحرب العالمية الأولى، أمام قبر صلاح الدين ، في دمشق ، ليقول في شماتة لا تليق بالرجال الكبار : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » ، وما هكذا يفعل القادة الشرفاء .. أمام قبور الأعداء ..!![3]

وعلى طريق هذه الغزوة الصليبية الجديدة دفعت شعوب إسلامية كثيرة من دماء أبنائها ، ومن أرواحهم، ففي الجزائر دفعوا.. وبغزارة شديدة، وكذا في الشمال الافريقي عامة حدث هذا، ولن ينس التاريخ، ولا ينبغي للمسلمين أن ينسوا ، ما فعلته إيطاليا النصرانية مع ليبيا المسلمة، ومع مجاهديها، وعلى رأسهم الشيخ الشهيد « عمر المختار » . وفي مصر حارب المسلمون موجات الصليبية الجديدة، التي تمثلت في الحملة الفرنسية ، وكذا الحملة الإنجليزية الأولى على رشيد عام ١٨٠٧م ، ثم الحملة الإنجليزية الكبرى عام ١٨٨٢م، والتي أذلت شعب مصر، ونهبت مقدراته على مدار ثلاثة أرباع القرن، ومازالت الهجمة الصهيونية التي اشتركت فيها انجلترا وفرنسا واسرائيل عام ١٩٥٦م، مازالت ماثلة في الأذهان وفي النفوس، ولا يزال بعض ضحاياها من الجرحى والمشوهين يعيشون بين الناس إلى يومنا هذا .[*]

---

(٣) حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.

(*) لا أظن أن التاريخ سوف ينسى تلك العملية الجراحية البشعة التي قام فيها الأطباء الإنجليز (المتحضرين..!!) بنزع عيني أحد المجاهدين المصريين ليزرعوها مكان عيني ضابط بريطاني فقد عينيه في الحرب.. ويتحدثون عن التحضر.. وعن حقوق الإنسان.. !!!

وفي كثير من بلاد افريقيا وآسيا دفع المسلمون ، ومازالوا يدفعون الكثير من دمائهم وأرواحهم ومقدرات أوطانهم.. فقط.. لأنهم مسلمون ، وفقط.. لأن أعداءهم الصليبين الجدد لا يريدون أن ينسوا أنهم هزموا ذات يوم على أيدى المسلمين، كما أنهم يخشون أن تقوم للإسلام قائمة من جديد، وقد تعلموا من دروس التاريخ أن المسلمين حين يتحدون ، وحين يعودون إلى دينهم القويم يكون لهم شأن آخر.

استمرار الاستعمار حتى وقتنا الحاضر:

وإذا كان بعضنا يتصور أن هذا الذي نقول هو مجرد تاريخ مضى وانقضى فإننا نحيلهم إلى ما يجري على أرض فلسطين اليوم، وما كان يجري على أرض أفغانستان فقط منذ بضع سنوات(*) ، ولا زلنا نعيش ونسمع ونرى ، ومعنا العالم أجمع، مأساة المسلمين في « البوسنة والهرسك » ، وكذا في «الشيشان» ولا ينبغي أن يخطر بذهن إنسان أن الصرب والروس المجرمين كان يمكنهم أن يقوموا بكل ما قاموا به من مذابح واعتداءات واغتصابات ضد المسلمين لولا أنهم يلقون المعونة والتأييد من العالم الغربي النصراني كله في أوروبا وأمريكا وروسيا، حيث يلقون التأييد في الأمم المتحدة، في الوقت الذي يمنع فيه السلاح عن المسلمين في البوسنة والهرسك، وتعتم الأخبار التي تأتي من بلاد الشيشان المسلمين، بينما يغدق السلاح على مجرمي الصرب ، ويمدونهم بالتمويل والتدريب اللازمين، وما كل ذلك إلا لخوف أوروبا من أن تقوم للإسلام دولة في قلب أوروبا قد يغري وجودها - في المستقبل - أعدادا من الأوروبيين بالدخول في الإسلام.

بينما يصمت العالم الغربي على المذابح التي تجري للمسلمين في الشيشان على أيد الروس المجرمين لأنهم يخشون أن تمتد شرارة الاستقلال والحرية

(*) يمكن مراجعة كتاب « أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين » ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٤١٠هـ، للمولف.

من بلاد الشيشان إلى باقي الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا والتي يحتلها الاتحاد السوفييتي عنوة وبقوة السلاح، وما ذلك إلا لأنهم نصارى مثلهم، ومن ثم ينبغي علينا نحن المسلمين أن نعي اختلاف المعايير في السياسة الدولية ومنابع ذلك الاختلاف.

وإذا كان المصريون قد استطاعوا بعد كفاح طويل مرير أن يكسروا شوكة الإنجليز ويخرجوهم من مصر ، وإذا كان الجزائريون قد استطاعوا بتضحيات رهيبة أن يرغموا الفرنسيين على مغادرة الجزائر، وكذلك فعل الليبيون مع الإيطاليين المستعمرين، وإذا كان المجاهدون الأفغان قد مرغوا سمعة الاتحاد السوفيتي العسكرية في الوحل، وأذلوا جنرالاته وجعلوهم يغادرون التراب الإسلامي في أفغانستان مهزومين مدحورين، وإذا كان شباب الانتفاضة الفلسطينية مازالوا شوكة مؤلمة في جسد الكيان الصهيوني.. أقول إذا كان ذلك هو الذي حدث، ولا يزال يحدث في بلاد المسلمين ، إلا أن قضية «البوسنة والهرسك » لها وضع خاص لأن رعب الصليبيين أصبح موجهًا لمواطئ أقدامهم، إذ أنه رغم محاولاتهم حصار الإسلام في دياره ، ورغم جهودهم التي لا تتوقف في عمليات التنصير إلا أنهم فوجئوا بظهور المسلمين كدولة في قلب أوروبا ذاتها، بل وصمود المسلمين فيها واستشهادهم دفاعًا عن دينهم، ومن هنا فإن شعوبهم لم تثر ضد عجز حكوماتهم الظاهري، أو المصطنع، فتخطيطهم للقضاء على الإسلام يكاد يكون مفهومًا ومعلنًا، ومن ورائهم الفاتيكان. إنهم جميعًا ـ ودون مواربة ـ ضد الإسلام والمسلمين ، ولن يستريحوا حتى يقضوا على مشروع الدولة الإسلامية في قلب أوروبا، والله من ورائهم محيط، وهو ـ سبحانه ـ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الدرس الذي تعلمه الصليبيون :

وإذا كان هؤلاء الصليبيون الجدد قد خرجوا بدرس واضح تعلموه من حروبهم المتتالية ضد المسلمين، فهو أنه من الصعب جداً ، بل وربما من المستحيل، أن يخرجوا المسلمين عن دينهم الحنيف، خاصة في المنطقة العربية

التي كانت مهد الرسالة ، وكانت مبعث النبي الأمين، محمد بن عبدالله ﷺ ، ومن هنا فلقد تفتق ذهنهم وفكرهم الشيطاني عن بديل خطير للحرب المباشرة ، وكذا للتنصير الواضح ، والمعلن دون خوف ودون مداراة.

ولقد تمثل هذا البديل في محاولات « التغريب » و « الغزو الفكري والثقافي » لبلاد المسلمين عامة. وإذا كانت الحروب العادية قد استخدمت فيها الدبابة والمدفع والطائرة والبندقية ، فإن السلاح الجديد تمثل في استخدام المدرسة والكتاب المدرسي، والمنهج المنحرف، والصحيفة والمجلة ، والسينما والمسرح، والراديو والتليفزيون والفيديو والكاسيت والبث المباشر.. وغيرها.

الصليبية الجديدة :

وإذا كانت الصليبية ، في صورتها القديمة، قد احتاجت ذات يوم إلى تجنيد الضباط والجنود من أبناء أوروبا ، ترسلهم إلى بلاد الشرق المسلم فيقتلون ويؤسرون، حتى قوادهم والملوك، إلا أن الصليبية في صورتها الجديدة أخذت تدرب قساوستها ومعلميها وفتياتها على التعامل الهين اللين والخادع مع شباب المسلمين، في بلادنا وفي الخارج ، وقد أرسلت كل هؤلاء ليحتموا خلف أسوار سفاراتهم ومدارسهم الخاصة في بلادنا ، تلك التي أنشأوها تحت دعاوي التثقيف والتعليم، « والتبادل الثقافي » ، وهي صورة واضحة للامتيازات الأجنبية السابقة.

ولنقرأ لأحد كتابنا الواعين عن تعدد « أشكال الهجوم » على بلاد المسلمين، يقول « حسان » : « إذا كان الهجوم لم يقتصر على جانب واحد، فإنه أيضا لم ينحصر في شكل واحد، فتارة يأتي من الخارج ، وتارة من الداخل ، تارة يهجم بأساليب مباشرة، وتارة يتسلل بأساليب خفية، تارة يتحلق من عل، وتارة يتسرب إلينا من أسفل، تارة يتصدره رجال دين، وتارة يقوده سياسيون وعلماء ، تارة يرتدي رداء الكهنوت، وتارة مسوح الأطباء، تارة بالهجوم على ديننا ، وتارة باصطناع مذاهب ونسبتها إلى الإسلام لتدميره من الداخل. تارة

بتصفية قيادات، وتارة بتصعيد أخرى، تارة بشراء الذمم ، وتارة بتوزيع القمح واللبن، تارة بالتهديد، وتارة بالتهويد، تارة بالتمييع ، وتارة بالتجويع، تارة بالفكر المضلل، وتارة بالمدفع المهدد، تارة بالمساعدات، وتارة بقطع العلاقات، تارة بالتحالف مع المسلمين، وتارة باحتلال المسلمين، تارة بزرع الفتن ، وتارة بالتدخل لقمع الفتن، تارة بالتنكيل، وتارة بالتضليل، تارة بالاتفاق مع أقليات، وتارة بتصدير أقليات، تارة بالتسرب إلى منظمات ، وتارة بصناعة أخرى، تارة بإعداد انقلابات، وتارة بالانقلاب على ثورات، وتارة بإنشاء كيانات، وتارة بتصفية أخرى، تارة باحتلال القدس، وتارة بإدعاء العمل لتحرير القدس، تارة باحتلال أفغانستان، وتارة بالمطالبة بالتحالف لتحرير أفغانستان، تارة بالمهادنة، وتارة بالمقاطعة، تارة بتسريب السلاح ، وتارة بمنع السلاح، تارة بإنشاء اسرائيل، وتارة بالدعوة للاعتراف بإسرائيل، تارة بالفرنسة، وتارة بأنجلزة ، وتارة بالأمركة، وتارة بالمركسة.[٤]

وإذا كانت الصليبية في صورتها الأولى قد فشلت في مواجهة أبطال المسلمين في ساحات الوغى، ومعارك الجهاد فإن الغربيين فتحوا أبواب دولهم على مصاريعها يدعون إليها الشباب من جامعات العالم الإسلامي كي يتعلموا هناك فيذهبون ليضيع منهم جزء في مجتمعاتهم الفاسدة، وليعود إلى قومه مخالف لدينه.. وربه.. وقومه، وقد جاءهم بأخطر مما يجيئهم به الصليبي الواضح، حيث يطالب بالانفتاح على الغرب بكل ما فيه من حرية (!!) وإباحية وانحراف.

إن الصليبية الجديدة ، أو الغزو الثقافي والفكري، أو التغريب، أيا كان المسمى، كانت أذكى بكثير وأفعل من تلك القديمة، حيث أن الأخيرة قد استثارت المسلمين ودعتهم إلى التوحد والمقاومة، وإلى الوقوف خلف قيادات إسلامية مؤمنة واعية. أما الصليبية الجديدة فقد التبست على الكثيرين، بسبب

---

(٤) حسان محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

أساليبها الجديدة والمبتدعة، وبسبب وسائلها المتعددة، وبريقها وخداعها، وتعدد ميادينها.. كل هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى فإن المشكلة الكبرى هي أن الذين حملوا لواء تلك الصليبية ونادوا بها كانوا في معظم الأحيان من أبناء الأمة الإسلامية الذين خدعوا ، إذا أحسنا الظن بهم، أو من الذين جعلوا من أنفسهم طابوراً خامساً لأوروبا النصرانية عن سوء قصد وفساد تدبير.(٥)

خطورة الغزو الجديد:

إن خطورة الغزو الفكري أنه لا يركز على احتلال مساحات من الأرض يندفع أهلها فوراً للدفاع عنها، محاولين جهدهم إخراج الدخلاء المهاجمين ، وتطهيرها من رجسهم، إنما الغزو الجديد ميدان مبتكر من ميادين الاستعمار المتلونة بألف لون ولون ، فمن خلاله تحتل مساحات في العقول والأرواح، وهذه ـ لعمري ـ أخطر الاف المرات من احتلال مساحات من الأراضي. إن احتلال مساحات من الأراضي يجعل الناس متحمسين مستفزين للدفاع عنها، أما إذا احتلت العقول، وبلبلت الأفكار والمفاهيم فمن سيدافع عن أصحابها..؟(٦)

إن الإنسان إذا انهزم داخليا فإنه يصبح مسلوب الإرادة ، عديم الفائدة، إنهم يحاولون محو الشخصية العربية الإسلامية، بحيث يصبح الإنسان المسلم تابعًا لا كيان له، سواء في ذلك الكيان الوطني ، أو القومي، أو الديني ، ولا يهم أن يظل اسمه محمداً ـ مثلاً ـ وجنسيته من أي بلد إسلامي، إنما الذي يهم هو أن يكون محمد هذا مستلب الفكر، عديم الشخصية .(٧)

---

(٥) محمد عبدالعليم مرسي: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ١٨.

(٦) المرجع السابق.

(٧) على عبدالكريم غلاب : التعريب ودوره في حركات التحرر في الغرب العربي، المستقبل العربي، العدد ٣٦، فبراير ١٩٨٢م، ص ٨٩.

ويذهب كاتب آخر إلى أن الغزو الفكري هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة من الدول الكبرى، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئًا واحداً .. هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية.(٨)

كذلك فإن الغزو الفكري هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم ـ وبخاصة الدول الإسلامية ـ وبين تاريخها وماضيها، وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية، وسير أعلامها وقادتها، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مثلا إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، فيذهل عن تاريخه، وعن سير الصالحين من أسلافه، ويذهل عن حاضره ومستقبله، ويضل عن معالم طريقه.(٩)

أما « الدجاني » فيعتبر أن الانغماس في تيار القبول المطلق للحضارة الغربية في مجتمعنا العربي على مدى القرنين الماضيين قد استقطب قلة (مؤمنة) متعصبة، عبرت عن نفسها، جيلاً بعد جيل، في محاولات تحويل مجتمعها إلى مجتمع غربي.. مبنى ومعنى، شكلاً ومضمونًا، ولم تفتر في دعوتها إلى التغريب. ونلاحظ حرص دعاتها على استخدام مصطلحات الغرب ولغاته، وكذا الاستشهاد بتاريخه، كما نلاحظ انبهار أصحاب هذا التيار بكل ما هو غربي، مستشعرين عجزهم عن التعبير بلغتهم، وملصقين هذا العجز بها، كما يلفت النظر أن (التخريب الحضاري) كان كبيراً حين تولى السلطة مستغربون أرادوا

---

(٨) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية، الكويت، (بدون تاريخ)، ص ١١.

(٩) أحمد صدقي الدجاني : الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد ٦٩، نوفمبر ١٩٨٤م، ص ص ٩٤-٩٥.

فرض أفكارهم بالقوة، ونكتفي بالإشارة إلى تجربتي «أتاتورك» و « بهلوي » المجاورتين للوطن العربي.[١٠]

والجديد هنا في هذا الرأي هو محاولات فرض التغريب على بعض أوطان العالم الإسلامي بواسطة أفراد في السلطة ، وبطبيعة الحال فإن استخدام صلاحيات المناصب الكبرى، مثل تلك التي أشار إليها الكاتب، تكون ذات أبعاد أوسع في حياة مجتمعاتهم، حتى وإن قاومت تلك المجتمعات. ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتوقف عند هذا المعنى، فأصحاب السلطان الذين يميلون بدفة قوارب مجتمعاتهم ناحية التغريب لا شك أنهم لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة، وانما ربما يكون العكس هو الصحيح، بل إن بعضهم ربما يكون من خريجي المدارس الأجنبية.

---

(١٠) المرجع السابق.

الفصل الثامن

بعض تعريفات ومعاني الغزو الثقافي

الفصل الثامن

بعض تعريفات ومعاني الغزو الثقافي

١. يقول « أبو زيد » : «إن الثقافة الأجنبية الغازية تمثل تحديًا للثقافة القومية، لأنها تعبر عن تيارات واتجاهات ومذاهب ثقافية وفكرية تنتمي في الأصل إلى مجتمعات أكثر تقدمًا وتطوراً [*] من المجتمعات العربية، وأنها تحمل بين ثناياها بذور السيطرة الثقافية الأجنبية على الثقافة العربية، ويبدو أن ثمة استعداد لدى بعض قطاعات المجتمع العربي لتقبل كل ما يقدمه الغرب بالذات من آراء وأفكار وقيم وأنماط للسلوك، واعتناق هذه الآراء والأفكار والدفاع عنها بغير دراسة وتمحيص.

وقد يكون السبب في ذلك هو الشعور الكامن بالتخلف العام أمام الغرب ، في مجالات العلم والتكنولوجيا ، وكذلك في الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية، والاعتماد بأن هذا التفوق يستتبع ـ بالضرورة ـ التفوق أو التقدم والرقي الثقافي ، وأن ذلك يحتم بالتالي تقبل حصاد الفكر الغربي وثقافته، مثلما نتقبل نتائج البحث العلمي والتقدم التكنولوجي.[1]

٢. أما «كشك» فيقول : « إن التغريب الذي هو ناتج من نواتج الغزو الثقافي والفكري يبدأ من إقناع الأمة الشرقية بأنها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها ، وصميم تكوينها ، ومن ثم فلابد من انسلاخها تمامًا عن كل ما يربطها بماضيها، وعن كل ما يميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر

---

(١) أحمد مصطفى أبو زيد : التحدي الثقافي ، بحث شارك به الكاتب في الندوة الفكرية الرابعة لرؤساء ومديري الجامعات الخليجية (الدوحة - قطر) ربيع الأول ١٤١٠هـ- اكتوبر ١٩٨٥م، ص ١١٨.

(*) في النواحي المادية بطبيعة الحال.

السلوكية، مع بقائه متخلفا عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب، عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون الى النزوح إلى عالم المتفوقين.[٢]

ثم يحدثنا الكاتب نفسه عن المجتمع « المغرب » ، أي الذي تم غزوه ثقافيًا وفكريًا بأنه « هو ذلك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة ، وعلى أحدث الموضات الغربية، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة أمريكية أو روسية مشاكل المجتمع الغربي وآلامه، ويملأون صفحات من ورق مستورد، تطبع بحبر مستورد ، حول قضايا الوجودية ، ومسرح اللامعقول، والجنس الجماعي، وتطور حركة الهيبز على بعد خطوات من كهوف مواطنيهم، حيث البلهارسيا والتراخوما.. وكل تراكمات التخلف ، منذ القرن السابع عشر.[٣]

٣- وعند « أنور الجندي » في (شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي) نجدأن مفهوم التغريب يعني « إيجاد عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه ، ثم تحاكم الفكر الإسلامي ، والمجتمع الإسلامي من خلالها ، بهدف سيادة الحضارة الغربية، بل وتسييدها على حضارات الأمم الأخرى، ولا سيما الحضارة الإسلامية. وإذا كان المستشرقون والمبشرون (المخربون) قد ذكروا أهدافًا لهم في إيجاد أجيال جديدة من العرب والمسلمين » تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية، بل الشرقية، وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن

---

(٢) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ، الدار العلمية، بيروت ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م، ص٤.

(٣) علي خليل مصطفى أبو العينين: أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الاسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ص ٢١٠ - ٢١١.

مراكز التوجيه، فقد عملت حركة التغريب في موالاة عجيبة، ودأب بالغ على تدمير الشخصيات العربية الإسلامية الباهرة، وعلى التشكيك في عظمتها.[٤]

٤- أما « جدعان » فيبين لنا الخطوات أو الأسس التي اعتمد عليها هؤلاء الغزاة بمنتهى الوضوح ، فهي كما يلي :

أ) نبذ الشرق والعرب والإسلام ومحاولة اللحاق بالغرب ، والمدنية الغربية، بل وتبني الفكرة الغربية ، بكل حسناتها وسيئاتها.

ب) تحرير العقول (؟؟) من كل سلطة عقلية سابقة ، والنظر إلى موضوعات المعرفة والمجتمع الإنساني نظرة غربية، على أساس النظرة العقلية المتفردة ، المدعومة بالفكر الوضعي الخالص.

جـ) تأسيس الدولة ، وكافة تنظيمات المجتمع، على أساس علماني، أي على قواعد وأسس غربية .. لادينية ، ليس للإسلام فيها أي توجيه أو دور ، وبمعنى آخر فصل الدين عن الدولة ، والسياسة والمجتمع، وحصره في دائرة شخصية جداً.[٥]

٥- أما « عبدالحليم محمود » فيرى أن الغزو الفكري هو « أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوم ، فضلا عن أن تحل محلها ، أو أن تحاربها بإحياء اللهجات العالمية والإقليمية ، وما دام الإنسان لا يفكر إلا باللغة ، كما يجمع على ذلك العلماء، فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها، وإحلال لغة أمة محل لغة أمة أخرى هو إجبار الأمة المغلوبة على أن تفكر كما تفكر الأمة الغالبة ، وأن ترى من العادات والتقاليد مثل ما ترى الأمة من رحابة اللغة الغازية، وما سكتت أمة غازية في

(٤) على خليل مصطفى أبو العينين : اصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي، القاهرة . ١٤٠٤هـ/١٩٨٦م، ص ص ٢١٠-٢١١.

(٥) فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٧٩م، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

تاريخنا المعاصر عن لغة أمة مغزوة ، وانما تخطط لحربها بنفس الضراوة التي تخصص لها للاستيلاء على مقدراتها الاقتصادية."[٦]

تعقيب واجب :

لعل القارئ الكريم يتذكر أن فرنسا حين احتلت الجزائر فرضت لغتها على الجزائريين المسلمين ، وحاربت لغة القرآن الكريم ، على مدار ١٣٢ سنة هي فترة احتلالها ، ولازالت قضية التعريب تمثل جزءاً كبيراً من جهود الإخوة الجزائريين، كذلك فإن انجلترا حاولت أن تفرض التعليم باللغة الانجليزية في مصر إبان احتلالها لها، ولو في بعض المقررات، ويذكر أن كلية الطب التي أنشئت في مصر ، في عهد محمد علي باشا، كان التدريس فيها يتم باللغة العربية، وكلنا نعلم الآن أن تدريس الطب في الجامعات المصرية يتم باللغة الانجليزية..!! كما في غيرها من الجامعات العربية، باستثناء سوريا.

وقد لزم هذا التنويه .. ونعود لموضوعنا.

ويوسع الكاتب السابق مفهومه للغزو الفكري فيقول : إن القضية أوسع من اللغة، ومن الفكر، ومن الثقافة، ومن كل هذه الأشكال « إن الغزو الفكري للإسلام والمسلمين ـ في حقيقة الأمر ـ يستهدف الجذور .. لا القشور، ويحاول القضاء على الجوهر لا العرض، ويركز على تشويه الأصول .. لا الفروع، ومن هنا تركز الغزو الفكري ضد الإسلام في حرب ضارية ضد أمرين هما : القرآن الكريم أصل الشريعة، وما شرحه وفصله من سنة رسول الله ﷺ في العالم الإسلامي كله ، واللغة العربية، لغة القرآن والإسلام ، في العالم العربي بالدرجة الأولى، وفي كل مكان يمكن أن يعنى باللغة العربية بعد ذلك.

وكل عمل، وكل خطة يقوم بها أعداء الإسلام في الفكر والثقافة ، أو المبدأ أو المذهب، أو العادات والتقاليد، أو الأدب والفن ، أو الزي والشكل، إنما

---

(٦) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٦هـ، وقد نشرت تلك البحوث عام ١٤٠٤هـ، القسم الأول ، ص ص ٩-١٠.

يعد معركة جانبية فرعية تخدم المعركة الكبرى، معركة حرب أصل الإسلام وجذوره، وهو القرآن الكريم.. وحرب لغة القرآن الكريم.. اللغة العربية ، وما أكثر المعارك الجانبية، وما أخبث خططها، إذ تتناول مظاهر حياة المسلمين كلها، ابتداء من تغيير الزي، وتغيير العادات، إلى تغيير السلوك والخلق، وانتهاء بتغيير المنهج والشريعة ، ومروراً بإفساد اللغة وإقصائها عن ألسنة المسلمين، أي إقصاء القرآن الكريم عن ألسنتهم وقلوبهم وحياتهم».[٧]

بعض مظاهر الغزو الفكري :

هذا، ويحدد الكاتب مظاهر الغزو الفكري وتياراته في « حملات التشويه للإسلام، كتابه وسنة رسوله ﷺ، وشخصه الكريم المعصوم، وحملات التشويه للتاريخ الإسلامي ، وكذا نظام الحياة الإسلامي، والتراث الإسلامي كله».

كما نستطيع أن ندرك مظاهر هذا الغزو في حملات التغريب للحضارة الإسلامية، وللمسلمين أنفسهم ، كتغريب التعليم والثقافة والنظم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وتغريب الأخلاق والآداب، ثم تكون قمة التغريب بتغريب اللسان لقطعه عن لغة القرآن الكريم، اللغة العربية الفصحى.

ولقد قامت على نشر هذا الغزو وترويجه مؤسسات عديدة، ومراكز خطيرة ، منها الصهيونية والتبشير والاستعمار ، والمبادئ والنظريات المعادية للإسلام، مثل الديموقراطية والشيوعية والاشتراكية والقومية، ومنها الفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية، واتخاذ العري مذهبًا، واتخاذ التخنث للرجال، والترجل للنساء أسلوبًا في الحياة.

ومنها وسائل التخريب التي توجهها الصهيونية في الغالب لهدم القيم الخلقية، كالسينما والمسرح والملاهي ، والنوادي والجمعيات الهدامة كالماسونية ، وأندية الروتاري وغيرها. وهذه كلها ركائز للغزو الفكري، ونقط انطلاق تتحرك منها الحملات ، وتنطلق لتغزو ، ثم تعود بكل خبيث هدام من وسائل حرب

---

(٧) المرجع السابق، ص ص ١٠ -١١.

الإسلام والمسلمين .[8]

٦- ويحدثنا « سعيد » كيف أن « الغزو الفكري » تعبير دقيق بارع، يصور خطورة الآثار الفكرية التي قد يستهين بها كثير من الناس، لأنها تمضي بينهم في صمت وفي نعومة، مع أنها حرب ضروس لا تضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير، أو قتيل ، أو مسيخ ، فهي كحرب السلاح، أو أشد فتكًا.

وهذا التعبير « الغزو الفكري » على حداثة مبناه إلا أنه قديم المدلول والمعنى، وتتفاوت الأمم والجماعات فيه من حيث الدرجة لا النوع، ذلك أن الجماعات البشرية تعيش أبداً متنافسة في سبيل هدف ما ، كالاعتقاد حقا أو باطلاً ، وكالتفوق المادي أو الأدبي، وكذا حب السيادة والاستئثار بالمنافع، ونحو ذلك مما عبر عنه القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز « أن تكون أمة هي أربى من أمة » (النحل- ٩٢).

ومن ثم تبذل كل أمة غاية جهدها لكسب هذا الصراع باليد والسلاح، أو بالفكر واللسان، أو بأي نوع من أنواع المؤثرات الأخرى التي زينت للناس، كالمال هدية أو رشوة .. إلخ، فالغزو الفكري واحد من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما ، لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيًا، إذا أمكن، وهذه هي أقصى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإن كانت في الوقت نفسه هي أقصى درجات النجاح بالنسبة للغزاة.

وسلاح الغزو : الفكرة ، والكلمة ، والرأي ، والحيلة، والنظريات، والشبهات، وخلابة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود، والفارق بينهما هو الفارق نفسه بين وسائل

---

(٨) المرجع السابق، ص ص ٢٣ - ٢٤.

وأساليب الغزو الفكري .. قديمًا وحديثًا.

ويتميز الغزو الفكري بالشمول والامتداد ، فهو حرب دائمة دائبة، لا يحصرها ميدان، بل تمتد إلى شُعب الحياة الإنسانية جميعًا، وتسبق حروب السلاح وتواكبها، ثم تستمر بعدها لكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته، حتى يلين ويستكين، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه، أو يصبح امتداداً ذليلاً لهم ، بل ربما تبلغ حداً من الإتقان تصل به إلى أغوار النفس، فتقلب معاييرها ومفاهيمها، وتشكل لها أنماطا جديدة في السلوك ، والأخلاق، والأذواق إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها بتبعيته، ويراها شرفًا خليقًا بالرضا والشكران.(٩)

٧- أما الشيخ « عبدالرحمن حبنكة الميداني » فيحدثنا عن خطط «الغزاة» التفصيلية في أعمال الغزو الفكري فيقول بأنهم اتخذوا عددا وافراً وفعالاً من الخطط منها :

أ) إثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأحكام الإسلام وتشريعاته.

ب) دس الأفكار الفاسدة، وإغواء بعض ضعاف النفوس، أو ضعاف العقول من المسلمين باعتناقها على أنها من تعاليم الإسلام ومفاهيمه، ثم محاربة الإسلام بها.

جـ) اختلاق الأكاذيب والافتراءات على الإسلام وتاريخ المسلمين، وتشويه غايات الفتح الإسلامي.

د) مقابلة بعض أحكام الإسلام وأركانه وتشريعاته بالاستهزاء والسخرية والازدراء ، ووصف المستمسكين بها بالرجعية والتآمر والتعصب والجمود، ونحو ذلك من العبارات التي تضعف حماس

---

(٩) عبد الستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث المؤتمر السابق (القسم الثاني) ، ص ص ١٧٩-١٨٠.

المتدينين للتمسك بدينهم، وتفت في عضدهم، وتسوقهم في ركب المتحللين من الدين.

هـ) احتقار علماء الدين الإسلامي وازدراؤهم ، وإلجاؤهم إلى أضيق مسالك اكتساب الرزق، لتنفير المسلمين منهم، ومن طريقتهم، ثم تقديم جهلة منحرفين إلى مراكز الصدارة، ليعطوا صورة مشوهة سيئة عن التطبيق الإسلامي، توصلاً إلى تشويه الإسلام نفسه عن طريقهم.

و) متابعة تركيز الهجوم ضد الإسلام ، وتكراره بإلحاح، أملاً في حدوث الغفلة من الدعاة المسلمين الذين ينشرون المفاهيم الإسلامية، ويحذرون من دسائس الغزاة، ونحن نعلم ما للتكرار من تأثير في نفوس الناس، ولو كان مضمونه كذبًا باطلاً، وهذا هو ما تلجأ إليه وسائل الإعلام الحديثة المضللة للجماهير.

ز) بث النظريات والأفكار والمبادئ الإلحادية ، والنظريات والأفكار والمبادئ المناقضة والمخالفة لأسس الإسلام، وتعاليمه وشرائعه، وأحكامه، في مختلف المجالات الاعتقادية، والأخلاقية ، والعملية، مما يتعلق بأحكام العبادات المحضة، أو أحكام المعاملات.

وتبرز هذه النظريات في الفلسفة، وفي العلوم الإنسانية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد ، وفي علم التاريخ وتفسير ظواهره، وفي علم القوانين الوضعية، وتعليل نظرياتها.. إلى غير ذلك.

ح) استدراج فريق من أبناء المسلمين إلى جامعاتهم ، لمنحهم الشهادات العليا في الشريعة الإسلامية، وعلوم اللغة العربية ، والعلوم الإنسانية، ومحاولة التأثير فيهم، وتشويه صورة الإسلام، والتاريخ الإسلامي، والعلوم الإسلامية، في أفكارهم،

وفي نفوسهم، ليكونوا جنوداً مقنعين لهم، يحققون أغراضهم ، داخل شعوبهم المسلمة.

ط) تفريغ أفكار الأجيال الناشئة وقلوبهم ونفوسهم من محتوياتها ذات الجذور العقلية والعاطفية والوجدانية والأخلاقية، وانتزاع كل آثار لها، وهو ما يسمى بعملية « غسيل الأدمغة »، ثم ملء فراغ هذه العقول والقلوب والنفوس بمخترعات فكرية وعاطفية مزورة مزيفة، تخدم غايات العدو الطامع الغازي، وتهدم كيان الأمة الموضوعة هدفًا للغزو ، ثم من بعد ذلك تسخير طوابير الجيش الجديد الذي تصطنعه أيدي الأعداء في هدم كل مقوم من مقومات أمته، ومحاربة كل ما يتبقى لها من فكر وعقيدة، أو خُلق وسلوك، أو تاريخ ومجد .[١٠]

٨ـ ويحدد « التركي » مفهوم « الغزو الثقافي » بأنه « كل فكرة ، أو معلومة، أو برنامج، أو منهج ، يستهدف ـ صراحة أو ضمنًا ـ تحطيم مقومات الأمة الإسلامية : العقدية، والفكرية ، والثقافية ، والحضارية، أو يتحرى التشكيك فيها ، والحط من قيمتها ، وتفضيل غيرها عليها، وإحلال سواها محلها ، في الدستور ، أو مناهج التعليم، أو برامج الإعلام والتثقيف ، أو الأدب والفن، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة ».[١١]

وكما نلاحظ فإن الكاتب هنا أورد نظرة شمولية متكاملة لكل ما يتعرض لمقومات الأمة ومؤسساتها، فمن العقيدة.. أهم ما تحرص عليه الأمة وتتمسك به ، بل وتعض عليه بالنواجذ ، الى مقوماتها الفكرية والثقافية والحضارية، وهي التي تبين هوية الأمة، وما يميزها عن غيرها

(١٠) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث المؤتمر السابق، (القسم السادس) ، ص ص ٥٠٧ - ٥٠٩).

(١١) عبدالله بن عبدالمحسن التركي : تحديد مفهوم الغزو الثقافي، ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، بجاية ، الجزائر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣.

من الأمم، وليس فقط من يتعرض لها، ولكن حتى من يحاول التشكيك في تلك المقومات، أو الحط من قيمتها ومن قدرها.

ومعنى تفضيل غيرها عليها، وإحلال سواها محلها، أن أولئك الذين يعيشون بيننا ، ويستوردون دساتيرا من الخارج نحكم بمقتضاها، أو مناهج تعليمية نعلم أبناءنا على أساسها ، أو يستوردون برامج تليفزيونية وإذاعية ينشرونها بين مجتمعاتنا، وهي لا تناسب قيمنا وعقيدتنا وتقاليدنا.. كل هؤلاء ـ على وجه اليقين ـ من دعاة الغزو الثقافي، بل إن الذين يعيشون بيننا منهم أخطر علينا من الأعداء الواضحين الصريحين، لأنهم يلتبسون علينا، أو على كثيرين منا، وفي بعض الأحيان يصعب إقناع الناس بالحكم عليهم، لأنهم شديدو التلون والتخفي.

٩ـ أما « حنفي بن عيسى » وهو أحد المفكرين الجزائريين ، فيربط بين الغزو العسكري، والغزو الثقافي ، مبينًا أن الأمة العربية والإسلامية تعرضتا على مدار تاريخهما الطويل لمعارك طاحنة، معارك عسكرية، وأنهما مازالتا تتعرضان لمعارك الغزو الثقافي، فهو إذاً قد وضع معركة الغزو الثقافي على نفس مستوى معركة الغزو العسكري المسلح، وهذا هو الفهم الصحيح للأمور فعلاً.

وفي هذه المعركة ، معركة المصير ، نجد الشعب العربي، من المحيط إلى الخليج ، صامداً كالطود الشامخ، واقفا بالمرصاد أمام كل المناورات ، لأن الأمة العربية ، منذ أن برزت للوجود ، وهي على موعد مع التاريخ في صناعة الأحداث الكبرى التي حملت تغييرات نوعية في الحضارة الإنسانية، ولكن رغم أن الأقطار العربية تحررت من ربقة الاستعمار، فلا يجوز مع ذلك أن نكون غافلين عما يهددنا من غزو ثقافي ، بكل ما يحمله من دس في التراث ، وتشكيك في العقائد، وزعزعة للنفوس، وسلب لمقومات الشخصية، كما لا يجب أن نكون غافلين عن خطر الغزو العسكري الذي لا يزال يهددنا في كل حين من

طرف الصهيونية والإمبريالية، فالأساطيل الأجنبية ترابط غير بعيد عن شواطئ البحر المتوسط تحصي علينا حركاتنا وسكناتنا، والأقمار الصناعية تجوب الفضاء فوق أراضينا، وتترصد بنا الدوائر ، وتستكشف وتستجمع المعلومات عما تزخر به أراضينا من موارد وثروات تمهيداً لوضع الخطط العدوانية، ويكفي أن أستشهد في هذا المقام بما صرح به القائد العسكري الصهيوني « آرييل شارون » في شهر ديسمبر ١٩٨١م، من أن « منطقة النفوذ العسكري لإسرائيل سوف تتوسع في الثمانينيات إلى ما وراء العالم العربي ، وسوف تشمل بلداناً أخرى، مثل : تركيا ، وإيران، وباكستان ، بل حتى شمال إفريقيا، وإفريقيا الوسطى » .[(١٢)]

الغزو الثقافي والإعلام :

ويفصِّل « العالم » أشكالاً متنوعة للغزو الثقافي » تتم بشكل غير مباشر ، عبر وسائل الإعلام والثقافة، وتتمثل في برامج الإذاعة والتليفزيون السياسية والاجتماعية والترفيهية والتثقيفية، فضلاً عن الأفلام السينمائية والمسرحيات والكتب، بل مظاهر الحياة الاستهلاكية البذخية.

إن الدول الرأسمالية الكبرى هي التي تسيطر أساسًا على وسائل الإعلام والاتصال الفكري والعملي، بما يتيح لهذه القوى الرأسمالية السيطرة على ثروات وطاقات الشعوب، وخاصة شعوب البلدان النامية (اسما..!!) والمتخلفة فعلاً، فضلاً عن السيطرة على عقولهم ومشاعرهم ، وأذواقهم وقيمهم، سيطرة تشيع روح التسطح واللاعقلانية واللامبالاة واليأس والاستهلاك البذخي والاغتراب والتفسخ» .[(١٣)]

---

(١٢) حنفي بن عيسى : الثقافة العربية في معركة المصير.. خطر الغزو الثقافي، ضمن بحوث الخطة الشاملة للثقافة العربية، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ص ٦٧٧-٦٧٨.

(١٣) محمود أمين العالم : الغزو الثقافي والتخطيط المستقبلي للثقافة العربية ، ضمن بحوث الخطة السابق، ص ٢١٧.

وحتى نتأكد من المقولة السابقة، أي سيطرة الدول الكبرى على وسائل الإعلام نقرأ :

« إن الولايات المتحدة أكثر الدول الأجنبية تصديراً للبرامج التليفزيونية إلى دول الخليج .. ولعل الغزو الثقافي، من خلال جهاز التليفزيون ، لا يقتصر على منطقتنا ، ففي دراسة نشرت في السبعينات بينت أن برامج التليفزيون الأمريكي تبيع للعالم الخارجي من ١٠٠ ألف ساعة إلى ٢٠٠ ألف ساعة سنويًا، ثلثها تقريبًا إلى أمريكا اللاتينية، والثلث الآخر للشرقين الأقصى والأوسط، والباقي لأوروبا الغربية.

هذا وتعمد شركات الإنتاج التليفزيوني في أمريكا لبيع برامجها حتى بأقل من أسعار التكلفة إلى الخارج ، لأنها تكون قد حصلت على أرباحها من البيع الأول في السوق الأمريكية، وهذا بحد ذاته يعطل من محاولات الإنتاج المحلية للدول النامية، ويفقدها المنافسة، وكل ذلك من أجل تسويق « نمط الحياة الأمريكية » . ونجد أن الدراسات تشير إلى أن المثقفين (المتعلمين) في العالم الثالث أكثر استهلاكًا للبرامج الأمريكية والغربية على السواء من الفلاحين أبناء القرى عديمي التعليم. وهنا نجد أن هنالك ارتباطا طرديًا بين التعليم الغربي والإعلام الغربي. لقد أصبح الاتصال الجماهيري في العالم يخضع لصناعة ضخمة يمكن أن تسمى الصناعة الثقافية، تملكها شركات «عبر وطنية Multi National» في ثقافة تسيطر عليها التكنولوجيا المتقدمة.[١٤]

وحتى نرى أثر التليفزيون كأحد أقوى عناصر الغزو الثقافي في الخليج، إن لم يكن أقواها جميعًا ، نقرأ ما يقوله أحد المسؤولين في الخليج» ، ويساعد التليفزيون في الخليج - رغم كل المحاولات التي تجري لضبط مستخرجاته (لعله يقصد مخرجاته) على إشاعة الثقافة الاستهلاكية بطريق غير مباشر، أو بطريق مباشر.. إن الكثير من محطات التليفزيون والإذاعة في المنطقة تساهم مساهمة كبيرة في ترسيخ هذه التبعية، عن طريق عرض الإعلان التجاري.. إن آخر الصيحات في عالم موديلات الملابس والسيارات والتليفزيونات والمسجلات

(١٤) محمد الرميحي: الثقافة في الخليج، مرجع سابق، ص ٥٨.

وآلات الفيديو والألعاب الاليكترونية تشهد على ذلك التحول الدائم عبر القارات ، ومعارض الألماس والأزياء تؤكد أننا نتجه إلى الآثار الجانبية للحضارة.[١٥]

(١٥) المرجع السابق.

الفصل التاسع

أفكار حول الغزو الثقافي

الفصل التاسع

أفكار حول الغزو الثقافي

بعد أن مررنا على بعض التعريفات التي تعلقت بالغزو الثقافي، وبعد أن تناولنا العديد من مفاهيمه وقضاياه، سوف نحاول خلال صفحات هذا الفصل أن نركز على بعض المفاهيم التي تحيط بهذا « الغزو الثقافي » الذي علينا أن نتعايش معه، وحتى نفعل ذلك فإنه من المحتم علينا أن نعيه جيداً ، ونعي خطورته، وسوف نركز ما نقول ـ إن شاء الله ـ في عدد من النقاط.

أولاً : ابتلاء معظم بلاد المسلمين به :

أصبح من المسلم به ـ الآن ـ أن بلاد المسلمين كلها ـ تقريبا ـ واقعة تحت مطرقة الغزو الثقافي، بصورة أو بأخرى، سواء شعر به المسلمون وتنبهوا له ، أو غفلوا عنه ولم يتيقظوا بعد لمخاطره، أو أنهم ربما عرفوا بوجوده بينهم، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويتعامون عن نتائجه، أو أنهم ـ كذلك ـ يدرون به ويتحدثون عنه، ولكنهم لا يعرفون كيف يواجهونه ولا كيف يتعاملون مع عناصره.

ومن بلد إسلامي لآخر تختلف الصور وتتفاوت ، ففي بعضها يتضح هذا الغزو في مظاهر السير وراء الغرب، في العادات والتقاليد ، وفي الملابس والموضات، وفي بعضها الآخر اقتبست القوانين الوضعية للدستور، وأهمل العمل بدستور الأمة المفترض والذي هو القرآن الكريم، بينما درست القوانين الوضعية لطلاب كليات الحقوق بكثافة شديدة، وذراً للرماد في العيون، أو ربما خداعًا للنفس، وضعت ساعة أو ساعتان في مقررات للشريعة الإسلامية.. [*]!!

(*) يمكن ـ في هذا المجال ـ مراجعة كتاب المؤلف : «التغريب في التعليم في العالم الإسلامي»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ.

وفي البعض الثالث اتضح الغزو الثقافي وآثاره في مناهج التعليم وخططه حتى إن اللغة الأجنبية ـ الإنجليزية عادة ـ طغت على مقررات الهوية الإسلامية واللغة العربية ، حتى لطلاب أقسام الإعلام، وحتى لمدرسي اللغة العربية ، ومن المعروف أن المعلمين والإعلاميين هم الذين يتولون توجيه الأمة وتربية أجيالها الصاعدة.

وفي جميع الدول الإسلامية ـ بلا استثناء ـ طغت البرامج التليفزيونية المستوردة على البرامج الوطنية أو المحلية بكل ما فيها من قيم غير قيمنا، وعادات غير عاداتنا، وتقاليد غير تقاليدنا، وحتى حينما حاولت بعض بلادنا إنتاج بعض البرامج وجدت أن ما أنتجوه جاء في معظمه تقليداً ممسوخًا لما استوردوه، مما جعل الناس ينصرفون عنهم، وأصبحوا أسرى لذلك المستوى الهابط والخطير من الإنتاج التلفزيوني الذي صار يشد أبناء مجتمعاتنا الإسلامية لساعات طوال.. ربما بلا حصر ولا عدد.. !!

ثانيًا : استدعاء الغزو الثقافي :

من الأمور العجيبة أن بلاد العالم الإسلامي هي التي تستدعي ذلك الغزو الثقافي إلى أبنائها ، إذ هو ليس مفروضًا عليها بالقوة، كما كان الغزو المسلح قبل ذلك ، وإنما هي التي تجلبه إلى ديارها.. وباختيارها. ويصف «التركي» هذه الظاهرة بأنها « جد عجيبة.. وغريبة .. ومذهلة » ، أي ظاهرة استدعاء الغزو الثقافي » ، وبسخرية لاذعة ومعبرة يطلق عليها: « دفع الإيجار للغزاة مقابل غزوهم لنا » ، إذ من المعروف أن معظم المجتمعات الإسلامية تستورد أكثر من ٧٠٪ من مادتها الإعلامية، سواء كانت هذه المادة برامج أم مسلسلات أم أفلامًا ، أم تقارير إخبارية. ومن المعروف أن منتجي ما يستورد العالم الإسلامي ليسوا على ديننا ، ولا على فكرنا، وبالتالي علينا أن نتوقع ، بل وأن نعرف ما ينتجون [*].

(*) عبد الله بن عبد المحسن التركي، مرجع سابق.

إن لهؤلاء المنتجين والمصدرين عقائدهم وأفكارهم، كما أن لهم ثقافاتهم التي تربوا على أساسها، وبالتالي فمن العسير أن نحملهم على أن يفكروا كما نفكر. ونفي قدرتنا على ذلك يترجم - لفوره - إلى مسلمة لا جدال فيها وهي أن أولئك المنتجين إنما يخدمون فكرهم وثقافتهم، وبالتالي يخدمون أغراضهم السياسية والاقتصادية، وهم يكتبون القصة، ثم وهم يخرجونها في هذا الشكل الإعلامي أو ذاك، ثم من بعد ذلك وهم يصدرونها إلى المستهلكين في المجتمعات الإسلامية وهذه الصادرات - على وجه اليقين - ضرب من ضروب الغزو الثقافي، سواء أقصد المصدر الغزو وتحراه، أم أنه قد عبر تلقائيا عن ثقافته وفلسفته وواقعه.

ثالثًا : كثرة مؤسسات الغزو الثقافي :

من مخاطر الغزو الثقافي أنه لا يمكن نسبته إلى جهة واحدة تقوم به، أو تخطط له، وإنما هناك عشرات وعشرات من الجهات والمؤسسات « فعشرات الأجهزة، كما يقول « حسان » : شرقية وغربية، سرية وعلنية، حكومية وأهلية، دينية وإلحادية، عسكرية ومدنية، تجمع صفوفها، وتحشد قواها، لغزونا من الداخل، بعد انحسار مرحلة الغزو من الخارج، ومع أن الغزو من الخارج ليس مستحيلاً، وأفغانستان خير دليل على ذلك وشاهد،(*) إلا أن الغزو الثقافي أكثر استقراراً، وأرسخ دعائمًا، وأعتى نفوذاً، وذلك بدون إبرار جوي، أو إحراج دولي.

(*) حينما كتب د. حسان محمد حسان كتابه « وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي » عام ١٤٠١هـ، كان الغزو الشيوعي لأفغانستان على أشده، أما اليوم، وبعد مرور حوالى خمسة عشر عامًا، فالأساليب هي الأساليب.. لم تتغير ولم تتبدل، بل إنها زادت اتضاحًا، وما عاد هناك إحراج أو حياء، بل إن الأمر صريح وواضح وضوح الشمس، ويكفي أن ننظر لما يجري على أرض البوسنة والهرسك من مذابح مروعة للمسلمين على أرضهم، زاد ضحاياها حتى كتابة هذه السطور ليقتربوا من نصف مليون، وأهل أوروبا وأمريكا وروسيا يتفرجون، بل إن الروس يمدون الصرب بالسلاح والتدريب، وحينما اجتاحت قوات الروس الملحدين أرض مسلمي الشيشان تقتل وتحرق وتدمر وتسرق ما تحرك الغرب، بل إنهم قالوا بأن ذلك أمر داخلي يخص الروس وحدهم، بل ان بعضهم طالب الروس بسرعة الانتهاء من هذه القضية حتى لا يمتد شررها إلى باقي جمهوريات الاتحاد السوفييتي الإسلامية..!!

رابعًا : الغزو الثقافي لا يقدم لنا إلا القشور :

إن البعض - للأسف الشديد - بربط بين الحضارة.. والتقدم .. والمدنية، وبين البعد عن الدين ، وعن جذور التراث الأصيلة، وكذا عن تقاليد الماضي العريق ، فالتدين عند ذلك البعض.. رجعية، والتمسك بالتقاليد .. تخلف..!!

أما الجري وراء التافه من قشور الحضارة الغربية، والاقتباس منه ، والانغماس في تفاهات المجتمعات هناك.. فحداثة.. وتجديد.. وتقدم..!! إن بعضهم يتصور أن مجرد إقامة الحفلات الراقصة الماجنة والصاخبة ، يجعل منهم متحضرين، بل ومتقدمين ، والبعض يدعو لإقامة حفلات اختيار ملكات الجمال، وتتويجهن ، بغية إزالة الحياء من وجوه بنات المسلمين، وهم لا يعلمون، أو لعلهم يعلمون، أنهم بذلك إنما يدعون إلى تخريب مجتمعاتهم وهدمها من الأساس، وكثيرون منهم قد يتصورون أن مجرد التشبه بهذه القشور السطحية التافهة يمكن أن يقربهم من مدنية أوروبا وأمريكا..!!

ولقد فات هؤلاء - تمامًا - أن المسلمين لم يكونوا متقدمين، ولم يكن لهم من ذكر في العالمين، كما لم يكن لهم إسهامات رائعة في صنع حضارة تليدة مشرقة، إلا يوم أن كانوا مستمسكين بدينهم ، عاملين بأوامره ونواهيه، وأن العالم من حولهم ، والذي أذهله تقدمهم وتفوقهم، قد وقف حيرانًا أمام هذا الانقلاب المفاجئ الذي أصاب ذلك «العربي الجاهل» فحوله إلى عالم متفقه في الدين، بل وفي علوم الدنيا، عالم مجد يسهر الليل ويصله بالنهار، طلبًا للعلم الذي حثه عليه الإسلام، بل وجعله فريضة لا هوادة في أدائها، ولا تنازل عنها. كما أن ذلك العالم قد وقف مشدوها أمام ذلك المجاهد العظيم الذي باع دنياه الفانية، واشترى آخرة وعده الله بها، سبحانه وتعالى . وهنا.. وهنا فقط.. وقف ذلك العالم، ووقفت شعوبه موقف المتعلم من ذلك الإنسان المسلم.. المؤمن .. العالم.. الورع.. المجاهد.. المبدع.. المنتج.. المتقن.. القائم بالليل، العامل بالنهار، وتلك هي بعض صفات الذين يبنون الحضارات ، والذين يقيمون صروح المدنيات، ويدفعون - بالتالي - بمجتمعاتهم في طريق العلم والرقي والتقدم.

ولو أن اليابان، في عصرها الحديث، أخذت في اقتناء قشور الحضارة والمدنية من أوروبا، كما تفعل مجتمعاتنا الآن، لما تعدت مرحلة العصور الوسطى، عصور الإقطاع التي كانت تعيشها منذ نحو مائتي عام، إنما هي كرَّست حياتها، وبالذات حياة أبنائها المبتعثين في الخارج، للبحث عن سر قوة أوروبا، وعن بواعث تقدمها ونهضتها في مطلع القرن الماضي، فكان الجهد المكثف ، والجري المحموم وراء العلم والتكنولوجيا، ومحاولات اقتفاء آثارهما في كل مكان يظن أن فيه أثراً لهما على سطح الأرض ، تنفيذاً لكلمات امبراطورهم الواعي الداهية « ميجي » عام ١٨٦٨م، حين نادى بذلك في خطابه يوم جلس على العرش.

ويذكر التاريخ أن أبناء اليابان كانوا يركعون تحت أقدام عمال انجلترا وألمانيا يخدمونهم، بصبر عجيب، وتفان أعجب، في سبيل أن يتعلموا منهم «سر الصنعة »، وأن يتشربوا هذا السر حتى يعودوا إلى مجتمعهم الياباني المتعطش إلى العلم والباحث عن المعرفة، بل إنهم في اليابان حين علموا بوجود دولة عربية إسلامية متقدمة ـ آنذاك ـ أرسلوا بعثة سريعة من أبنائهم إلى تلك الدولة.. مصر.. كي يقفوا على سر تقدمها، وكان ذلك عام ١٩٦٣م.. !! (*)

ويكفينا في هذا المجال أن نذكر، ونحن نقارن حال مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، مع حال اليابان، في مجال العلم والتكنولوجيا، أقول يكفينا أن نذكر عبارة مفكرنا الإسلامي الشهير « مالك بن نبي » رحمه الله رحمة واسعة، قال لرجل الحصيف : « لقد وقفت اليابان من الحضارة الغربية موقف .. التلميذ، ووقفنا نحن موقف.. الزبون » ، وشتان بين « التلميذ » طالب العلم، والباحث عن العلم والمعرفة والاستفادة ، وبين « الزبون » طالب المتعة والاستهلاك، والساعي بقدميه إلى الكسل والخمول، ومن ثم الترهل والتبلد..!!

(*) يمكن مراجعة كتاب : إدوارد د. بوشامب : التربية في اليابان المعاصرة، ترجمة المؤلف، ومن إصدارات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٥هـ.

إن الأول يبحث عن علم ، وعن تطبيق علم ، وهما يشكلان الأساس المتين في صناعة الحضارة، وفي تمهيد الطريق ، وتعبيده باتجاه التقدم، ومن بعد ذلك يأتي الغنى والازدهار والقوة والمنعة والهيبة بين الدول. أما الثاني فيبحث عن البريق الزائف، وعن اللمعان في القشور، بينما يغيب عنه الأصل، ويعمَّى عليه الجوهر، وما عرف التاريخ أمة اكتسبت قوة ومنعة، أو حتى احترامًا بين الشعوب ـ فقط ـ بكثرة استيرادها، وبضخامة استهلاكها وإسرافها، بل إن العكس هو الصحيح، إذ أن ذلك كله مؤد للخضوع والخنوع، آخذ برقاب تلك الشعوب إلى مهاوي التبعية والذل، وليس هناك من نتائج أخطر من هذه فيما يتعلق بآثار الغزو الثقافي.

خامسًا : أثر الإعلام في حياة الأمة :

يبين « التركي » الأثر الخطير للإعلام في حماية الأمة، في مجال «الغزو الثقافي» وكيف أنه يحاصرها، ويأخذ بتلابيبها، ولا يترك لها مجالاً إلا السقوط في أحابيله، إلا من عصم الله، يقول : « إن المجتمعات الإسلامية بوغتت ، وهي متلبسة بأغلال الغزو الثقافي وآثاره بما زاد المشكلة سعة وعمقا وتعقيدا وحدة.. فقد بوغتت المجتمعات الإسلامية بتدفق إعلامي ضخم الحجم، بالغ التأثير، متواصل الطرق والدق والإلحاح ، فخوطب الطفل المسلم بما يتعارض مع فطرته، ومقومات تكوينه الإسلامية، وخوطبت المرأة المسلمة بما يجعلها نسخة مشوهة من المرأة الغربية ، وخوطبت الأسرة المسلمة بما يقوض أواصر التواد والتراحم فيها، وبما يهدم الصلة السوية بن الأجداد والأبناء والأحفاد، وخوطب المجتمع الإسلامي كله بما يضرب وحدته الفكرية، وبما يورثه فتنة في الدين، وشكا في المقومات، وبما يزلزل أمنه الثقافي وطمأنينته النفسية.»[1]

ولا يحتاج الكلام السابق لكثير تفسير، ولا لعميق توضيح، فالأوضاع من حولنا تفسره وتدل عليه، في منازلنا ، وشوارعنا، ومحلاتنا، ومدننا وقرانا، وعلى حدودنا، في علاقاتنا ببعضنا، في تنافرنا وتعاركنا، معاركنا الشخصية في العمل، ومعارك دولنا مع بعضها على الحدود، بسبب خلافات مصطنعة

---

(١) عبدالله بن عبدالمحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي ، مرجع سابق، ص ٦.

تافهة على تلك الحدود، في شكنا في بعضنا.. وثقتنا في الأجنبي، في سوء فهمنا وشكنا في أنفسنا وفي أهلينا، بينما ثقتنا في الأجنبي بلا حدود، في انغلاقنا على بعضنا وادعاء السرية في بعض الأمور ، بينما بلادنا وأحوالنا.. وكل أوضاعنا، كتاب مفتوح ، بل مكشوف ومفضوح ، أمام الأجنبي ، وليس هناك من أوضاع متردية أكثر من هذه ، بالنسبة لآثار الغزو الثقافي ، وفي تقديرنا للغير، وفي عدم احترامنا لأنفسنا وذواتنا، مما يجعلنا أمة خيرها لغيرها، ومستقبلها لا تملكه ولا تخطط له، طالما هي تابعة لمن لا يدينون بدينها، مع أننا مأمورون من ربنا ـ جلت قدرته ـ بغير ذلك ، حيث نص القرآن العظيم على ذلك :﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ .

سادسًا : تركيز الغزو الثقافي على الإنسان :

من أخطر ما توصل إليه من فكروا في قضية « الغزو الثقافي » أنهم ركزوا على الإنسان، من داخله، بحيث تزلزل شخصيته، فلا يعرف صاحب تلك الشخصية رأسه من قدميه، كما يقول المثل ، لقد جرب الاستعمار حرب السلاح، والاستيلاء على الأرض ، فوجد المسلمين ينتفضون مدافعين عنها بقوة وحماس، لأن الأرض بالنسبة لهم تمثل الوطن والعرض والشرف، في مصر فعلوا، وكذا في الجزائر وأفغانستان، وهم لا يزالون يفعلون في فلسطين، وكذا في البوسنة والهرسك، وجاءت حرب الشيشان لتؤكد على ذلك وتدعمه، والنتيجة المحتمة والنهائية هي هزيمة الاستعمار ، والخروج من الأرض ، مهما بلغت التضحيات ، وعظم البذل والفداء، ومهما طال الوقت وامتد الزمن.

ومن هنا تمخضت حيل المستعمرين وأفكارهم الجهنمية عن الشكل الجديد للاستعمار، والمتمثل في تذويب شخصية أو شخصيات هؤلاء المجاهدين والمقاومين الرافضين لوجود قواتهم على الأرض.. أي أرض المسلمين، وحينما تذوب الشخصية تضيع الأهداف ، أهداف الأمة الإسلامية، بينما تتحقق أهداف المستعمرين أعداء الإسلام. إن احتلال الشخصية أهم من احتلال منابع النفط،

والسيطرة على العقول أهم من السيطرة على الأسواق.[٢]

ولننظر حولنا لنرى ماذا فعل بنا الوضع الجديد، أي بعد طرد الاستعمار العسكري المسلح، وبعد تذويب الشخصية الإسلامية، وبعد تمكن الغزو الثقافي من عقولنا ونفوسنا، وجماع شخصياتنا.

أيام الاستعمار المسلح كان الأجنبي بغيضًا إلى نفوسنا ، محتقراً في عيوننا ، لا يستطيع أن يسير آمنا في مدننا وشوارعنا، ومن هنا كان يحتمي في مناطق خاصة تعزله عن مجتمعاتنا (في منطقة قناة السويس .. في حالة مصر) ، وفي معسكرات يحيطها بأسلاك شائكة، ويضع على حدودها حراسات، وأضواء كاشفة، وأسلاك مكهربة عازلة، ورغم كل ذلك وصل إليه الفدائيون الإسلاميون، ونالوا منه، وأسالوا دمه، وأقضوا مضجعه.

أما اليوم .. وبعد الاستقلال ، فقد خرج الجندي المدجج بالسلاح، وعاد إلينا بشكل آخر، عاد سائحًا، وعاد خبيراً ، وعاد أستاذاً.. ندعوه نحن، ونلح في دعوته، وحين يحضر نستضيفه ونكرمه، ونبالغ في الحفاوة والتكريم، نحجز له في أفخم الفنادق ، ونرتب له برامج للزيارة، بل ونحجز له ما هو أخطر من ذلك.. نحجز له مكانًا آمنًا عاليا في عقولنا ونفوسنا، ونطلب من أبنائنا أن يتعلموا من «حكمته»، وإذا رجوناه أن يبقى للعمل منحناه أضعاف ما نعطي النجباء من أبنائنا، فتمكنت بذلك «عقدة الخواجة» من نفوسنا، وأصبحت دالة على إحساسنا بالنقص، وعلى استشعارنا الدونية والمهانة.. على أرضنا..!!

أيام الاستعمار المسلح كانت فينا عزة، وكانت لدينا كرامة، وكان الوطن يعنينا، فخرجت من بيننا فئات مؤمنة واعية تنادي بمقاطعة الأجانب، ومقاطعة بضائعهم حتى تبور في الشوارع والمحلات، وحتى يعلموا أننا لا نقبل أن نشتري ، ومن ثم نربِّح من يقتلون أبناءنا ، ويدنسون تراب أوطاننا، وفي الوقت نفسه ارتفعت صيحات واعية تطالب بتشجيع الإنتاج الوطني، والوقوف من خلف الصناعة الوطنية ، نؤازرها ونشجعها وندعمها.

---

(٢) حسان محمد حسان، مرجع سابق، ص ١٦.

واليوم.. وبعد الاستقلال، وبعد تمكن الغزو الثقافي منا.. أين نحن من هذا؟؟ شركاتنا الوطنية والمثال من مصر كذلك - وخاصة شركات القطاع العام خسائرها السنوية بمئات الملايين من الدولارات، بينما الشركات الأجنبية تصول وتجول في أسواقنا، وأذواق المصممين عندهم تسيطر على عقول نسائنا وفتياتنا.. بل وشبابنا وكثير من (رجالنا)، وهي تحصد الأموال من أيدينا لتذهب بها إلى مواطنيهم هناك في الخارج.

ويكفي أن نذكر أن مصر حينما قامت فيها الثورة عام ١٩٥٢م، كانت تدين انجلترا (!!) بنحو خمسمائة مليون من الجنيات الاسترلينية، نتيجة عمل الفلاحين والعمال المصريين، ونتيجة إجادتهم وإتقانهم ، أما اليوم فديوننا.. ومعنا الغالبية العظمى من دول العالم الإسلامي علامة دالة على كسلنا وإهمالنا، وتمكن الغزو الثقافي منا بحيث أصبحنا نجلس أمام الفيديو والتليفزيون بأكثر مما نمكث في الحقل، أو في المصنع.(*)

سابعًا : وصول الغزو الثقافي لجامعاتنا :

على الرغم من أن جامعاتنا في العالم العربي بها النخبة المثقفة ذات المستوى العالي إلا أن الغزو الثقافي قد وصل فيها إلى النخاع متمثلاً في إهمال اللغة العربية، لغة القرآن الكريم ، وخاصة في الكليات العملية، وبالتحديد: الطب والصيدلة والهندسة، وأحيانًا العلوم ، حيث يجري التدريس فيها باللغة الانجليزية، وكأنما ضاقت لغة القرآن الكريم عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة، وهي التي كانت لغة العلم، بل كانت اللغة العالمية في ذلك ، فحتى القرن السابع عشر الميلادي كانت جامعات أوروبا القديمة مازالت تستخدم كتب العلماء المسلمين، وتعتمد عليها في شتى فروع المعرفة المختلفة، بل ويكفينا هنا أن نذكر أن «محمد علي باشا» والى مصر في بدايات

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع أن يرجع لرسالة الماجستير الخاصة بالكاتب، وهي بعنوان : « دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الريف » ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم أصول التربية، كلية التربية ، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

القرن التاسع عشر الميلادي، حين أنشأ كلية الطب في مصر، وترأسها عالم فرنسي هو «كلوت بك»، كان التدريس فيها آنذاك يتم باللغة العربية، وكان ذلك عام ١٨٢٧م، أي منذ نحو ١٧٠ (مائة وسبعون عاما)..!!

لقد كان « محمد علي باشا » واعيًا جداً لأهمية إتقان اللغة العربية في المعاهد التي أنشأها في مصر ، بل وذهب في بعد نظره لهذا الأمر مذهبا لا أبالغ إذا قلت أننا نقصر عنه هذه الأيام في جامعاتنا. لقد كان يطلب من كل طالب مبتعث ، حين عودته للوطن أن يترجم أطروحته التي حصل عليها بالخارج إلى اللغة العربية، حتى يعم نفعها أبناء وطنه، وحتى لا تظل حبيسة الأدراج والرفوف لا يستفاد منها، ولا يلتفت إليها ، وما من أمة تركت لغتها، وهجرتها إلى غيرها إلا ضاعت، وأصبحت تابعة لغيرها.

ويكفي هنا أن نشير إلى أن اليابان رفضت ، بإصرار غريب، أي تعديل في لغتها من جانب الأمريكيين، على الرغم من ضربها بالقنابل الذرية في هيروشيما ونجازاكي، ولقد خضعت للأمريكيين في كل شيئ طلبوه منهم عند توقيع معاهدة السلام، عام ١٩٥٠م، ولقد قبل اليابانيون بكل شروط الاستسلام التي فرضت عليهم كأمة مهزومة ، ولكن حين وصل الأمر إلى تعديل اللغة اليابانية رفض اليابانيون ، بل وأصروا على الرفض، لأنهم كانوا يعلمون أن اللغة هي ضمير أمتهم، وهي عقلها، بل هي كيانها وذاتها من الأعماق (*).

ويقيني أنه لو كانت اليابان قد وافقت على تعديل لغتها، إرضاءً للأمريكيين، وتنفيذاً لهيمنتهم وسيطرتهم، لكانت شخصيتها قد محيت من الوجود كأمة لها كيانها، ولما كانت قد تقدمت هذا التقدم الهائل والمبدع في كل مجالات العلم والتكنولوجيا الرائعة والمذهلة التي اعترف بها، ويعترف بها ، الجميع في شرق وفي غرب ، ويكفي أنها تفوقت على الذين انتصروا عليها في الحرب، وأصبحت وهي تغزوهم في عقر ديارهم بمنتجاتها، بل إنها تضربهم

(*) يمكن مراجعة كتاب «التربية في اليابان المعاصرة» لمؤلفه إدوارد ر. بوشامب، ومن ترجمة الكاتب، مرجع سابق.

بقنابل اقتصادية لا يستطيعون لها اتقاء، بل إنها تدينهم بعشرات المليارات من الدولارات، ومن بضع سنوات والميزان التجاري بينهما (أمريكا واليابان) يميل لصالح اليابان، وبشكل مستمر وحاد.

واليابانيون يقرون ويعترفون بأن الفضل في هذا التقدم الرائع في مجالات العلم والتكنولوجيا والاختراع انما يعود للعقل الياباني الذي هو ناتج من نواتج «التربية اليابانية»، والتي هي ـ بطبيعة الحال ـ تعتمد على اللغة اليابانية ، إن هذه التربية اليابانية قد خرَّجت لمجتمعها علماء ومخترعين ومهندسين وفنيين رائعين قفزوا بمجتمعهم خطوات رائعة على طريق التقدم، مما جعله يسبق أمم الدنيا، بل وجعل المسافة بين مجتمعهم وبين غيرهم من المجتمعات تتسع أكثر وأكثر، وللعلم فإن الذي يملك السبق في مجال التكنولوجيا، يصعب اللحاق به، كما يقول وزير المواصلات الياباني السابق «شينتارو إيشيهارا Shintaro Ishihara» في كتابه الرائع، الذي أثار قضايا كثيرة جداً في الولايات المتحدة الأمريكية، ابتداءً من رجل الشارع هناك، إلى المثقفين، إلى صناع القرار في الكونجرس الأمريكي، ووزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) ، وحتى الرئيس الأمريكي الجالس في البيت الأبيض، خاصة وأن « إيشيهارا » هذا كان قد رشح نفسه لرئاسة الحزب الديموقراطي الياباني، وكانوا يخشون في أمريكا أن ينفذ أفكاره التي نادى بها في كتابه، فيما لو نجح في الانتخابات وأصبح رئيسا لوزراء اليابان.[٣]

ثامنًا : الانبهار بالغزاة :

إذا كان المستعمرون يخططون لأنفسهم ولنا، في قضية الغزو الثقافي هذه ، بدعوى أنهم أصحاب الثقافة الأقوى والأرسخ، معتمدين في ذلك على تفوقهم العلمي والتقني، إلا أن المسلمين أصحاب عقيدة هي الأعظم عبر التاريخ، وهي التي ينبغي أن تسود بين كافة الأمم والشعوب.

---

(٣) Shintaro Ishihara: The Japan That Can Say No. Why Japan Will Be First Among Equales, Simon, Sehuster, New York, Tokyo, London, 1991.

وهذه العقيدة ينبغي أن تستتبعها ثقافة على نفس المستوى، من العظمة والرسوخ ، وإذا كان المسلمون قد فرَّطوا في العلوم التجريبية، في فترة معينة من حياتهم، وهم ـ للعلم ـ يدفعون ثمن ذلك الآن مضاعفًا وغاليًا، نقول إذا كان ذلك قد حدث إلا أنهم لا ينبغي عليهم أن يخضعوا أو يذلوا أو يستكينوا، ولكن للأسف الشديد فإن طائفة كبيرة منهم فقدت حسها الإسلامي السليم فهانت على نفسها، ومن ثم على الناس، وكان من نتيجة ذلك الانبهار الشديد بثقافة الغازي وفكره، وفي هذا المجال، وحول هذا المعنى ، يقول د. عبد الله التركي : « ونأسف إذ نقول إن الحضارة الغربية أطريت بإسراف في العالم الإسلامي، والإطراء أسلوب يفقد الإنسان توازنه العقدي، أمام من ، أو ما جرى إطراؤه ، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى ، نهى الرسول ، ﷺ ، أن يطريه المسلمون ، وذلك لأن أقوامًا أطروا رسولهم ففقدوا ـ من ثم ـ توازنهم العقدي، وجعلوا رسولهم إلها أو بعض إله، ولكن مادحي الحضارة الغربية ـ في العالم الإسلامي ـ جعلوا لها ما ليس لرسول الله ﷺ.»[٤]

إن الانبهار بغير المسلمين حالة نفسية وفكرية لا تدل بحال من الأحوال على قوة العقيدة ونقاء التوحيد. ثم إن للانبهار الشديد مقتضيات في مقدمتها التقليد والمحاكاة، وقد نهى المسلمون عن تقليد غير المسلمين، ولكن حين نسيت هذه المعاني، استمر المطرون في إطرائهم للحضارة الغربية فحصل الانبهار الشديد بها، وكان هذا الانبهار أحد مداخل الغزو الثقافي.[٥]

تاسعًا : الإحساس بالدونية :

من مآسي الغزو الثقافي الثقافي ، ومن مسبباته أيضًا أن المجتمعات المغزوة يحس أفرادها بالدونية، أمام المجتمعات الغازية، « أي أن يحس المرء بأنه ينتمي إلى حضارة أدنى قيمة وأقل وزنا من حضارة الغازي، ومما لا شك فيه أن هذا الإحساس نشأ ونما في غياب الانتماء الحقيقي والمستنير لحضارة الإسلام، ومما لا شك فيه أيضًا أن المسؤول عن هذا الغياب هو مناهج التعليم،

(٤) عبد الله بن عبد المحسن التركي، مرجع سابق، ص ٥.

(٥) المرجع السابق، ص ص ١٥-١٦.

وبرامج التوجيه والتثقيف . [٦]

ولو ترجمنا هذا الكلام السابق ترجمة عملية، وقمنا نستعرض مناهج التعليم في بلادنا الإسلامية، أو في بعضها على الأقل، لوجدنا عجبًا حقًا، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع في ثنايا هذا الكتاب، ولكن للتذكرة فقط نضع بعض الحقائق عن أوضاع المناهج في بعض بلادنا « إن خريجي كليات الحقوق في بعض جامعاتنا لا يفهمون كتابًا عربيًا واحداً في المواد التشريعية، لأن خطة الدراسة فيها تخصص عشرين ساعة في الأسبوع للقوانين الأوروبية (الفرنسية في الغالب في حالة مصر) ، بينما تخصص ساعتين اثنتين فقط.. للشريعة الإسلامية (!!) أترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا أو انجلترا.. أكانت تفعل أقل من ذلك ..؟؟!!.

إن إحدى كليات الآداب في عالمنا العربي (في جامعة بغداد في العراق.. تحديداً) تقول خطط الدراسة بها في قسم اللغة العربية بأن هناك مقرراً واحداً بعنوان « البلاغة .. والقرآن .. والحديث » ، وأن مدة هذا المقرر هي أربع ساعات، وهو يدرس في السنة الأولى الجامعية فقط، أي بواقع ساعة وثلث الساعة ، لكل علم من هذه العلوم المهمة جداً ، بل والتي بها فروع لا تكفيها ـ على وجه اليقين ـ أضعاف هذه الساعات الأربع . [٧]

المهم أنها أربع ساعات.. يدرسها الطالب في السنة الأولى.. ثم هو ينساها بعد ذلك على وجه اليقين عند التخرج، أو حتى, قبل ذلك التخرج، لأنه لا يجد لها متابعة في السنوات الثلاث التي تلي ذلك، هذا بينما يدرس لنفس الطالب، في ذات القسم «اللغة الانجليزية» بواقع ثلاث ساعات في السنتين الأولى والثانية، فيصير المجموع ست ساعات للغة المستعمرين البريطانيين التي يحلو لبعضنا أن يسبهم ويلعنهم، وذلك مقابل ساعة وثلث للغة القرآن الكريم، وذلك لمن ..؟؟ لطالب اللغة العربي الذي سيتخرج ليعمل مدرسًا لها..؟؟!!

(٦) المرجع السابق، ص ١٥.

(٧) محمد عبدالعليم مرسي: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

وفي قسم الصحافة، بالكلية ذاتها (آداب جامعة بغداد) والذي سيتولى خريجوه توجيه الرأى العام في مجتمعهم ، أو هكذا يفترض ، لم نجد مقرراً واحداً ذا هوية إسلامية ، مجرد مقرر واحد فقط.. على مدار الأربع سنوات في قسم الصحافة، في بلد إسلامي..؟؟ فهل جاء ذلك مصادفة..؟؟[8] أم أن التغريب كان قد تمكن من نفوس وشخصيات واضعي تلك المقررات ، وأن الغزو الثقافي قد تمكن منهم لدرجة أذهلتهم عن هويتهم الإسلامية التي يدّعون الانتماء إليها.. ؟؟ هل لو كانت جامعة بغداد (عاصمة الرشيد) دعت لجنة من خبراء المناهج الأجانب لوضع الخطة الدراسية لذلك القسم، هل كانوا سيفعلون غير ذلك .. ؟ أعتقد أنهم كانوا سيضعون مقرراً في الإسلام .. من أي نوع، أو في هوية المجتمع المسلم الذي سيتولى خريجوه توجيه الرأي العام فيه، ولو من جانب العلم بالشيئ ، ومحاولة منهم لفهم ـ مجرد فهم ـ ثقافة المجتمع الذي يوجهونه، أو حتى ـ وذلك أضعف الإيمان ـ ذراً للرماد في العيون..!!

عاشراً : معضلة المدارس الأجنبية :

ولا يقتصر الأمر على مجرد خلو خططنا الدراسية، في بعض جامعاتنا، من مقررات الهوية الإسلامية فحسب ، وانما وصل إلى حد السماح بإقامة « مدارس أجنبية » على ترابنا الإسلامي، إن هذه المدارس معاول هدم حقيقية، وهي تعمل في عقول وشخصيات أبنائنا الذين يدخلونها، سواء وعينا ذلك أو غاب عنا.

إنها تعمل على تغريب أجيال كاملة من أبناء الأمة الإسلامية، والمجتمع الذي يسمح بوجود هذه المدارس على أرضه إنما يعطي القائمين عليها سلاحًا من أخطر ما يمكن، ومن أفظع ما نتصور . إنهم يتمكنون ، من خلال مناهجها وبرامجها، من تشكيل عقول الناشئة ، ومن توجيههم الوجهة التي يريدون، حتى وإن كانت ضد مصالح مجتمعهم ، بل وضد عقيدته وأمنه.

---

(٨) المرجع السابق.

ومهما تكن الدعاوي حول السماح لهذه المدارس بأن تعمل على أرض بلادنا الإسلامية فهي بلا شك تنبئ عن ضعف فادح، بل وفاضح من جانبنا ، وعن قوة وتجبر وتسلط من جانب أعدائنا. قوة وسيطرة في التأثير علينا بحيث نوافق على إعطاء هؤلاء الأجانب حق تقرير مصير أطفالنا. وقد يقال إن هذه المدارس أنشئت أصلاً لتعليم أبناء الجاليات الأجنبية الذين يقيمون على أرضنا، ولكن الواقع يقول : إن خطرها قد امتد إلى أبناء المجتمع الأصلي ، الذي هو مجتمعنا الذي سمح بوجودها على أرضه، وأنها بدأت تنشر سمومها وتنفثها بين أبناء المجتمع كله.

إن واحدا من المجتمعات العربية الإسلامية القليلة العدد جداً به أكثر من خمسة وعشرين مدرسة أجنبية ، وقد ارتفعت صيحات المصلحين في ذلك المجتمع ، في عدد غير قليل من صحفه ومجلاته، منبهة إلى خطورة أوضاع تلك المدارس على مستقبل الأبناء ومستقبل الوطن معا. إن نسبة أبناء العرب المسلمين في المدارس الأجنبية بالكويت أعلى من نسبة غيرهم من الأجانب الذين قيل إن تلك المدارس قد أنشئت أصلاً لهم، أو هكذا قيل تبريراً للسماح بافتتاحها ، وقد كتب واحد من أبناء ذلك البلد يحذر قومه من المصير المنتظر، فما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد ما ، أو إقليم ما في الشرق، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس الأجنبية برسليها الدينيين ، ومن تخلق بأخلاقهم، كي يمهدوا السبيل للاستعمار .. الاستعمار الثقافي والفكري، بطبيعة الحال.[8]

ولمن يهوّن من أمر المدارس الأجنبية، أو لمن لا يعي خطرها، نسوق إليه. وبالأرقام - رأي واحد من غلاة الاستعماريين ودعاتهم في الغرب، يقول الجنرال « بيتر كيللر »: في بداية حرب ١٩١٤م (الحرب العالمية الأولى) كان أكثر من ٥٢٠٠٠ (اثنين وخمسين الف تلميذ) يتلقون تعليمهم في مدارسنا في سوريا، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس (لعلنا ننتبه .. !!)

---

(٨) المرجع السابق، ص ٧٧.

تعلن عام ١٩١٧م أن ميول جميع السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلموا لغتها، وخبروها - أي خبروا ثقافتها - على مر الأجيال.[٩]

ألم نقل في بداية هذا البحث إن احتلال مساحات في العقول والأفهام أخطر من احتلال مساحات من الأرض يهب أصحابها للدفاع عنها ضد من تجرأ واستعمرها..؟؟

إن احتلال العقول والأفهام يحوّل طائفة أو طوائف من أبناء المجتمع من الدفاع عن وطنهم ومواطنيهم، وعن شرف الأمة وكرامتها وتاريخها وتراثها ومستقبلها إلى الدفاع عن المستعمر وعن مصالحه، وليس بعد ذلك من كارثة، والفضل في ذلك - إن صلح التعبير في هذا الموضوع - للغزو الثقافي والفكري الذي حوّل هذه الطائفة، أو الطوائف من أبناء الأمة من صفوف إخوانهم وأشقائهم إلى صفوف أعدائهم.

ولعل التوقف عند حالة مصر ، خاصة وأن مصر بالتحديد كانت دومًا مفتاح الدول العربية، كما كانت تجربتها في التعليم الحديث هي التجربة الرائدة في العالم العربي، وقد نقلت بكاملها - أو كادت - إلى دول الخليج العربية.

إن « محمد علي باشا » الذي تولى حكم مصر بمساعدة مشايخ الأزهر وعلمائه، عاد فانقلب عليهم وضايقهم وضيّق عليهم، بل وضايق الأزهر ذاته وضيق عليه، ولم يكن عجيبًا بعد ذلك أن ينحو خلفاؤه منحاه من بعده، وأن يوسعوا على المدارس الأجنبية، بل وأن يمنحوها كل ما تريد وأكثر.. أرضًا.. ومالاً .. وصلاحيات.. واستثناءات، ولنقرأ كيف كان يدار بلد إسلامي من أكبر بلاد المسلمين، لحساب النصارى من كل بلد أوروبي أراد أن يكون له موطأ قدم في أرض الكنانة، فحصلوا على امتيازات لا يمكن للعقل أن يصدقها بسهولة، إلا أن يكون الذين منحوها قد فقدوا عقولهم (!!!) وكأن هذا البلد - مصر - كانت بلا أصحاب ، وبلا أهل ، ولا عجب ، فلم يكن حكامها - آنذاك - من أبنائها

(٩) عبدالستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، (ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤هـ، ص ١٩٩.

فعلاً، ولا كان يعنيهم أمرها ولا أمر أهلها بالتالي، حيث أعطى « سعيد باشا » راهبات الراعي الصالح آلاف الفرنكات، وآلاف الجنيهات للمدرسة الإيطالية، كما وهب (!!) للمدرسة الأخيرة ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف ذراع) من الأرض في أحسن جهات الإسكندرية.(١٠)

وكذلك منح (!!) « اسماعيل باشا » راهبات الإحسان ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع) من الأرض ، لبناء مدرسة عليها في الإسكندرية، ومقادير هائلة من القمح.. سنويًا (!!!) وأيضًا فعل نفس الشيئ للراهبات اليسوعيات، ومدرسة الأوروبيين في ميناء بورسعيد ، والمدرسة اليونانية والعازاريين والفرير بالإسكندرية، كذلك منح الإرسالية الأمريكية أرضًا بالقرب من فندق « شبرد » القاهرة ، ليقيموا عليها مركزاً ، بالإضافة إلى هبة مالية (تصوروا.. نحن في مصر .. نمنح الأمريكيين .. هبة مالية.. !!!) مقدارها ٧٠٠٠ (سبعة ألاف) من الجنيهات الذهبية.. للبناء ، كما كان يطلب من الجهات الإدارية والمحلية المصرية مد يد المساعدة للقائمين على أمر هذه المدارس الأجنبية ..!!(١١)

ولعلنا هنا لا ننسى مقولة د. عبدالله التركي من أن الأمر المذهل في أمر الغزو الثقافي هو أن المغزو .. أي المعتدي عليه.. هو الذي يستدعي الغازي إلى دياره ، وأكثر من ذلك أنه هو الذي يدفع له ثمن مجيئه ، وثمن بقائه على أرضه و من ثم تخريبه عقول وشخصيات أبنائنا وناشئتنا ، أليس هذا من نكد الدهر أن يكون بيننا حكام من هذا النوع.. ؟؟

ثم لعلنا نتابع الإيقاع السريع لإنشاء المدارس الأجنبية في مصر ، لنرى ذلك الحمى الذي استباحه الأجانب ببشاعة وإجرام، في بلد الأزهر الذي قاوم الغزاة الفرنسيين، والبلد ـ كذلك ـ الذي ترتفع فيه المآذن بالآلاف ، ولكن .. وحتى نكون منصفين.. هل كان الخطأ ـ في هذا الوضع ـ خطأ الأجانب.. ؟؟!!

(١٠) سعد مرسي أحمد ، سعيد اسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم ، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ص ٢٩٦-٢٩٧.

(١١) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

- في عام ١٨٧٦م تأسست إرسالية راهبات الرسول Notre Dan Das Sportres كما أسست مدرسة لها في طنطا عام ١٨٨١م.
- في عام ١٨٨٠م أسست مدرسة بواسطة إرسالية راهبات المير دي ديو La Mere De Dieu، وذلك في حي بولاق بالقاهرة، كما قامت الإرسالية نفسها بتأسيس مدرسة في الإسكندرية عام ١٨٨٢م.
- أنشئت مدارس الفرير مدرسة Saint Joseph بالقاهرة عام ١٨٥٤م، ومدرسة أخرى بها، وقد أطلق عليها الملحقة، كما أنشأت مدرستين أخريين في الاسكندرية عام ١٨٧٣م، وعام ١٨٨٨م.
- بدأت إرسالية الجزويت بإنشاء مدرسة للبنات بحي المنشية بالإسكندرية عام ١٨٥٦م، ثم أتبعت ذلك بمدرسة للبنين عام ١٨٥٧م، وفي عام ١٨٦٧م توجت الإرسالية عملها بإنشاء الكنيسة بالإسكندرية في ميدان إسماعيل.
- في عام ١٨٥٥م افتتحت الجالية اليونانية مدرسة بالإسكندرية ، وفي عام ١٨٦٠م افتتحت مدرسة أخرى تضم قسمين للبنين والبنات.
- وفي عام ١٨٥٤م أنشأت الجالية الأرمينية مدرسة بجوار كنيسة السيدة العذراء بالقاهرة.
- وفي نفس الفترة أنشئت مدرسة تابعة للجالية الألمانية.
- وفي نفس الفترة أنشئت مدرسة تابعة للجالية الإيطالية. (١٢)

إن كل ذلك النشاط النصراني المحموم جرى لتغريب المجتمع المصري المسلم الذي سبق وأن هزم الحملة الصليبية ، بقيادة « لويس التاسع » ، ملك فرنسا، وقد أذلوه ومعه جنوده وضباطه، فكأنهم جاءوا ينتقمون، خاصة وقد وجدوا من يعطيهم امتيازات ما كانوا ليحصلوا عليها في أي مكان آخر بهذا

---

(١٢) المرجع السابق، ص ص ٢٩٩-٣٠٠.

الكرم (السفيه) ، خاصة حين نعلم أنه كان من بين هذه الامتيازات ـ بخلاف الأرضى والأموال والمعونات والهبات ـ أن يعفي الطلاب المصريون الذين يذهبون إلى مدارس الإرساليات (النصرانية طبعًا) من الجندية (!!!) ، أو من الاشتغال بإقامة السكك الحديدية. والطرق العامة، كما كانت هذه المدارس مستقلة تمامًا عن ديوان المدارس ، أو نظارة المعارف ، كما كان يطلق عليها آنذاك. [(١٣)]

وقبل أن نترك هذا الجانب الخطير ، جانب المدارس الأجنبية ، من جوانب الغزو الثقافي ، لعلنا نورد للقارئ بعض الملاحظات التي نعتقد في أهميتها وهي كما يلي :

١- في غمرة الحماس الغبي، من جانب حكام مصر آنذاك، لمنح الدول الأوروبية كل ما قرأناه، كانت انجلترا تعد العدة لغزو مصر عسكريا واحتلالها، وإذلال شعبها ، أي أن كل ما قدم لها ولمؤسساتها الكنسية لم يغن عنها، ولم يشفع لها، ولا ندري كيف كان يفكر الحكام الذين فعلوا ما فعلوا في حق مصر ..؟؟!!

٢- كانت هذه المدارس تدار بعيداً عن أي رقابة من نظارة المعارف المصرية، ومعنى ذلك أنهم في هذه المدارس كانوا يضعون من المناهج ما يشاءون، كما كانوا يدربون الطلاب والطالبات على كل ما يهدفون إليه، ومعروف أن الهدف النهائي لهم كان إخراج فئة معينة من أبناء مصر عن دينها، وتربية أفرادها بعيداً عن قيم ذلك الدين .

٣- الامتيازات التي كانت تمنحها هذه المدارس للملتحقين بها من الطلاب كانت تمثل عزلاً لفئة من أبناء المجتمع عن بقية زملائهم، بحيث كانوا يتربون في أحضان النصارى، ومن ثم يكونون طابوراً خامسًا لهم فيما بعد.

٤- توجت جهود الأوروبيين ـ دائما ـ في مصر بإنشاء الكنائس في أعقاب

---

(١٣) المرجع السباق، ص ٣٠١.

إنشاء المدارس.

٥- النتيجة الحتمية لتربية فئة من أبناء الوطن الواحد في ظل تعليم أجنبي مختلف عن تعليم بقية أبناء ذلك الوطن هي انقسام المجتمع إلى فئتين متصارعتين، إحداهما تحب الوطن وتدافع عنه، وأخرى تشعر بالفضل والمعروف تجاه الأجنبي، حيث هو ولي النعمة وصاحب الفضل ، ومن هنا يعمل أفرادها لصالحه، بل ولصالح العمل على وجوده بالوطن، بل وترسيخ ذلك الوجود، والعمل على استبقائه أطول فترة ممكنة لأن وجودها مرهون ببقائه.

٦- في هذه المدارس الأجنبية ظهرت بدعة الاختلاط بين الفتيان والفتيات، في مراحل التعليم المختلفة، باعتبار أن ذلك كان صيحة حضارية جاءت إلينا من بلاد الغرب.. المتقدم..!! ولقد بدأ هذا الأمر مع أطفالنا الصغار في المدارس، بحيث أصبحوا يشبُّون عليه وكأنه هو الوضع الطبيعي وسواه شاذ ، هو التقدمي ، وما عداه متخلف..!!

وبهذا السلوك المنحرف في مدارسنا نزعنا جانب الرجولة الذي اشتهر به المسلمون الأوائل في تربيتهم لأبنائهم، وأحللنا بدلا منه ألوانا من السلوك الهابط والمنحل، بل والمتخنث أحيانًا في أبنائنا الذين يفترض أنهم سيكونون رجال الغد، كما أننا بهذا السلوك أيضا نزعنا جانب الحياء من فتياتنا، أمهات المستقبل، اللواتي من المفترض أن يحملن الأمانة، وأن ينقلن السلوك السوي الذي أمر به الإسلام إلي أبنائهم وبناتهن.

وعن ظاهرة الاختلاط بين البنين والبنات هذه يقول أحد الغيورين على مستقبل هذه الأمة ، وعلى دينها : « لقد حرص التعليم العلماني على إدخال البنات المسلمات إلى مدارسه ، وساعد على ذلك أن المسلمين لم ينتبهوا إلى فتح معاهد التعليم الديني للبنات المسلمات، بل لقد كان كثير من مدارس البنات في بعض البلاد الإسلامية، بل في دولة الخلافة الإسلامية، تابعة لمؤسسة دينية غير إسلامية(!!) يباشر فيها « المبشرون » تنصير الفتيات المسلمات، وكانت

الخطوة الأخطر هي إحداث الاختلاط بين الطلبة والطالبات داخل الجامعات العلمانية في أكثر البلاد الإسلامية، بل امتد الى الاختلاط في مرحلة الدراسة الابتدائية وأحيانا في المرحلتين الإعدادية والثانوية في فترة المراهقة وثورتها.(١٤)

حادي عشر : المحصلة النهائية :

وهذه هي النقطة قبل الأخيرة في هذه السلسلة من الأفكار حول الغزو الثقافي، وهي تتعلق بمحصلته الخطيرة التي يخرج بها الإنسان المسلم الذي تمكن منه ذلك المرض الخطير، ونقصد به .. الغزو الثقافي.

إن النتيجة المحزنة والمؤلمة في آن واحد هي « التسليم بالأستاذية للحضارة الغربية ، والتسليم بالأستاذية موقف ـ كما يقول التركي ـ ينشئه الذهول عن الرسالة الإسلامية العالمية التي تورث صاحبها أو حاملها الإحساس القوي العميق بأنه أستاذ العالم في العقائد والمبادئ والشرائع والأخلاق، كما ينشئه الخلط بين صحة العقيدة والتفوق المادي ، إذ يظن الظانون بأن المتفوق في الفيزياء متفوق بالضرورة ـ في كل شيئ ، حتى في الاعتقاد.. !!

إن هذا ليس صحيحًا على الإطلاق ، فرجل بسيط عادي في واحة من واحات الجزائر ، يحمل عقيدة التوحيد، يعد .. في ميزان الله عز وجل .. أكمل وأرشد ملايين الدرجات من جراح كبير لامع غير مسلم، يعيش في عاصمة دولة كبرى.(١٥)

ثاني عشر : كنا نتنادى :

منذ أيام الغزو العسكري المسلح، وحتى عهد قريب، كنا نتنادى فيما بيننا ويستعين بعضنا ببعض كي نواجهه، وكي نقضي على مخاطره، وفي أكثر من بلد من بلاد عالمنا الإسلامي استطعنا أن نحاصر نيرانه، وأن نقضي عليها،

---

(١٤) علي جريشة: مرجع سابق، ص ص ٣١٠-٣١١.

(١٥) عبدالله بن عبدالمحسن التركي: تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ص ١٥-١٦.

بفعل تكاتفنا وتناصرنا ووقوفنا مع بعضنا البعض ضده وضد كل ما يمثله.

هكذا فعلنا في الجزائر عندما اندلعت ثورتها ضد المستعمرين الفرنسيين ، في بداية الخمسينيات من هذا القرن، وللعلم فإن ثورات الجزائريين ضد الغزاة البغاة لم تتوقف منذ بداية الاحتلال في عام ١٨٣٢م، ولكن ثورته الأخيرة هذه هي التي استمرت بلا توقف، وبلا انقطاع ، حتى أرغمت فرنسا على الخروج من الجزائر مرغمة صاغرة ذليلة ، تجرجر أذيال العار والهزيمة . حقيقة دفع الشعب الجزائري المسلم أكثر من مليون شهيد، ولكنه نال استقلاله وحريته، وخلال هذه الثورة الأخيرة تلقى المعونات من إخوانه العرب والمسلمين، من كل مكان، وخاصة من مصر التي دفعت إليه بكميات هائلة من السلاح، ولم تبخل على أبنائه بالتدريب العسكري المكثف الذي مكنهم من النيل من جنود فرنسا وضباطها، فأسالوا دماءهم، وطالوا أرواح عشرات الألوف منهم، ولما لم تستطع فرنسا تحمل ذلك قررت الرحيل عن الجزائر بعد أن كانت تعتبر ذلك من رابع المستحيلات، بل وكانت تصر على أن التراب الجزائري الخصب هو امتداد للتراب الفرنسي، وأن الخطأ كان خطأ البحر المتوسط الذي فصل بينهما (!!!)، هكذا قال السياسيون الفرنسيون ، ومن بينهم الجنرال « شارل ديجول » نفسه ، ولكن عزة المسلمين، وبيعهم أنفسهم لله فرض عليهم أن ينصاعوا للحق مرغمين، بعد أن تنزل نصر الله على المؤمنين المجاهدين الصابرين.

وفي أفغانستان حدث الشيئ نفسه حينما اجتاحت القوات الشيوعية الملحدة الكافرة حدود ذلك البلد المسلم، بعد أن تأكد لقياداتهم أن الحكومة الشيوعية العميلة التي نصبوها على كراسي الحكم في العاصمة « كابول » لن تصمد أمام ضربات المجاهدين المسلمين الذين توافدوا من جميع أنحاء أفغانستان يبغون إزالة رجسهم ودنسهم حتى لا ينحرفوا بدفة مجتمعهم ضد دينه وعقيدته، ومن هنا لم تتردد « موسكو » في إصدار الأوامر لقواتها كي تجتاح حدود أفغانستان المسلم، وكي تقضي على القوات الإسلامية التي كانت قد بدأت تحيط بعاصمة بلادهم، وبدا - آنذاك - أن سقوطها في أيديهم قد أصبح وشيكًا.

وكشّر الدب السوفييتي الباغي عن أنيابه، ولم يخف أطماعه ، ودفع على الفور بأكثر من مائة ألف من قواته المدججة بأعتى أنواع الأسلحة التي عرفتها البشرية ، واجتاحت هذه القوات الحدود الأفغانية المسلمة ، تقتل وتدمر، وتخرب وتحرق ، وتمارس ألوانا من العنف والإرهاب ضد المجتمع المسلم في أفغانستان ، في كل شبر من أرضه، حتى في القرى الآمنة المسكينة، البعيدة عن الصراع والقتال حرقتها الدبابات والطائرات ، بل ومورست فيها أنواع من القتل والحرق الجماعي للبشر بصورة لم تعرفها البشرية حتى ولا على أيدي التتار والمغول، وذلك انتقامًا من تأييد أهلها للمجاهدين المسلمين من جانب وتخويفًا للآخرين حتى لا يمدوا لهم يد العون والمساعدة من جانب آخر.

وأمام هذه الموجات الإجرامية من العنف والرعب والإرهاب هجّرت ملايين كثيرة من الأفغان ، خاصة من كبار السن والنساء والأطفال ، ولكن من ناحية أخرى بقي الشباب الذين هم في سن القتال، وجاءهم المدد من إخوة لهم، باتساع العالم الإسلامي توافدوا عليهم ينصرونهم ويؤيدونهم ويشدون من أزرهم.. بالمال والسلاح والذخيرة، وأكثر من ذلك بالأرواح والمهج، مثبتين بذلك وحدة الأمة الإسلامية وقوة عقيدتها، خاصة حين يعتدي عليها الكفار والمشركون، ولقد جاء المدد من كل حدب وصوب من بلاد العالم الإسلامي، من المجتمع المسلم في شبه الجزيرة العربية وخاصة من المملكة العربية السعودية، ومن الكويت وغيرهما، ومن مصر والجزائر والمغرب، وبطبيعة الحال من باكستان التي تحملت عبء الهجرة على الحدود ، بل وقاست بشاعة الانتقام الروسي حين أرادت موسكو أن تضغط عليهم ، أي على الباكستانيين، حتى يوقفوا تأييدهم للمجاهدين، وكان ذلك على شكل غارات بالطيران الروسي على حدوود أفغانستان نشرت الرعب والفزع، وقتلت الكثيرين من أبناء الشعبين الباكستاني والأفغاني، كما زرعت آلاف القنابل الموقوتة والألغام على الحدود.

ورغم كل ذلك ما توقف الجميع عن القتال، ولا عن التضحية والفداء يوما بعد آخر، على مدار سنوات طوال ، حتى أذن الله بالنصر للمسلمين، وفرضوا على الشيوعيين المتبجحين أن يخرجوا أذلة من أفغانستان وهم

صاغرون، وعلت كلمة الحق في أرجاء ذلك المجتمع المؤمن تدعو إلى الله، بعد أن توحد من خلف أفغانستان عدد كبير من دول العالم الإسلامي، وما كان لها أن تتوحد لولا الهجوم العسكري الشيوعي الباغي على مجتمع المسلمين هنـــاك.(*)

هذان مثلان حيان من واقع حياة المسلمين المعاصرة، سقتهما كي يبينا تنادي المسلمين وتوحدهم أمام قضية العدوان المسلح على أراضي بعضهم، فهو إذن - الغزو المسلح - يحفز المسلمين للوقوف في وجهه، وللدفاع ضد عناصره، ولكن « الغزو الثقافي » الذي يتسلل إلى بلادنا وأبنائنا لا يستثير فينا شيئا من هذا، لأنه ينساح في نفوسنا وشخصياتنا بهدوء الأفاعي، وتدخل سمومه في دمائنا دون أن يتضح ذلك للكثيرين منا، ولا نشعر به ، أو بخطره ، حتى نفاجأ بالضحايا من بيننا وقد سقطوا صرعى أمام أعيننا دون أن نستطيع الوقوف معهم، أو علاجهم ، لأنه يكون حينئذ قد وصل الى النخاع في أجسامهم، والعياذ بالله، وحينئذ يعز العلاج ، ويعز الإنقاذ، وهذا هو مكمن الخطر في هذا « الغزو الثقافي ».. الكارثة.

(*) محمد عبدالعليم مرسي: أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.

الفصل العاشر

التربية .. والثقافة

الفصل العاشر

التربية.. والثقافة

مدخل :

أصبح من المسلم به لدى علماء التربية، وكما سبق القول ، أن التربية عنصر مهم من عناصر الحياة ، بل إنها أهم عنصر في تلك الحياة ، بل إن بعض علماء التربية ذوي الشهرة الواسعة، أمثال « جون ديوي » الفيلسوف التربوي الكبير، وصاحب الفكر التربوي الواسع والعريض، والذي تشكلت أجيال من أبناء الأمة الأمريكية على أساس أفكاره التربوية النيِّرة، بل والذي استدعته اليابان في فترة نهضتها كي تستفيد من نظرياته وخبراته، هذا المفكر يقول : «إن التربية هي الحياة ذاتها » ، لأنه لا يمكن الفصل بين وجهي العملة الواحدة، فمعنى وجود الحياة يحمل بالضرورة في ثناياه وجود التربية ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن توجد تربية بدون مجتمع، أو بدون حياة، وقد سبقت الإشارة لأفكار «ديوي» في ثنايا الفصل الذي كتب عن التربية في هذا الكتاب، ولقد سار عدد من فلاسفة التربية على منهاج «ديوي» فكتب «جولد ستين Goldstein » مبينًا أن التربية تدخل في صميم نسيج المجتمع Its Fiber، فهي ليست لونًا خارجيًا يطلي به المجتمع، ولكنها جزء منه لا يمكن عزلها عنه، كما لا يمكن فصله وإبعاده عنها.[1]

ولقد صدق من كتب إن « التربية مخ الحضارة ، قل أو قلبها، وهي مخ حياتنا، وأضف أعماق قلبها.. إن التربية إذا صلحت صلحت أمور حياتنا كلها.. ومن الحق أن نقولها، ومن الواجب ألا ننطلق لحل مشاكلنا إلا ونحن تحت رايتها، فبها تنصلح كل أمورنا ، ودون أي اتهام بالمبالغة، في البيت، وفي المدرسة، في الشارع، وفي المؤسسة، في الملعب .. كما في المصنع، في أمورنا

(١) Willim Goldstein: Controversial Issues in Our Schools, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Ind., 1980, p.7.

الداخلية، وعلى الأطراف عند الحدود، في السلم، كما في الحرب.

التربية تصلح كل ما نشكو منه، أو نعتذر عنه، أو نخجل من إبدائه، أو نود بناءه فلا نقدر عليه. تقدم لنا حكمة « الماضي » ، وتعالج مدى ثقتنا في « الحاضر » ، كما أنها تهدئ مخاوفنا التي تؤرقنا عن « المستقبل » .
التربية .. باختصار .. معناها غرس الثقة، واستمرار القدرة، والتأكد من اليقين بالنجاح والانتصار ». (٢)

ورغم ما في الأسلوب السابق من نبرية شعرية إلا أن الألفاظ عبرت بالفعل عن فهم عميق للتربية، واستنتاج سليم لوظيفتها في المجتمع الذي تعمل فيه وله، ولو أن مؤسساتنا التربوية وعت هذه الأبعاد ـ فعلاً ـ في تربيتها، ونفذتها في عملياتها لاختلفت صور الحياة على أرضنا، كما حدث من قبل حين كنا متقدمين، وكانت الحضارة الإسلامية حضارة رائعة، وحين كان الإنسان المسلم خريج « مدرسة الإسلام العظمى » يمثل القدوة والنموذج للبشر.. في إيمانه ويقينه ، في علمه وعمله، في أخلاقياته وتعاملاته مع أفراد مجتمعه من المسلمين، بل ومع غير المسلمين كذلك.

إذا كانت هذه هي التربية في أهميتها وخطورتها.. بالنسبة للفرد وكذا بالنسبة للمجتمع، بالنسب للفرد في طفولته ورعايته وتنشئته، بل وحتى بالنسبة لهذا الطفل قبل مولده، بل وحتى قبل أن تحمل أمة فيه، بل ـ وأكثر من ذلك ـ قبل أن يتزوجها أبوه، حيث علمنا المربي الأعظم والأسمى ﷺ بأن نتخير لنطفنا لأن العرق دساس، فكان بهذا أول من نبه بني الإنسان وعلمهم أن الصفات البشرية تنتقل وتتوارث من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى آخر، ولا أظنه ﷺ كان يقصد الصفات الجنسية الظاهرة والواضحة التي يتحدث عنها علماء الأجناس والسلالا البشرية في كتب الجغرافيا البشرية لأن الله ـ جل وعلا ـ لا ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، كما جاء في الأثر ، وإنما كان ﷺ يعني الاهتمام

(٢) محمد الأحمد الرشيد : احفظوا آية واحدة وطبقوها.. احفظوا حديثا واحداً وطبقوه، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، العدد ٨، السنة الخامسة، الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، من كلمة العدد.

بالبيئة التربوية التي نشأت فيها الفتاة.. أم المستقبل، وبالخلية الأولى للمجتمع.. أي الأسرة ، الأسرة التي يختار الإنسان منها شريكة حياته، ومن ثم الأسرة التي هي في علم الغيب، والتي ستتكون فيما بعد بإذن الله.

وحول هذا المعنى يقول « سويد » : « إن خير ما تنكح عليه المرأة دينها وصلاحها وتقواها وإنابتها إلى ربها تعالى ، مثل هذه تقر بها العين، وتؤتمن على نفسها ومال زوجها ، وتربية أبنائهما ، كي تغذيهم بالإيمان مع الطعام، وكي تصب فيهم أحسن المبادئ مع اللبن، وكي تسمعهم من ذكر الله تعالى، ومن الصلاة على نبيه ﷺ ما يشربهم التقوى، وما يركز فيهم حب الإسلام إلى أن يموتوا ، والمرء يشيب على ما شب عليه، وإن صفات الوالدين لتنحدر إلى الأولاد.»[٣]

ويمضي الكاتب السابق موضحا رأيه قائلا : (وكثيراً ما تظهر ملكة التقوى في الولد تبعًا لأبويه، أو لأحدهما ، أو للعم أو للخال . وقد ورد الإرشاد النبوي منبهًا إلى هذا فيما رواه « ابن عدي » و « ابن عساكر » عن « عائشة » رضي الله عنها عن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن »).[٤]

ويخرج الطفل إلى الحياة ـ في المجتمع المسلم الحق ـ فتتلقفه التربية الإسلامية الرائعة المأخوذة عن خير معلم أرسل لهداية البشرية ﷺ فتتعامل مع كل جوارحه منذ اللحظة الأولى من ميلاده ، فيؤذن في أذنه اليمنى ، ويسمع إقامة الصلاة في اليسرى، وفي ذلك رمز حسي ملموس للمهمة التي جاء من أجلها إلى الوجود ، ألا وهي عبادة الله .. سبحانه وتعالى ، وتلبية النداء لتلك العبادة ، وقد فعل الرسول ﷺ ، ذلك للحسن بن علي ، رضى الله عنه.[٥]

---

(٣) محمد نور سويد : منهج التربية النبوية للطفل، مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ص ٢٩ -٣٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) عبدالمجيد صالح : حقوق الطفل المسلم بين الشريعة والقانون، ضمن بحوث ندوة ثقافة الطفل المسلم، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ، البحرين، ١٩٩٠م، ص ١٣.

ويسري اهتمام التربية الإسلامية العظيمة والرائعة بلبنة المجتمع الأولى، ألا وهي الطفل، فتهتم به بعد ذلك ، اعتباراً من تسميته باسم طيب يعتز به ويستريح عندما ينادي به، ومروراً بحقه في النسب والملاطفة والمداعبة ، والرضاعة الطبيعية، وصولاً إلى حقه في التعليم وحسن التربية والتوجيه، منذ نعومة أظفاره.

إن توجيه الطفل يبدأ منذ نعومة أظافره، فلا مجال للأب أن يسوف أو يؤخر ساعة التعليم إلى أن يكبر الولد، ومن هذا المنطلق المهم جاءت السنة النبوية المطهرة بالتوجيهات للآباء بأن يلتفتوا إلى أبنائهم، وأن يحسنوا تعليمهم وتأديبهم، فقد روى عن رسول الله ﷺ قال : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع ». كما قال أيضا : « ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن » .(رواه الترمذي).[٦]

ويستمر الاهتمام بلبنات المجتمع، ونعني بهم الأطفال الصغار ، ويزداد ذلك الاهتمام حين تتدخل المجتمعات بثقلها في هذا الأمر ، ولا تترك التنشئة في يد الأسرة فقط، حيث أنشأت المدارس التي وثقت فيها ، وعهدت إليها بأمر تنشئة الأطفال والشباب الصغار وتربيتهم، بالإضافة إلى مؤسسات أخرى بجوار المدارس، مثل وسائل الإعلام المختلفة، والأندية والمكتبات وغيرها.

وإذا كانت التربية مهمة ، بهذا الشكل ، بالنسبة للمجتمع على أساس أنها عملية مرادفة للحياة التي تجري داخل ذلك المجتمع، وعلى أساس طبيعة عملها في تشكيل شخصيات أفراده، وبناء مقومات تلك الشخصيات في نطاق الأطر الدينية والقيمية التي وضعها ذلك المجتمع لنفسه، وضمن المعايير التي ارتضاها العقلاء والحكماء في ذلك المجتمع، بحيث يخرجون الأجيال الناشئة على أساسها، حتى يكون التفاعل بين أفراد ذلك المجتمع، وكذا بين جماعاته سهلاً هينًا لينًا، يبتعد عن الصراعات والاحتكاكات.

---

(٦) عدنان صالح باحارث: مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ٨٢.

إذا كان الأمر كذلك فإن وظيفة مهمة من وظائف التربية هي أن تعد الأفراد للحياة داخل المجتمع، بحيث يعرف كل منهم حدود أدواره التي عليه أن يلعبها، وبحيث يعرف ـ في الوقت نفسه ـ حدود أدوار الآخرين.

كذلك فإن التربية تعتبر قوة متحركة (ديناميكية) تدفع بالمجتمع دومًا إلى الأمام، وتعمل على تغييره وتشكيل المؤسسات العاملة فيه، كما أنها في الوقت نفسه تعكس حركة القوى الاجتماعية الأخرى المؤثرة والعاملة في المجتمع..

إذا كانت هذه هي أهمية التربية ، أو بعض أهميتها، وإذا كانت هذه هي خطورة التربية، وما يمكن أن تقوم به في حياة المجتمع، أو بعض خطورتها، فما علاقتها بالثقافة داخل المجتمع.. ؟؟

إن الإجابة على هذا السؤال سوف تكون محور الحديث خلال صفحات هذا الفصل إن شاء الله، خاصة إذا أبقينا في أذهاننا أن المجتمعات الواعية هي التي تلجأ دومًا إلى التربية تستلهمها الحلول الناجعة لمشكلاتها، وهي التي تعتصم بتلك التربية عند حدوث الطوفان وعند الأزمات والكوارث والمشكلات وما خاب سعي أمة لجأت إلى التربية.. والتاريخ الإنساني مليئ بالأمثلة لمن أراد أن يعتبر.

العلاقة بين التربية والثقافة :

لو حاولنا في عودة سريعة، أن نتذكر بعض الأمور التي أوردناها سابقًا عن الثقافة في أحد فصول هذا الكتاب ، لأمكننا أن نربط بينها وبين التربية في يسر وسهولة، إن شاء الله ، وهذه الأمور المتعلقة بالثقافة تتمثل في النقاط التالية :

* إن الفرد زائل وعمره قصير، بينما المجتمع أطول عمراً وأبقى، وأن الثقافة تستمر مع المجتمع ما بقيت الحياة تدب على أرضه، وهذه الثقافة هي آخر ما ينتزع منهما معا.. أي من الفرد ومن المجتمع.

* إن التربية هي الوسيلة الأساسية لاكتساب الثقافة داخل المجتمع وهي كذلك ـ الوسيلة المعينة على تمثل الثقافة وهضمها.. وكذا هي سبب الحفاظ عليها واستمرارها.

* بما أن الثقافة ديناميكية متحركة فإن التربية ينبغي أن تكون كذلك.

* إن الثقافة لا تقتصر على طائفة من طوائف المجتمع، كما أنها ليست حكراً على جماعة من جماعاته، وهكذا ينبغي أن تكون التربية، خاصة إذا فهمناها في معناها الشامل الذي تضطلع بمسؤولياته مؤسسات المجتمع المهتمة بالتربية والتنشئة الاجتماعية.

* الجانب الروحي في الثقافة الإسلامية هو الأساس ، والتربية ـ في المجتمع المسلم ـ مطالبة بالتركيز عليه ، بل وبالبدء به ، فهو أصل البناء وركيزته الأولى، وينبغي أن تكون التربية هي أحجار الزوايا في كل ركن من أركان البناء، بناء الفرد.. وبناء المجتمع.

* القيم الإسلامية مطلب رئيسي ينبغي التركيز عليه في البناء التربوي للمجتمع المسلم، وهي كثيرة ومتنوعة ، فمن الوفاء بالعهد، إلى التحلي بالصبر ، ومن احترام الكبير، إلى العطف على الصغير ، ومن طاعة الوالدين والإحسان إليهما، إلى العناية بالأسرة والإخلاص لها ، ومن رعاية الجار والصديق، إلى الاهتمام بمجتمع المسلمين عامة.. إلخ.

* الثقافة تنمو وتتراكم داخل المجتمع، بحكم خبرات الحياة فيه، وبحكم احتكاكاته، على مر السنين، مع ظروف الحياة، ومع تعدد أنواع المناشط فيه، وكذا بحكم تعاملاته مع غيره من المجتمعات.. أفراداً وجماعات، والتربية ذات دور أساسي في حسن الانتقاء وجودة الاختيار من بين كم الخبرات الهائل والمتراكم دومًا، كي تقدمها للناشئة من أبناء المجتمع.

الربط المحدود والقاصر بين الثقافة والتربية :

هذا، ولقد حاول عدد من التربويين أن يربطوا بين الثقافة والتربية، ولكن

ربطهم ، في محصلته النهائية، جاء مركزاً على العلاقة بين الثقافة والتربية.. كما تمثلها المدرسة فقط، واقتصر هذا الربط على ما ينبغي أن تقوم به المدرسة تجاه الثقافة بمكوناتها الثلاثة : العموميات والخصوصيات والمتغيرات، وكيف أن التربية (المدرسة) ينبغي أن تؤكد على «العموميات»، وأن تعمل على شيوعها بين أبناء المجتمع الواحد بحيث تعمل على تماسك البناء الاجتماعي وعلى قوة ترابطه وتلاحمه مع بعضه البعض ، بينما يأتي التأكيد على «الخصوصيات » من خلال دورها في إعداد طوائف من أبناء الأمة لتولي مسؤوليات متخصصة يقوم فيها أبناء كل طائفة بسد احتياجات المجتمع من التخصصات المطلوبة، وأخيراً فإن التربية (المدرسة) ينبغي أن يكون لها موقف من « المتغيرات » موقف ناقد واعي ، بحيث تقبل منها ما يتمشى مع فكر الأمة ، ومع توجهاتها، وبالدرجة الأولى مع عقيدتها وقيمها ومثلها العليا، بينما ترفض وتؤكد رفضها لكل « متغيرة » تحسب أنها قد تمس هذه الجوانب المهمة من قريب أو بعيد.

ولنقرأ معًا بعض ما كتبه عدد من التربويين في هذا المجال ، والذي يؤكد المعنى السابق حول العلاقة بين الثقافة والتربية : « إن الثقافة المتكاملة قد أصبحت موضوع التعليم (أي أنها من صميم عمل المدرسة .. ولذا جاء الحديث عن المدرسة وليس عن التربية) في عصرنا الحاضر بغرض تخريج الفرد المتكامل، عقلاً ونفسًا ويداً وجسمًا، وتتدرج هذه الثقافة في مستوياتها ونوعياتها تبعًا لطبيعة المرحلة التي يمر بها المتعلم ، فالمرحلة الإبتدائية تقدم ثقافة عامة أولية لكل الأطفال ، ثم تتعمق نوعًا في المرحلة التعليمية الوسطى (الإعدادية) ، ثم تتعمق أكثر في المرحلة الثانوية، مع وجود نوع من التخصص المتسع في شعب دراسية رئيسية ، ثم تتعمق كثيراً مع التخصص المهني والدقيق في المرحلة الجامعية». (٧)

وهكذا نرى الربط حتى بين مراحل التعليم المختلفة وبين عموميات

---

(٧) محمود قمبر وآخران : دراسات في أصول التربية ، دار الثقافة، الدوحة ، قطر ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١٤٣.

الثقافة وخصوصياتها والمتغيرات، مما يؤكد على الفكرة التي سبق وبينّاها ، وهي قصر قضية التربية ـ في التعامل مع الثقافة ـ على ما تقوم به المدرسة، وبيان دور التربية المدرسية في التعامل مع الثقافة بمكوناتها.

إن خطورة هذا التصور ـ في رأينا ـ تكمن في إهمال أدوار المؤسسات التربوية الأخرى الفاعلة في المجتمع كالأسرة، والمسجد، والنادي الأدبي، والنادي الرياضي، والمكتبة العامة، والمكتبة المدرسية.. إلخ، وكذا في إهمال التعامل مع الثقافة بشيئ من العمق والوعي. وهذا التناول في حقيقة الأمر يغمط «التربية» حقها من جانب ، ويسطح التعامل مع « الثقافة » من جانب آخر، وكلاهما.. أي « الثقافة » و « التربية » لا ينبغي التعامل معها بهذه البساطة، ولا بهذا التسطيح ، لخطورة موقعهما من المجتمع، ومن مسيرة الحياة فيه، بل ومن التأثير في حاضره، وكذا في رسم صورة مستقبله.

العلاقة بين الثقافة والتربية بمعنيهما الشاملين الواجبين:

وبالفهم الشامل للثقافة وللتربية يمكننا أن نلخص العلاقة بينهما في النقاط التالية :

أولا : دور المؤسسات التربوية .. جميعها :

حينما نقول : إن « الثقافة » مرادفة للشخصية فإننا ينبغي أن نؤكد على دور مؤسسات المجتمع التربوية كلها (الأسرة ـ المسجد ـ المدرسة ـ وسائل الإعلام الأندية الأدبية والثقافية والرياضية ـ المكتبات العامة ـ بالإضافة إلى كل مؤسسة اجتماعية يمكن أن يكون لها إسهام تربوي من أي نوع) في بناء هذه الشخصية، ومنذ اللحظة الأولى التي يتفتح فيها الطفل على أمور هذه الحياة.

إن الأسرة ، على سبيل المثال ، مطالبة بأن تغرس « ثقافة المجتمع » في شخصية الطفل، بكل ما فيها من قيم أخلاقية ، ومعايير اجتماعية وعادات طيبة، بحيث يعرف ـ منذ بدايات حياته الأولى ـ معنى الحلال والحرام ، ومعنى

الصواب والخطأ، ومعنى ما هو جميل وطيب ونافع ومفيد ، ومعنى ما هو عكس ذلك ، وأن يكون تعريف الطفل بتلك الأمور عن طريق القدوة الحسنة في حياته، وبواسطة خبرات حية محسوسة، وليس عن طريق مجرد الكلام الذي قد لا يؤتي أكله إذا لم تصاحبه مواقف واقعية حية وخبرات عملية ملموسة، يحس بفائدتها في حياته إذا كانت طيبة، وبوقعها المؤلم ومرارتها الفعلية، إذا كانت غير ذلك.

وفي الوقت ذاته الذي تفعل فيه الأسرة ذلك فإن وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة التليفزيون، مطالبة بأن تظهر كل ذلك في برامجها وتمثيلياتها، بحيث لا يتعارض ما يذاع وما يبث مع ما تقوم به الأسرة ، تجنبا لنشوء أنواع من التعارض والصراعات التي قد تنشأ بين ما تقدمه المؤسستان التربويتان، نتيجة اختلاف «الرسالة» التي يود كل منهما أن يوصلها للأجيال الناشئة أو الصاعدة من أبناء المجتمع، والتي هي رصيد الأمة، أي أمة، في حياتها المستقبلة.(*)

إن غرس بذور الثقافة.. ثقافة المجتمع في نفسيات وشخصيات وعقول وأرواح الناشئة ، تبدأ من هنا، نقصد من بدايات مرحلة الطفولة، ويستمر الغرس، وتستمر العناية مع الفرد طوال مراحل عمره، ولكن مرحلتي الطفولة والمراهقة المبكرة تعتبران من أحرج المراحل في حياة الكائن البشري، وببساطة شديدة لأن الطفل والمراهق الصغير يكونان في مرحلة التلقي غير الناضج وغير الواعي، ومن هنا تأتي خطورة ما يلقى في نفوس أصحابها من بذور ، ومن هنا - كذلك - تأتي مسؤولية القائمين على أمر التربية فيهما، حيث يتم وضع اللبنات الأولى في بناء الشخصية في هذه المراحل.

ونموذج نبينا محمد ﷺ في تعامله مع الأطفال، وفي تربيته لهم، وفي توجيه المسلمين لتلك التربية ينبغي أن يكون النموذج الذي نقتدي به نحن التربويين ، والذي ينبغي أن نقدمه لكل مؤسسات المجتمع المهتمة بأمر تربية

(*) يمكن .. لمن أراد مراجعة كتاب « التليفزيون وتربية الأطفال» ، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ومن ترجمة المؤلف.

الناشئة، وعلى رأسها الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام، نقدمه للمسؤولين فيها جميعًا كي يضعوه أمام ناظريهم، وهم يحاولون بناء شخصيات الأطفال والمراهقين.

نماذج تربوية من حياة الرسول ﷺ :

إن الطفل يحتاج ، من أجل نمو شخصيته نمواً متكاملاً متناسقًا ، إلى الفهم ، وقد كان الرسول ﷺ أقرب ما يكون.. وأحب ما يكون إلى قلوب الأطفال والمراهقين الصغار لدرجة أنهم كانوا أسرع من حوله من أهله استقبالاً له عند عوته من أسفاره، كما يقول « عباس العقاد » رحمه الله ، والأطفال لا يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يشعرون أن صاحب الرسالة ﷺ كان يتفهمهم، ويشعر بهم، ويعرف كذلك مطالبهم، بل ويستجيب لحاجاتهم، وبألفاظه يقول العقاد : «كان ﷺ أرحم الناس بالصبيان والعيال ، وأنه كان إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته ».(٨)

والمتمعن في العبارة التي أوردها «العقاد» رحمه الله، وهو المعروف بانتقائه للألفاظ واختياره للعبارات، يفهم أن الصبيان والأطفال، من أهل بيت النبي ﷺ كانوا هم الذين يهرعون إليه عند عودته من أسفاره، ومعروف أن الأطفال في سنهم الباكرة يعيشون ويتصرفون على الفطرة ، وأنهم يسلكون بطبيعتهم.. دون تصنع أو افتعال، ومن هنا فإن اندفاعهم نحو الحبيب الغائب.. العائد من السفر، وهو القريب من نفوسهم، يبين ويوضح مدى عمق الصلة التي كانت تربطهم به، وتقربهم إليه، وتقربه هو ﷺ إليهم، وكل ذلك رغم مشاغله الهائلة في أمور الدعوة والتبليغ، وفي رعاية شؤون المسلمين، لأن كل ذلك ما كان يصرفه عن متابعتهم ومداعبتهم ورعايتهم، بل والسؤال عن أحوالهم، وما يشغل بالهم، حتى إنه «كان يواسي في موت طائر (!!!) يلهو به أخو خادمه..!!».(٩)

---

(٨) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد ، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٢٥.

(٩) المرجع السابق، ص ١٢٣.

وبالنسبة للشباب الصغار فإن تنمية شخصياتهم ينبغي أن يركز عليها من خلال التربية السليمة التي تركز على مطالبهم ، في إطار قيم المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، وهؤلاء الشباب ينبغي أن يركز في تربيتهم على « المثل » وعلى « النموذج» . وليس هناك أروع ولا أعظم من النموذج الذي كان يمثله رسول الله ﷺ بالنسبة لأصحابه، من خلال تعامله مع الشباب منهم ، وكيف كان يعاملهم، ويثق فيهم وفي قدراتهم، بل وكيف كان يوليهم أعظم المسؤوليات بالنسبة لنشر الدعوة ، في السلم والحرب.

إن مناهج مدارسنا ، وبرامج ومسلسلات وسائل إعلامنا ، وكذا خطب الأئمة في مساجدنا، ولقاءات علمائنا ومفكرينا وأدبائنا في نوادينا، ينبغي أن تركز على إظهار هذه النماذج الشابة التي ربيت في أحضان الدعوة الإسلامية، على يد خير من علّم وربى، بل وأشرف ووجه مجتمعا بأكمله، ﷺ ، وكان من نتيجة هذه التربية المحمدية الرائعة أن خرّجت للعالم أمة ـ لم يظهر لها مثيل في تاريخ الأمم والشعوب، ويكفي أن أتاها الثناء من ربها، جل وعلا، من فوق سبع سموات :« كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وصدق الله العظيم. (آل عمران/ ١١٠).

إن شبابنا ينبغي أن تنمى شخصياتهم في ضوء شخصيات الشباب المسلم الذي كان دعامة هائلة من دعامات الإسلام الأولى، ورسم هذه الشخصيات من جديد في كل مؤسساتنا التربوية مطلب أساسي لا ينبغي التنازل عنه، أو التفريط فيه، ونماذج الصحابة من الشباب الذين كانوا حول رسول الله

ﷺ كثيرة، وبلا حصر، ولكن يمكن الإشارة إلى بعضهم من أمثال : مصعب بن عمير ، عبدالله بن عمر ، علي بن أبي طالب، معاذ بن جبل، عمار ابن ياسر، زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبدالله بن أبي رواحة، خالد بن الوليد، أسامة بن زيد، وغيرهم كثير كثير .(*)

ثانيًا : التربية والتأكيد على النواحي الروحية والفكرية والعاطفية :

عندما نقول عن « الثقافة » أنها تشتمل على النواحي الروحية والفكرية والعاطفية ، بجانب النواحي المادية ، فإن ذلك ينبغي أن يكون واضحًا لدى مؤسساتنا التربوية كلها، بحيث تؤكد عليه في تربيتها للأطفال وللشباب الصغار ، خاصة وأن موجات المادية التي طغت على كثير من أركان المعمورة بدأت تنساح في بلاد المسلمين بحيث صارت حسابات البنوك، واقتناء الماديات، والإكثار من الشراء، خاصة في دول الوفورات المادية، صارت وكأنها أصبحت هدفًا لذاتها.

إن مطالب اقتناء السيارات، وتغيير موديلاتها كل عام، وهي سيارات من أنواع خاصة ، وموديلات مترفة تدفع فيها كميات هائلة من الأموال ، لشباب صغار لم يعرفوا بعد كيف يقفون على أقدامهم ، لا يخدم بناء شخصياتهم، ولا يقدم للمجتمع شبابا يتحملون المسؤولية، أو يستشعرون معنى العمل ، أو معنى الواجب ، لأنهم سوف يتعودون على المطالبة بما يتصورون أنه حق لهم نشئوا على أساسه، وهذا النمط من الشباب لا يخدم

(*) لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع يمكنه الرجوع لكثير من الكتب التي تناولت صحابة رسول الله ص ومنها:

(١٠) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، دار الفكر، بيروت، (بدون تاريخ).

(١١) عبدالرحمن عميرة : رجال أنزل الله فيهم قرآنا (سلسلة من سبعة أجزاء) ، دار اللواء ، الرياض، ١٣٩٨هـ.

(١٢) أعلام المسلمين (وهي لعدد من المؤلفين، وصدرت عن عدد من الصحابة) ، دار القلم ، دمشق، بيروت.

أمته، ولا يصلح لبناء مجتمعه، ولا حتى لفهم قضاياه، ولن يفهم ـ قطعًا ـ مشكلات ذلك المجتمع.

إن مجتمعًا يخرِّج أنماطًا من الشباب الصغار لا يكون همهم إلا الإنفاق والبذخ والاقتناء والإسراف ، هذا المجتمع يقتله الترف قبل أن يفكر في تحقيق أمانيه في البناء والتنمية والتعمير ،خاصة حينما يكبر هؤلاء الشباب والأطفال، وحينما يتولون مسؤولية العمل في مؤسسات مجتمعهم.

ولقد خبرنا مجتمعات من أغنى وأثرى ما يمكن، ولكن الكبار فيها كانوا واعين لهذا البعد المادي الخطير فلم يتيحوا لأبنائهم أن يغترفوا منه كيفما شاءوا، وإنما دربّوهم على العمل، وربوهم على تقدير قيمة ذلك العمل، منذ الصغر، بحيث أن الشباب الصغار كانوا يعملون في مزرعة من مزارع آبائهم، أو في بعض مصانعهم، مثلهم تمامًا ـ مثل أي عامل صغير، يحضرون في المواعيد منضبطين، وهم كذلك ينصرفون منضبطين، ولا يتقاضون من الأجور إلا مثل ما يتقاضى العامل العادي تمامًا، ولقد حمدت تلك التربية خاصة حينما تولى هؤلاء الأبناء أمر تلك الثروات الهائلة، سواء في حياة آبائهم، أو بعد مماتهم، لأنهم عرفوا كيف يحافظون عليها، وكيف يديرونها بحكمة وحنكة وذكاء.

ومن جانب آخر فإن مؤسساتنا التربوية ،كلها ، مطالبة بأن تغرس في نفوس الناشئة أنه ليس بالمال وحده يحيا الإنسان، وأن هناك النواحي الروحية والفكرية والعاطفية، تلك التي تربط الإنسان بربه ، والتي تربطه ـ بعد ذلك ـ بأفراد مجتمعه من حوله . بل إن المال قد يفرق الناس عن بعضهم، بل وأكثر من ذلك أنه قد يدفعهم للتقاتل والتناحر فيما بينهم، ولكن الحب في الله، والعاطفة الجياشة الصادقة، والمودة الخالصة، والرحمة المتبادلة، والإحساس بالمشاركة ، والتفكير والاهتمام بمشكلات الآخرين، ومحاولة العمل على مساعدتهم في حلها، أو على الأقل إيجاد الطرق والوسائل الكفيلة بحلها.. إلخ كل ذلك يوثق عرى المجتمع ، ويجعل أفراده متحابين متقاربين، وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول: «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم».

ومن هنا فإن المؤسسات التربوية في مجتمعاتنا مطالبة بأن تنهل من هذا النبع العظيم، نبع التربية الإسلامية التي قدَّم لنا فيها سيد الخلق أجمعين محمد بن عبدالله ﷺ ، خير النماذج وأجلها وأروعها. إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين بعث محمداً ﷺ ، لم يرسل معه جبالاً من ذهب، ولا خزائن من مال ، ولا آباراً من بترول، ولا أرصدة بالبلايين، وإنما هو ـ سبحانه وتعالى ـ أرسله ومعه رسالة هي في أول أمرها ومنتهاه « رحمة للعالمين » ، وبنص الآية الكريمة «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ».

ومن هنا كذلك فإن تربيتنا ، لكي تخدم ثقافتنا ، ينبغي أن تركز على هذا البعد المهم، وأن تعطيه حقه، من الأسرة.. في نصائح الوالدين وتوجيهاتهما ، وضربهما الأمثلة الطيبة أمام أولادهما ، إلى المدرسة في مناهجها وبرامجها وخطط تعليمها ، إلى أوجه نشاطها الصفية وغير الصفية، إلى معاملات المعلمين، وكذا أفراد الإدارة المدرسية كلها ، مع أبنائهم الطلاب ، إلى تعاملات الطلاب فيما بينهم ، داخل الصف الدراسي.. وخارجه، في أفنية المدارس ، وفي المخيمات التربوية والمعسكرات وغيرها ، إلى وسائل الإعلام في برامجها وأفلامها وتمثيلياتها ومسلسلاتهاو مقابلاتها وحواراتها مع أهل العلم والفكر والفن والسياسة والقتصاد ، إلى المسجد في خطبه ومواعظه ، ولقاءات المسلمين فيها مع الأئمة ، ومع بعضهم البعض لمناقشة مشكلات المجتمع المحيط بالمسجد ومشكلات الوطن ، بل ومشكلات الأمة الإسلامية عامة.. إلخ.

والأمثلة ، كما سبق القول ، ينبغي أن تؤخذ وأن تضرب من خير مجتمع ظهر على وجه الأرض، والذي يصلح نموذجا حيًا رائعًا يقتدي به، للبشرية جميعًا ، ألا وهو مجتمع الصحابة العظام الذين رباهم خير معلم وأشرف مجتمع أخرج للناس، عليهم رضوان الله أجمعين. إن في قصصهم ومواقفهم، في جميع مناحي الحياة، نماذج رائعة للتربية التي نريدها لمجتمعاتنا الإسلامية ، بل إن هذه النماذج لأكثر من رائعة، ويكفينا أن نشير من بعيد إلى «مجتمع المدينة المنورة»، حين جاءها الرسول ، ﷺ ، والمهاجرون معه، وقد تركوا وراءهم في مكة كل ما كانوا يملكون من متاع الدنيا الزائل، بل إن بعضهم قد ترك كثيراً

من أهله وأحبائه، وآثر أن يفر بدينه حتى لا يفتنه الذين كفروا ، أو يردوه عن الإسلام.

وحين وصلوا إلى إخوانهم في الدين ، في المدينة المنورة حدث شيء لم يقع قبل ذلك في أمة من الأمم ، على مر عصور التاريخ، كما أنه لم يقع بعد ذلك في أي أمة من الأمم، غنية كانت أو فقيرة ، غربية كانت أو شرقية، متقدمة كانت أو متخلفة، فبكلمات قلائل من سيد الخلق أجمعين ﷺ ذابت الفروق بين الجميع ، بين مهاجر وأنصاري ، بين وافد وصاحب دار، بين غني وفقير، بين سيد وعبد، بين أبيض وأسود ، فإذا الجميع إخوة متحابون في الله، يجمعهم رباط العقيدة المقدسة فيذيب كل ما بينهم من فروق.

يطلب منهم المصطفىﷺ أن يتآخوا في الإسلام، فيأخذ كل أنصاري من المدينة مهاجراً من مكة يتقاسم معه كل ما يملك ، حتى إن بعضهم يريد أن يتنازل لأخيه عن أخص خصوصياته. ولعمري إن أقوى القوى في العالم لا يمكنها أن ترغم الإنسان على أن يتنازل عن ممتلكاته لشخص آخر، بل إن روسيا الشيوعية في بداية فرضها للنظام الشيوعي على مجتمعات روسيا اضطرت لضرب ملايين منهم بالرصاص ، بل وأحرقتهم وأحرقت معهم مزارعهم وقراهم حتى يوافقوا على نظام « المزارع الجماعية » التي تشرف عليها الدولة، ولقد قاوموا بكل ما وسعتهم حيلهم حتى إن بعضهم قد سمم الحيوانات، وأحرق المزارع والمحصولات التي كان يمتلكها حتى لا تأخذها منه الدولة عنوة..!!

أما هنا في « المدينة المنورة » ، وحيث المجتمع المؤيد من السماء، والرسول المبتعث رحمة للعالمين، فما كانت إلا كليمات قالها النبي المرسل، والهادي البشير ﷺ، ويقينا فإنه قالها في المسجد ، محور نشاط المسلمين في عهدهم الجديد بعد الهجرة، فإذا كل صحابي أنصاري يخرج من المسجد ، وفي يده صاحب مهاجر يتجه به إلى منزله ، وهو في قمة السعادة أن مكنه الله من أن يكون مضيافا لأخ له في الإسلام، يقوم على حاجته، ويراعي فيه الله ورسوله ﷺ وينفذ أمر السماء ، وتصبح المدينة في اليوم التالي فإذا مجتمعها أفراده قلوبهم ملتفة حول بعضهم، ونفوسهم راضية سعيدة بنعمة الإيمان، وما

كان عجبًا بعد ذلك أن تنزل الآيات القرآنية الرائعة من فوق سبع سماوات تطريهم وتمتدح أفعالهم وأخلاقهم، حيث اختفت « المادة » بكل ما تعنيه من بينهم، وحل محلها الإخاء والحب، والود والصفاء ، وصار الواحد منهم » يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. قولاً وعملاً.. لا شعارات وأقوالا، ولنقرأ قول الله عز وجل ، وهو أصدق القائلين : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا ، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (الحشر /٧-٩) وصدق الله العظيم.

ثالثا : التربية.. وماذا يبقى مع الفرد حتى آخر لحظة في عمره:

حينما يقال إن الفرد زائل، وأن المجتمع أطول عمراً ، وأن الثقافة تبقى مع المجتمع، وأنها آخر ما ينتزع من الفرد والمجتمع فإننا ـ نحن التربويين ـ ينبغي أن نؤكد على أن الجانب الديني والروحي والقيمي هو الذي يعنينا في هذا المجال، فكل الجوانب المادية في الثقافة، مهما كانت قيمتها ، لا تساوي شيئًا في نظر الإنسان عند مواجهته الموت، ولكن هناك العقيدة التي يفتديها المؤمنون بأرواحهم، والتي يستشهدون في سبيل الله من أجل بقائها وإعلائها ، بل ومن أجل تمكينها في الأرض.

إن التربية ، من خلال جميع مؤسساتها، ينبغي أن تؤكد على هذه المعاني، فلا قيمة لمجتمع بلا عقيدة، ولهذا أكدت سنة المصطفى ﷺ على فريضة الجهاد ، تلك التي أكد عليها المولى عز وجل في محكم آياته ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾، كما نص، سبحانه وتعالى، على أن يتمسك المسلمون بدينهم، بحيث لا يتركون هذه الحياة، بمادياتها وزخارفها، إلا وهم.. مسلمون ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وليس هناك أعظم من هذا الأمر في

طلب الاستمساك بالدين الإسلامي الحنيف، وبالحرص عليه، بل وبالعض عليه بالنواجذ ، حتى آخر لحظة من عمر الإنسان ، حتى عند مواجهته الموت.

إن التاريخ يحدثنا عن شعوب ومجتمعات، وأمم وامبراطوريات سابقة، زالت من التاريخ ، من قوم نوح إلى قوم لوط،ومن فراعنة مصر إلى حكام اليونان، ومن أباطرة الرومان إلى مجوس فارس، وقد زالوا جميعا من الوجود، وأصبحوا عبرا لغيرهم لأنهم استمسكوا بالدنيا وبكل متاعها الزائل، وماتوا وهم يدافعون عن ممتلكاتهم وكنوزهم وزخارف دنياهم، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ فتلك بيوتهم خاوية لم تسكن من بعدهم ﴾ ، وأيضًا قال ﴿ كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾.

والعبرة والعظة التي ينبغي أن نركز عليها في تربيتنا لأجيالنا الصاعدة هي أن هذه الجوانب المادية من حياة الأمم والشعوب زائلة ومتروكة ، بل إن أصحابها إذا لم يستخدموها فيما يفيد عقيدتهم ودينهم ، فإنه سوف يأتي من يرثها منهم ويستفيد منها ﴿ كذلك وأورثناها قومًا آخرين ﴾.

وفي عصرنا الحاضر فإن هناك مجتمعات أوغلت كثيراً في الجوانب المادية بحيث أصبحت محور حياتهم.. أفراداً ومجتمعات، وصار الحساب الوحيد عند بعضهم هو حساب العناصر المادية، من دخول الأفراد، ومدى ارتفاعها ، إلى استهلاك هؤلاء الأفراد للطاقة، إلى أكلهم لكميات معينة من البروتينات على مدار أيام العام، إلى شبكات الطرقات التي يستخدمونها، وكم هو نصيب الفرد من عدد الكيلومترات المرصوفة منها.. إلخ.

ولقد نسي هؤلاء الحاسبون أن هناك أموراً أخرى أعز وأهم وأغلى في حياة البشر من مجرد حساب عناصر المادة واستهلاكها. لقد نسوا وغاب عنهم الجانب الروحي ، وهو عنصر أساسي ومؤثر في نفسية الإنسان ، وفي بناء شخصيته، ولذلك خرجت كتابات عديدة لتبين أن أفراد أرقى المجتمعات على وجه الأرض ، وهم ـ للعلم ـ أهل السويد ، ليسوا بالضرورة أسعد البشر، وقد دعمت هذه الكتابات بالإحصاءات الموثقة التي تبين أن أعلى نسب الانتحار في

العالم.. توجد هناك، أي في السويد ، على الرغم من المستويات المادية الرفيعة المتقدمة التي يتمتع بها المواطنون هناك.

كذلك فإنه لا يغيب عنا مقالة السيناتور الأمريكي « وليم فولبرايت » رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس الأمريكي لعدة دورات متتالية ، وأحد أشهر حكماء المجتمع الأمريكي، حين نطق الرجل بالحكمة ، في يوم أشهر من أيام شهر يوليو عام ١٩٦٩م، وذلك حين نجح الأمريكيون في وضع أول إنسان على سطح القمر، في سابقة علمية وتكنولوجية، لم تلحق من بعدهم حتى يومنا هذا ، وقد جن الأمريكيون من الفرح لنصرهم هذا ، وهم يرون علم وطنهم يغرس متفرداً فوق تربة القمر ، كما فرح معهم عدد هائل من أفراد مجتمعات دول أوروبا الغربية المشايعة لهم، ولكن الرجل الحكيم - فولبرايت - لم يغره هذا النصر « العلمي » و « التكنولوجي » الذي حققه قومه في مجال الفضاء، وإنما عاد ببصره فوراً إلى حقائق الحياة على الأرض الأمريكية، فائلا قولته المشهورة « حقا .. لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر، ولكن أقدامنا مازالت مغروسة في الوحل »..!!

وعلى وجه اليقين فإن الرجل المسؤول كان يعي تماما كم وحجم المشكلات والمآسي التي يعاني منها مجتمعه، والتي تتراكم إحصاءاتها على رفوف «مكتبة الكونجرس » ، أشهر مكتبات العالم وأضخمها، وكانت تلك الإحصاءات، ولازالت، تتحدث عن مشكلات مجتمعية كبرى، ومآسي أخلاقية بلا عدد، وجميعها لا يمكن غض الطرف عنها، أو المرور عليها مر الكرام، فمن اتساع انتشار الجريمة المباشرة بالسلاح (القتل العمد) إلى الاغتصاب ، ومن الخطف إلى السرقات، ومن شيوع إلقاء الأطفال اللقطاء في الشوارع، نتيجة للعلاقات غير السوية، إلى انتشار الشذوذ ، ومن الاعتداءات على كبار السن، حتى الوالدين.. بل وحتى الأجداد (!!!).. إلى غير ذلك في سلاسل لا تنتهي من المآسي والمشكلات التي يعاني منها مجتمع هو في نظر كثيرين أقوى المجتمعات التي ظهرت على وجه الأرض في التاريخ البشري، ولكن .. غابت الروح.. وغاب الإيمان، فاختلت الموازين، وتلك هي طبائع الأمور ، وتلك هي -

أيضًا ـ الحكمة البالغة التي علينا أن نعيها، وأن نربي أبناءنا عليها، وهي أنه ليس بالمادة وحدها يحيا الإنسان.

إن هذه الأوضاع ينبغي أن تكون دافعاً لنا نحن التربويين في أن نعيد النظر في مناهجنا وخططنا الدراسية، وفي كل برامجنا التعليمية لنؤكد على الجوانب الروحية والقيمية والأخلاقية حتى تدخل في نسيج شخصيات أبنائنا من الأجيال الصاعدة بحيث يشبون وهم متمسكون بها، حريصون عليها، وأعون لأهميتها في حياتهم وحياة مجتمعهم.

هذا في المدارس، وفي باقي المؤسسات التربوية الأخرى التي ذكرناها من قبل ينبغي أن يركز على هذه الجوانب ـ الروحية والقيمية والأخلاقية ـ بحيث تكون هي المحور الأساسي في عملها، وفي تربيتها للناشئة ولأفراد المجتمع كله، ويكفي أن نفكر في وسائل الإعلام وما يمكن أن يقدم فيها، ومن خلالها، بهذا الخصوص.

رابعا: ينبيغي أن تكون التربية في مثل ديناميكية الثقافة:

الثقافة ـ حقًا ـ ديناميكية متحركة، وقد كتب عنها المتخصصون في شؤون التربية والمجتمع ، وبجانبهم أيضًا المهتمون والمفكرون، وبما أن التربية هي الوسيلة الأولى والأخيرة لإكساب أبناء المجتمع عناصر ثقافتهم فإن هذه التربية لا ينبغي أن تتخلف عن ركب الثقافة المتحرك دومًا، بل والفوار بالحركة في كثير من الأحوال ، وخاصة في هذه الأيام التي تواجه فيها الثقافة العربية والإسلامية تحديات كبرى من الوافدات الثقافية الأجنبية، وخاصة ما تبثه القنوات الفضائية التي أخذت تتكاثر في المنطقة العربية، وبالذات في منطقة الخليج العربية.

إن هناك الكثير من المتغيرات Alternatives التي بدأت تغزو منطقتنا العربية ، وبالذات منطقة الخليج العربي، والتي كانت تعتبر منطقة ذات خصوصية نوعية حيث احتفظ أهلها بخصائصهم الثقافية ، داخل مجتمعاتهم، لمئات من السنين ، وبالذات في قلب الجزيرة العربية، ولكن هبوط ثروة البترول بشكلها المفاجئ الذي حدث بالمنطقة، وخاصة بعد حرب رمضان المجيدة، عام ١٣٩٣هـ (اكتوبر ١٩٧٣م) أدار عقول الكثيرين من أبنائها، كما أنه جذب

إليها الكثير من حيتان العالم الاقتصادية والسياسية والإعلامية، والعقلاء المخلصون في عالمنا العربي الإسلامي لا يمكنهم أن يتغافلوا عن ذلك الأثر الخطير، أو يغضوا الطرف عنه.

ومن المعروف أن المتغيرات هي وسائل نمو الثقافات المختلفة، خاصة إذا أثبتت هذه المتغيرات أنها يمكن أن تعمل لصالح أصحاب الثقافة التي تصل إليها، وبعض هذه « المتغيرات » قيد يتحول إلى « خصوصيات »، والبعض الآخر قد يصبح من « العموميات »(*)، ولكن المشكلة تتضح إذا علمنا أن بعض هذه « المتغيرات » التي وفدت إلى منطقة الخليج العربية ليست في صالح تلك المنطقة، ولا في صالح أهلها ، ولعلنا فقط نذكّر بالمدارس الأجنبية المنتشرة في بعض دول الخليج العربية، وقد سبقت الإشارة إليها من قبل.

كذلك هناك القنوات الفضائية العديدة التي انتشرت أجهزة استقبالها فوق أسطح العمارات والفيللات في أنحاء كثيرة من مدن الخليج، ثم إن الإسراف قد أصبح علامة مميزة على تصرفات أعداد ليست بالقليلة من أبناء الخليج، خاصة من بين فئات الشباب الذين قد لا يقدرون النعمة التي أرسلها الله لهم حق قدرها، ثم إن هناك قضية السفر للخارج طلبا للسياحة والمتعة وتضييع الوقت ، ويضاف إلى ذلك عودة بعض الشباب من الخارج وهم يحملون معهم بذور تقليد لمجتمعات أخرى تختلف عنا في الكثير من قيمنا، بل وتتصادم عقائدهم مع عقيدتنا الإسلامية.

والعبرة المهمة هنا هي في موقف التربية من تلك الديناميكية المتحركة للثقافة والتربية ـ كما سبق وأكدنا مراراً خلال هذه الدراسة ـ بمؤسساتها كلها، فلا يعقل أن تظل مدارسنا ، بمناهجها ومقرراتها، وطرق تدريسها ، وأوجه النشاط فيها، تعمل بأساليبها القديمة التي كانت سائدة منذ أكثر من عقود ثلاثة، وكأن شيئا لم يكن..!! وكأنه لم يحدث من حولها أي تغير.. !!

إن المناهج التي تدرس للأطفال والشباب ينبغي أن يعاد النظر فيها

(*) سبق شرح هذه المعاني في أحد فصول هذا الكتاب .

جـذريًا، في كل شيء، من الأهداف إلى المحـتـوى، ومـن طرق التـدريس إلى التقـويم، ومن التـخطيط التربوي إلى النشـاط بأوجهه المختلفة.. الصـفـية وغـيـر الصفـية، وذلك من منطلق أن ما كان يدرس لأجيال سابقة (منذ أكثر من ثلاثين عـامًا) لا يمكن أن يصلح، كما هو دون أدنى تغـيير ، رغم اخـتـلاف الأوضـاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من حول المدرسة.

ثم إن مؤسساتنا الإعلامـية ينبغي عليها أن تكون واعية لهذا البعد الخطير ، أي بعد ديناميكية الثقافة و وحركتها السريعة، كما أن عليها أن تعيد النظر فـيـما تقدمه لأبناء أمتهـا، واضعة في اعتبارها أن تقليد الإعلام في مجتـمعـات أخرى مـختلفة عنا لـيس هو المطلوب، وإنما المطلوب الذي يجب أن يؤكد عليه كل تطوير أو تجديد ينبغي أن يصب في قضـيـة أساسيـة لا يختلف عليهـا أحد، ألا وهي قـضـيـة الهوية، أي هوية المجتـمع الذي تنتسب إليـه هذه المؤسسات الإعلامية، والتي تعمل على تربية الأجيال الناشئة والشابة من أبناء ذلك المجتمع.

إن بعض القنوات الفضـائـية التي تبث في منطقتنا ـ القنوات العـربيـة للأسف الشديد ـ حسبت أن التغيير يكمن في مجاراة إعلام « الآخرين » الذين يختلفون عنا في الجذور، وخاصة القنوات الغربيـة المبتذلة، فجاءت لمشاهديها بمسخ من الأفلام والبـرامج والمسلسـلات والتـمـثـيليات لا تقل في انحرافـهـا وتفاهتها عـما يبث لنا من الغرب، وأحيانًا من الشرق، عن قـصد وسبق إصرار، وتلك كارثة تربوية، وسقطة إعلاميـة خطيرة لا ينبغي السكوت عليها، أو تركها تمر هكذا دون تنبيه أو تحذير.

ثم إن أئمـة المساجد في مجـتـمعـاتنا عليـهم أن يعـوا بعد الديناميكيـة والحركة في هذه المجتمعات، ومن ثم عليهم أن يتعاملوا في خطبهم ومواعظهم مع التغيرات المختلفة التي تجري من حول المساجد، بحيث يبينون موقف الإسلام العظيم من هذه المتغيرات ، وكذا موقفه الفعال والإيجابي من المشكلات الناجمة عنها، حيث أنه من غير المناسب أن يذهب الشباب إلى المساجد ليجدوا بعض أئمتها وهم يخطبون من ورق أصفر عفا عليه وعلى موضوعاته الزمان، كما أن

هذا البعض من الأئمة والخطباء يتعاملون مع أمور الحياة الحاضرة بمنطق عجيب يفترض أن هذه الحياة ثابتة لا تتغير.

إن الدين الإسلامي الرائع أنزل لكل الناس ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً﴾ (النساء/)، كما أنه أنزل لكل الأزمنة والعصور ، ولذا ، فإن علماء الدين وأئمة المساجد وخطباءها مطالبون بالإقبال على متغيرات الحياة وعلى مشكلاتها، يدققون فيها بوعي، ويفحصون عواملها بدقة ، بل ويضعونها تحت ميكروسكوب العلم الشرعي الأصولي، ليروا موقف الإسلام منها ، وليبينوا للناس، وخاصة الشباب منهم ، مواضع الحلال والحرام فيها، وهم حينما يفعلون ذلك ينبغي أن تكون الحكمة التي تقول «حيث لا أوجد أنا يوجد عدوي » نصب أعينهم، وأمام ناظريهم.

إن معنى ذلك أنه إذا لم ينزلوا هم إلى ميدان الحياة الواقعية، وإذا لم ينتبهوا إلى ما يجري فيها من تغيرات، وإلى ما يقع فيها من أحداث ومن تغير، وإذا لم يتدخلوا - بإيجابية - ليقودوا الشباب إلى السبل الصحيحة، وإذا لم يجاهدوا في فهم الشباب، وفهم مشكلاتهم.. إذا لم يفعلوا كل ذلك فإن هناك الكثيرين من شياطين الإنس الذين سيحتلون مواقع القيادة في كثير من المؤسسات الاجتماعية الحساسة، وبعض هؤلاء الشياطين من خارج مجتمعاتنا، وبعضهم الآخر من داخلها ، حيث يتسمّون بأسمائنا ، ويلبسون ملابسنا، ويأكلون طعامنا، ولكنهم - في حقيقة الأمر - أخطر على أبنائنا ، وعلى مستقبل أمتنا من أعدائنا الذين نعرفهم جهاراً نهاراً.

خامسًا : التربية وقيم المجتمع:

إذا كان لكل ثقافة ركائز خاصة تتميز بها على غيرها من الثقافات ، فإن من أهم ركائز الثقافة الإسلامية التي يعتد بها المجتمع العربي ركيزة القيم، أو منظومة القيم التي يعتز بها كل مسلم غيور على دينه وعلى أمته.

وتلك المنظومة من القيم وصلت إلينا من أجيال السلف الصالح الذين ساروا على هدى النور الذي انتقل إليهم عبر ﴿ خير أمة أخرجت للناس﴾، منذ

غرس فيهم معلم البشرية الأسمى ، محمد بن عبدالله ﷺ هذه القيم.

لقد غرسها فيهم قولاً حكيمًا، وفعلاً ممارسًا في حياته التي كانت كل لحظة فيها دروسًا تربوية عملية انتقلت منه ﷺ إلى أفراد جيل الصحابة العظام، بخاصية « انتقال أثر التعليم أو التدريب » التي يحدثنا بها علماء النفس، فصارت مواقفه ﷺ مصابيح تربوية مشعة أضاءت الطريق لأجيال من الصحابة الكرام، رضى الله عنهم أجمعين ، ومن التابعين وتابعيهم ، أولئك الذين غيروا الدنيا من حولهم ، بعد أن تغيروا هم من الداخل ، بفعل تربية المعلم الأسمى ، ﷺ ، تلك التربية التي نزل منهجها من فوق سبع سماوات ، في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾.. وصدق الله العظيم.

والقيم التي يفترض أن تسود الثقافة في المجتمع العربي المسلم، والتي ينبغي أن تقوم التربية بغرسها وتعميقها في نفوس وشخصيات الأطفال والشباب كثيرة جداً، ويمكن فقط أن نشير إلى بعضها من بعيد، فليس القصد هو الحصر والعد، وإنما المقصود هو التذكير بها فقط ، وبما تمثله، وبأهمية دور التربية ـ بمؤسساتها كلها ـ في رعايتها، بعد غرسها، وفي العمل على التمكين منها .

إن المؤسسات التربوية في مجتمعنا العربي المسلم ينبغي أن تولى عنايتها الكبرى لقيم مثل « الأخوة في الله » ، بين أبناء المجتمع الواحد.. المجتمع الكبير، ونعني به مجتمع المسلمين. وأن يترجم ذلك في سلوكيات الأطفال والشباب الصغار.. عمليًا، في جميع مراحل التعليم، كما ينبغي أن يتضح في الكتابات الصحفية، وفي مقالات وقصص الكتاب والمفكرين ، علاوة على برامج القنوات التليفزيونية وأفلامها ومسلسلاتها.

هذا وإن أقرب الناس الذين ينبغي أن تتضح هذه الأخوة في معاملاتهم هم الجيران، وذلك من واقع غرس الرسول ﷺ حيث كان دائم التذكير لأصحابه بما للجار عليهم من حقوق، قولاً وعملاً ، حيث نقلت عنه «السيدة عائشة» رضى الله عنها، قوله «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وقيم « الصدق » ، و« الاخلاص » ، و « الأمانة » ، و « الوفاء بالعهد »، و « الحرص على المواعيد » و « إتقان العمل » ، و « احترام كبار السن » ، وتوقيرهم، وكذا « حب الصغار » والعطف عليهم، و « تفضيل الصالح العام» على المنفعة الشخصية ، و « طلب العلم » ، و « الحرص على الوقت » ، و « احترام الذات » وأيضًا « احترام الآخرين ».. كل أولئك.. وغيرها كثير ينبغي أن تتخذ منها التربية محاور أساسية لدروسها وبرامجها، في مجال الأسرة وتنشئتها لأطفالها، وفي المدرسة وعنايتها ورعايتها لطلابها، ووسائل الإعلام المختلفة في توجهاتها لمشاهديها وقرائها ومستمعيها، بالإضافة لرواد المساجد والذين ينبغي أن يركز لهم هذا الجانب القيمي في خطب ومواعظ الأئمة الوعاظ.

وللعلم فإننا لا نقصد هنا مجرد الحديث عن هذه القيم ، وذكرها وعدها، وإنما المطلوب هو نماذج حية طيبة تضرب لهم، وأمثلة تذكرهم، أمثلة من الماضي التليد تبين لهم كيف كان جيل الصحابة العظام يسلك ويتصرف، رضوان الله عليهم أجمعين ، بناء على القيم التي تعلموها ودربوا عليها علي يدي المعلم الأسمى ﷺ ، ومواقف عملية أثرت في حياة الأمة الإسلامية لمّا استمسك بها أصحابها.

ورجال التربية جميعًا .. من معلمين.. وآباء وأمهات.. وإعلاميين.. وكتاب ومفكرين.. وأئمة ووعاظ عليهم أن يعودوا لتراث الأمة الإسلامية الرائع والمثمر في هذا المجال،وسيرة الرسول ، ﷺ ، ومن بعده الخلفاء الراشدون، ومن سار على هديهم، فيها الكفاية ويزيد.

أذكر أني كتبت في بحث لي [١٠] عبارات لعلها تكون مفيدة في مجالنا هذا الذي عنه نتحدث « إننا نسمع عن الحكماء .. عبر التاريخ.. في شعوب العالم المختلفة ، باعتبارهم عملة نادرة ، لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلاً ، وقد تمر أجيال بأكملها لا يولد فيها واحد من هؤلاء الحكماء، ولكن أن تكون هناك

---

(١٠) محمد عبدالعليم مرسي : التربية والتنمية .. في الإسلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ص ٢١-٢٣.

مدرسة، أو جامعة تخرج هؤلاء الحكماء .. فهذا هو الجديد .. هو المعجز ، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال مدرسة الإسلام العظمى، ولذا فلم يكن غريباً أن يحفل الجيل الأول .. والرعيل الممتاز ، من صحابة الرسول ﷺ ، بالحكماء الذين تخرجوا من جامعة الإسلام الرائعة والمتميزة ، في كل مجال ، في العلم وبحوره الواسعة والعميقة، وعلي بن أبي طالب، رضى الله عنه ، نموذج لا يدانى لهؤلاء الحكماء الذين تعلموا العلم وأشربوه على يد خير الأنام ﷺ ومن وراء « علي » رضي الله عنه ، طابور طويل من العلماء والحكماء، رواة الأحاديث النبوية الشريفة ، وحفظة القرآن الكريم، والمفسرين والمحققين المدققين الذين لم يجد الزمان بمثلهم.

وفي مجال الحكمة.. والحصافة.. وبعد النظر، والثبات في الأمر، حين تهب العواصف الهوجاء ، وتدلهم الخطوب ، وتحتاج الأمة لحكيم عاقل يقبض بيد قوية ثابتة على دفة المركب، ويسيِّرها وسط العواصف العاتية، ووسط بحار الظلمات الرهيبة والمرعبة، هل هناك من جامعة استطاعت أن تخرج حكيما مثل « أبي بكر » رضي الله عنه، ذلك الصحابي الرائع، صاحب الفكر الثاقب، والنظر البعيد.. ذلك الذي أنقذ الأمة الإسلامية الوليدة من أخطر ما واجهها، بعد وفاة صاحب الرسالة ، وغيابه تحت الثرى ﷺ..؟؟

وهل هناك جامعة ، في أي مكان في الدنيا، يمكنها أن تأمل من جيل بأكمله، من خريجيها، مهما كان عددهم، ومهما كانت نوعياتهم، أن يقودوا أمة بأكملها، وأن يسوسوا أمورها في سياسة داخلية وخارجية، في سلم وفي حرب، في رعاية مصالحها الاقتصادية، وفي السهر على مواجهة وعلاج مشكلاتها الاجتماعية، في نشر عدل ندر أن جاد الزمان بمثله، وفي حسم مع الأمراء والقادة والولاة، قبل الأفراد العاديين ، في إنشاء دواوين ، وفي رعاية أرامل وأيتام، في بكاء بالليل.. خشية الرحمن، وفي تعب وكد بالنهار، حرصا على مصالح المسلمين .. كما كان يفعل « عمر بن الخطاب » ، الفاروق ، رضى الله عنه..؟؟

والأمثلة التي يمكن أن يتوقف عندها الإنسان ، يحاول أن يحصي

عظماء الرجال، من الصحابة الأطهار، الذين تربوا على يد المصطفى ﷺ ، قد لا يمكن حصرهم وعدهم وتصنيفهم، كل في مجاله الذي أبدع فيه، ولكن يكفي أنهم غيروا وجه الحياة .. في جزيرة العرب، ثم انتقلوا بهذا التغيير إلى الامبراطوريات التي كانت معروفة آنذاك.. فغيروها هي الأخرى ، وكانت كتائبهم مكونة من المجاهدين المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله، ليشتروا بها الحياة الآخرة، وكان على رأس هذه الكتائب والجيوش قادة عظماء، تخرجوا من جامعة الإسلام العظيمة، وتربوا على يد أعظم قائد ، فكان الرجل منهم ، في حد ذاته، جيشًا .. في قلبه .. وشجاعته.. وبأسه.. وقوته.. وبراعته وحيلته، والذين يريدون معرفة هذه النوعية من الخريجين العسكريين لهذه الجامعة الأم، فليقرأوا عبقرية « خالد بن الوليد » ، وبراعة « سعد بن أبي وقاص »، وشجاعة « الزبير بن العوام » ، وحماس « أسامة بن زيد » .. القائد .. الشاب، بل القائد الذي كان في مستهل الشباب.

ولقد اقتبسنا هذه النماذج الإسلامية الرائعة لتكون أمام التربويين في كل مؤسساتنا التي تهتم بتخريج الأجيال من أبناء الأمة ، وليقدموا للصغار في مجتمعاتنا ، وكذا للشباب مجموعات القيم الإسلامية الرائعة التي تربى عليها هؤلاء النفر العظام ، من صحابة رسول الله ﷺ ، لتكون نبراسًا لأعمالهم يقدمونها للأطفال والشباب نماذج حية غيرت وجه التاريخ ، وأقامت حضارة أذهلت الشرق والغرب على السواء، واعترف بها علماؤهما ، والفضل ما شهدت به الأعداء.

سادسًا : ضرورة شمول التربية لكل طوائف المجتمع:

عندما نقول إن الثقافة تنتشر بين جميع طوائف المجتمع وجماعاته فإن ذلك يمثل عبئًا كبيراً جداً ومسؤولية ضخمة على جميع المؤسسات التربوية العاملة فيه ، بحيث تصل خدماتها إلى أفراد كل هذه الطوائف ، دون استثناء من الصغير إلى الكبير ، ومن الغني إلى الفقير ، ومن العامل والصانع، إلى الفلاح والمزارع، ومن المثقف القارئ إلى الإنسان العادي الذي - ربما - لا يقرأ ولا يكتب.

إن كل المؤسسات التربوية التي سبقت الإشارة إليها، بالإضافة إلى الجامعات والمكتبات العامة ، والأندية الثقافية والأدبية والرياضية، مطالبة بأن تنزل إلى المواطنين في تجمعاتهم حيث كانوا، وأن تفتح أبوابها لهم، وتدعوهم إلى منتدياتها ولقاءاتها، حتى تصير الثقافة العامة شائعة بين الجميع، ومتاحة لهم، وحتى تكون هناك خيوط اتصال متينة تربط بين أبناء المجتمع، توحد بين فكرهم، وتؤلف بين مشاعرهم، وتشدهم إلى اهتمامات خاصة بقضايا مجتمعاتهم.

إن الجامعات الامريكية في الغرب ، على سبيل المثال، لم تعزل نفسها خلف أسوارها، ولم يعش أساتذتها في أبراج عاجية يجرون تجاربهم، ويؤلفون كتبهم وبحوثهم، وإنما هم نزلوا إلى مجتمعاتهم يبحثون في مشكلاتها، ويقدمون لها ما توصلوا إليه من حلول واقتراحات، بحيث أن ما عقد من لقاءات ومؤتمرات في عام واحد - تناولت أموراً تخص أفراد المجتمع الأمريكي قد بلغت الآلاف .. دون أدنى مبالغة. (١١)

سابعًا : العلاقة بين الثقافة والتربية :

وأخيراً .. نصل إلى جماع ذلك كله في العلاقة بين الثقافة والتربية - إن التربية هي - بلا شك - وسيلة اكتساب الثقافة ، وهي - بلا شك كذلك - التي تعين أجيال المجتمع على تمثلها وهضمها، ثم إنها هي - أي التربية - التي تعد أفراد هذه الأجيال للحفاظ عليها، بل وللدفاع عنها، ربما بحياتهم.. إذا اقتضى الأمر ، ولا يمكن لإنسان أن يضحي بحياته، أو يطلب منه - في لحظة معينة - أن يفعل ذلك إلا إذا كان قد ربى تربية حقيقية تجعله يقبل على ذلك ، أي على الموت وهو مقتنع تمامًا قناعة لا يداخلها شك بما يفعل.

لقدأصبحت الثقافة ، بعد مفهومنا لها، وهي مرادفة لوجود الإنسان ذاته فلا إنسان بلا ثقافة، فإذا هددت الثقافة فمعنى ذلك تهديد حياة الإنسان

---

(١١) محمد عبدالعليم مرسي: التعليم العالي ومسؤولياته في تنمية دول الخليج العربية، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ،

ذاتها، والتربية بمعناها الشامل هي التي تعد الإنسان.. روحيًا.. ونفسيًا.. ومعنويًا .. وجسديًا .. للدفاع عن ذاته، عندما تهدد حياته، وهي كذلك التي تعد أفراد المجتمع للدفاع عن دينهم وعقيدتهم ومجتمعهم والموت في سبيل الله، وهذا هو الفرق بين مجتمع المسلمين المؤمنين ومجتمع الكفار الذين قال الحق تبارك وتعالى فيهم ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾.. (البقرة/٩٦) ، ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى ، قد وصف ما يحرص عليه هؤلاء الكفار بانه « حياة » .. مجرد حياة.. أية حياة، فهي كلمة نكرة تحط من قيمة ما يحرصون عليه، وتبين أنه لا قيمة ذات معنى لهذه الحياة ، فطالما يحيون فهذا هو المهم، حت لو كانت حياة خالية من أي قيمة يحرص عليها الإنسان، ومن أي معنى، وبلا هدف يسعى الإنسان لتحقيقه، أو غاية سامية يرجو الوصول إليها، وتلك على وجه اليقين هي الحياة المادية، فهم ، وكما وصفهم الحق تبارك وتعالى ﴿ والذين كفروا يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ . (محمد /١٢).

وذلك ـ تمامًا ـ عكس حياة المسلمين المؤمنين التي اشتراها منهم الحق، جل وعلا ، فهنا نجد الهدف واضحا، كما نجد المثوبة والأجر العظيم﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (التوبة/١٧)، ولذا جاءت تربية المعلم الأسمى، والمربي الأمثل، ﷺ ، لتبين لنا كيف غرس في نفوس صحابته الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين، حب الاستشهاد في سبيل الله ، لدرجة أن الرجل منهم كان يستطيل حياته فيما لو بقى على ظهر الأرض حتى ينتهي من أكل تمرات كانت في يده، وما ذلك إلا لأنه وثق ـ تمامًا ـ أنه سوف ينال الجزاء الأوفى.. فوراً .. وأن وعد الله ، جل وعلا، حق، وأنه سوف يدخل الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض إذا ما قاتل المشركين فنال الشهادة .

ثامنًا : التكامل في التربية لمواجهة التكامل في الثقافة :

وإذا كانت الثقافة ، كما سبق الشرح في فصل سابق من فصول هذا الكتاب، تتميز بالتكامل وبالتغير والتطور والانتقاء والشمول، فإن التربية ينبغي ألا تتخلف عن تحقيق كل هذه الصفات في برامجها ومناهجها وأوجه

النشاط فيها، إذ أنه لا يعقل أن تكون أوجه الحياة في المجتمع نشطة فوارة، تموج بالحركة والحيوية، وبقبول الجديد والتعامل معه، بينما برامج التربية ومناهجها ومناشطها قديمة بالية. أكل عليها الدهر وشرب، وفاتها قطار الحركة والتغير والتطور والنمو.

إن هذا الوضع إن سمح له بالاستمرار فمعناه المبدئي والفوري أن تلك النوعية من التربية إنما تسمح لنفسها بأن تخرج لمجتمعها شبابا لا ينتمون إليه، ولا إلى عصره الذي يعيش فيه. شباب درسوا وتربوا على أمور لا صلة لها بواقع الثقافة في مجتمعهم، وبالتالي فإن هؤلاء الشباب الخريجين من مؤسسات تربوية هذا شأنها يصبحون أمام موقفين: الأول .. إما أن يتعاملوا مع أفراد المجتمع من حولهم على أساس ما تعلموه في المدارس وغيرها، وما تربوا عليه، وهو - في معظمه - غريب على قيم مجتمعهم وعاداته وتقاليده، باختصار.. ثقافته، والثاني .. أن يتعاملوا مع مجتمعهم على أساس الثقافة الفعلية السائدة فيه هو، ومن ثم فإنهم مضطرون بأن يلقوا خلف ظهورهم بكل ما تعلموه، وكل ما دربوا عليه، وهذا في حد ذاته موقف صراعي لا يسهل فيه اتخاذ قرار، خاصة وأن ما يتعلمه الشباب وما يربون عليه يدخل جزء كبير منه في بناء شخصياتهم، وبالتالي لا يسهل سحبه أو انتزاعه منهم، بالإضافة إلى أن محاولاتهم نسيان الذي تعلموه أو التخلص منه فيه إهدار لعنصر الوقت المتمثل في السنوات الطوال التي عاشوها يطلبون العلم في مدارس لم تفهم معنى رسالتها، ومع برامج ومناهج ومناشط لم تعد للحياة في المجتمع ولا للعصر الذي توجد فيه، وفي كلتا الحالتين فإن الخسارة كبيرة ومؤكدة على كل الجبهات، ولا نتحدث هنا عن خسارة المجتمع من الأموال التي أهدرها على تعليم غير مناسب، وعلى تربية تصادم المجتمع ولا تخدم متطلباته، ولا تحقق أهدافه.

إنها خسارة على المجتع الذي لم يستفد من جهود المدرسة - على سبيل المثال - التي وثق فيها، والتي أنفق عليها ورصد لها الملايين من ميزانيته، وعلى المدرسة التي أضاعت أياماً غالية من عمرها، بل سنوات طوالا من عمرها وعمر

مرتاديها، بينما هي كانت تحرث في البحر ، والمنتسبون إليها يظنون أنهم « يحسنون صنعًا »،وعلى الطلاب الذين أرسلهم ذووهم ليتلقوا العلم، وليتلقوا التربية، فإذا بهم تخيب آمالهم، وتتخرج منهم طوائف وأجيال يشعر أفرادها بأنهم أضاعوا أعمارهم فيما لا فائدة فيه، ولا طائل من ورائه ، بل ويشعرون أنهم في حاجة لأن تعاد تربيتهم، وأن يعاد تدريبهم من جديد (!!) حتى يستطيعوا التواؤم مع ما يجري حولهم في مجتمعاتهم من أمور، بل إنهم محتاجون للتواؤم مع الحياة ذاتها..

إن المؤسسات التربوية في مجتمعاتنا عليها واجب لا فكاك منه، ولا محيص عنه، وهو أن تعيد النظر في كل ما تقوم به، حتى ترى موقعها وموقعه من قضايا الثقافة في المجتمع، وعلى سبيل المثلا فقط لا الحصر :أين التربية من قضية التماسك الاجتماعي.. أي تماسك البناء الاجتماعي داخل مجتمعاتنا.. ؟؟ بمعنى هل هناك من المناهج والبرامج والمقررات والمناشط ما يخدم هذا البعد فعلا..؟؟ وهل هناك من المناهج والبرامج والمقررات وأوجه النشاط ما يعمل جاهداً على توضيح قيم المجتمع ومعاييره وترسيخها في نفوس وشخصيات أجيال المستقبل.. ؟؟ توضيحها شرحًا مكتوبًا ومقروءاً ، وتوضيحها سلوكًا عمليًا منفذاً ومطبقًا..؟؟

وهل هناك من هذه المناهج والبرامج والمقررات والمناشط ما يساعد على وحدة الأمة (الإسلامية والعربية)، وما يؤكد ذات الفرد المسلم باعتباره عضواً له كيانه، وله قيمته وكرامته، لأنه إذا كانت اللبنة الأولى قوية متينة كان البناء كله متماسكًا قويًا ، وذلك استنادا لتكريم الله - سبحانه وتعالى - للإنسان منذ يوم خلقه ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الإسراء/ ٧٠). فهل يحدث هذا فعلاً في مدارسنا ومعاهدنا التربوية بحيث تخرج هذا الإنسان المكرم الذي يعيش في مجتمع حر كريم، يرفع رأسه، ويعتز بكرامته، ويقول رأيه معتدا بذاته، واثقا من نفسه ، آمنًا على حياته، وعلى رزقه، وعلى أولاده ومستقبلهم، إن كنا نفعل ذلك فهذا الإنسان هو اللبنة المنشودة حقًا ، لبنة الثقافة الطيبة التي نسعى لأن

تكون هي السائدة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

كل هذه الأسئلة، وهناك غيرها كثير، وهي تحتاج منا نحن التربويين أن نقف عندها ، وأن نفحصها بعناية، وأن نعيد النظر فيها ، وفي إجاباتنا السابقة عليها، إن كنا قد تعاملنا معها من قبل، نظراً لما جرى ويجري في مجتمعاتنا وثقافتنا من تغير وتطور وتحول، ثم إنه علينا ـ من بعد ذلك ـ أن ننظر في مناهجنا وبرامجنا ومقرراتنا وأنشطتنا في مدارسنا ومعاهدنا والجامعات، وأن نرى موقعها من هذه الأسئلة ومن الإجابة عليها.

ثم إن علينا أن نفحص ـ بعناية وجد وبروح مسؤولة وأمينة ـ ما تقدمه وسائل الإعلام عندنا من برامج وأفلام وتمثيليات ومسلسلات ، بل وإعلانات تجارية كذلك (!!) لنرى موقع ذلك كله من تربية الإنسان، ومن إعداده لتحمل مسؤولياته، داخل ثقافة مجتمعه المسلم، وهل هذه البرامج والأفلام والتمثيليات والمسلسلات، وكذا الإعلانات، هل تساعد ذلك الإنسان المسلم على أن يُبنى داخليًا ويربى بحيث يكون لبنة قوية صالحة داخل البناء الثقافي في مجتمعه العربي المسلم، أم أنها تعمل على تغريبه وتهميش دوره، وذلك من خلال الإصرار على سهره حتى الساعات الأولى من الصباح .. بل حتى إلى اليوم التالي ، طوال أيام الأسبوع(!!!)، وهو يشاهد برامج وأفلاما ومسلسلات وتمثيليات وإعلانات تسلب لبه، وأحيانًا فكره، ومشاعره، ومن ثم إرادته، حتى إذا ذهب إلى العمل كان حطام إنسان وبقايا بشر، لا ينتج لنفسه ، ولا لمجتمعه، ولا لأمته..؟؟

كل ما سبق ، وغيره كثير ، مسؤوليات أهل التربية، في كل موقع، وفي كل مجال، ولا حيلة لنا ، ولا مفر من تحمل هذه المسؤوليات ومواجهتها، والتعامل معها.. في مدرسة، وفي بيت.. في مسجد، وفي صحيفة.. في مجلة، وفي تليفزيون وجهاز راديو ، في ناد ثقافي أو أدبي أو رياضي، في مكتبة عامة وفي غيرها ولو فعلنا ذلك بأمانة وعلمية وواقعية.. ومسؤولية، لو فعلناه لأعدنا للبشرية سيرة الأبطال العظام من الغر الميامين أصحاب رسول الله ﷺ ، أولئك الذين صنعوا ، بفضل تربيته لهم، هذه الثقافة الإسلامية التي نكثر

الحديث عنها ، والتي نعتز بها.

وللعلم .. وفي الختام فإن هناك كلمة أخيرة واجبة ينبغي أن نتوجه بها لأنفسنا، وهي تتعلق بثقافتنا الإسلامية وحضارتنا التي نجيد التغني بها وبأمجادها في شتى المجالات، إننا نجيد الكلام، ونتفنن في التمجيد، ولكن الحديث وحده لا يعيد مجداً ، والتمجيد لا يبعث حضارة ، والاتكاء على وسادة التراث لا يوقظ أمة، وإنما العمل، والعمل الجاد ، والجهد الصادق، والعزم والإصرار ، والسهر والعرق والدموع، والصدق مع الله ، ثم مع النفس ، ومع الناس.. كل هذه الأمور مطلوبة إذا كنا نريد حقًا أن ننشئ أجيالاً - بالتربية الإسلامية - يعتمد عليها في المستقبل، بحيث تكون هذه الأجيال هي الركيزة الأساسية لعودة الحضارة الإسلامية ، ولبعث الثقافة الإسلامية ، ولا شيئ غير هذا.

الفصل الحادي عشر

التربية.. والغزو الثقافي

الفصل الحادي عشر

التربية.. والغزو الثقافي

مدخل :

في الفصل السابق تحدثنا عن العلاقة بين التربية والثقافة ، وعن أهمية تلك العلاقة في حياة المجتمع والأمة، ولقد عرضنا في بداية الفصل لعدد من النقاط أو الأفكار المتعلقة بالثقافة ، وقد اتخذناها بعد ذلك مرتكزات بنينا عليها المهام الملقاة على عاتق التربية والمربين، وسوف نسير على نفس الطريق في هذا الفصل إن شاء الله، ولكن لن نكرر الحديث عن التربية وعلاقتها بالثقافة، وإنما فقط سوف نستعيد مع القارئ النقاط الخاصة بالغزو الثقافي ، حتى نتذكرها ، في عجالة خاطفة، ثم نتخذها بعد ذلك مرتكزات نبني علهيا المهام التي نتصور أن على التربية أن تقوم بها ، وسوف نستعيد هذه النقاط مركزة غاية التركيز ، أي مجرد عناوين فقط .. كما يلي :

١. ابتلاء معظم بلاد المسلمين به.
٢. استدعاء الغزو الثقافي.
٣. كثرة مؤسسات الغزو الثقافي.
٤. الغزو الثقافي لا يقدم لنا إلا القشور.
٥. أثر الإعلام في حياة الأمة.
٦. تركيز الغزو الثقافي على الإنسان.
٧. وصول الغزو الثقافي لجامعاتنا .
٨. الانبهار بالغزاة.
٩. الإحساس بالدونية.
١٠. معضلة المدارس الأجنبية.
١١. المحصلة النهائية.
١٢. كنا نتنادى.

وقبل أن نتحدث عن مهام التربية ، بمؤسساتها المختلفة ، في مواجهة الغزو الثقافي بمؤسساته العديدة، وبخطورته التي سبق تبيانها، نقول بأنه إذا كانت للتربية مهام تقوم بها في المجتمع خدمة للثقافة ، ونشراً لها، وتحقيقا لأهدافها فإن ذلك هو الوضع العادي ، والذي تقوم به التربية في أي مجتمع.

أما حينما يأتي الحديث عن دور التربية في مواجهة الغزو الثقافي فإن الحديث هنا يدخل في عداد « حالات الطوارئ » (!!!) إن جاز التعبير ، إذ أن « الغزو الثقافي » لا يقل عن «الغزو العسكري » ، والمجتمعات لا تعيش دومًا في حالات طوارئ ، إنما هي تستنفر وتستنفر مؤسساتها لمواجهة حالات طارئة ، لا تستمر، ولا ينبغي أن تستمر لفترات طويلة، وإلا أنهكت الأمة، وأنهكت معها المجتمعات ، ولو استمرت حالة « الغزو » لفترة طويلة، ولم تستطع الأمة أن تواجهها، وأن تقضي عليها، فلربما سلّمت الأمة بالهزيمة، وقضى عليها، وضاعت وضاعت معها ثقافتها والعياذ بالله.

وعلى ذلك فإن هذا الفصل سوف يحاول التعامل مع قضية « الغزو الثقافي» وأدوار المؤسسات التربوية في مواجهتها باعتبار أن العلاقة بينهما، أي بين الغزو الثقافي والتربية علاقة حرب ، أو علاقة « حالة الحرب » لأن مؤسسات الغزو الثقافي جاءت إلى الأمة تبتغي هزيمتها في أعز ما تملك، في الإنسان، وفي ثقافته بكل ما تمثل ، فهي حرب معلنة.. في داخل الأمة، حرب بكل ما في الكلمة من معنى ، وإن خلت من قعقعة السلاح، وضجيج الدبابات، وأزيز الطائرات، إن صوتها هادئ .. ولكنه خطير، وأدواتها ناعمة.. ولكنها قاتلة، ووسائلها خادعة لينة.. ولكنها سامة، وعلى التربية ومؤسساتها أن تواجهها بهذا الفهم ، وبهذا الوعي حتى تستطيع أن تتعامل معها، وأن تفسد مخططاتها، وتقضي على مشروعاتها، وبالتالي تنزع سمومها وتهزم مخططيها، ولعلنا نقوم سويا نبحث في هذه الجوانب المتنوعة، في الحلقات الأجنبية المستوردة ، كما في التمثيليات المحلية المقلدة في البرامج المدرسية الغافلة، كما في الأنشطة الشبابية اللاهية... إلخ.

والآن ما هو دور التربية في مواجهة كل ذلك.. وماذا يمكن أن تفعل

ويفعل التربويون لمواجهة هذه الخضم الهائل من المشكلات التي تواجه الأمة نتيجة لهذا الغزو الثقافي الرهيب.. ؟ وقد يتسرع سائل ويقول وهل هذه الأمور كلها من المسؤوليات الملقاة على عاتق التربية والتربويين، وإذا كانت الإجابة بنعم.. فهل يستطيعون القيام بها، والنهوض بأعبائها.. ؟؟

والواقع أن هذه مسؤوليات لا فكاك منها، وأمانة لابد من حملها، والإشفاق منها لا يغني عن حملها حتى وإن ثقلت ، ولابد أن يتنادي التربويون فيما بينهم باتساع المنطقة العربية، قلب العالم الإسلامي، وخاصة أولئك الذين يعنيهم شأن أمتهم ، والذين يخشون على الأجيال الصاعدة من أبناء الأمة أن يجرفهم تيار ذلك الغزو الثقافي الرهيب في طريقه والعياذ بالله ، لأنه إذا حدث ذلك فإن المستقبل محفوف بالمخاطر ، والمآل غير مأمون.(*)

ولعلنا نمس بعض المجالات التي يمكن للتربية والتربويين أن يعملوا فيها في مواجهة « الغزو الثقافي » وذلك كما يلي :

(*) في هذا المجال يمكن لمن أراد التعمق في مهام التربويين وصلتهم بالاعلاميين أن يعود إلى ندوة طيبة عقت هنا في الرياض عام ١٤٠٣هـ بعنوان « ماذا يريد التربويون من الاعلاميين » وقدم فيها عدد كبير من البحوث من بينها :

- التنسيق بين العملين الإعلامي والتربوي.
- التعليم والاعلام من اجل تربية أفضل للمواطن العربي.
- أهداف الإعلام في دول الخليج العربي.
- مدى تأثير القيم العربية الإسلامية على برامج الأطفال في دول الخليج العربي.
- الإعلام والمؤسسة التعليمية / الطلاق الذي لم يكتمل الثلاث بعد.
- الإعلام الديني والتربية.
- وسائل الإعلام واللغة العربية.
- الإعلام والرسالة التربوية.
- التحدي الحضاري والغزو الفكري.
- اتجاهات الغزو الثقافي في الخليج العربي.
- آفكار حول الإعلام الديني.
- الإعلام والمعوقون في الخليج العربي.

أولا: ابتلاء معظم بلاد المسلمين بالغزو الثقافي .. ودور التربية:

وطالما أننا نكثر «الحديث» عن الأمة العربية، وكذا الأمة الإسلامية، فإن هذا الحديث - حتى يكون ذا قيمة - ينبغي أن يتبعه « عمل » .. أو «فعل».. من جانب علماء ومفكري ومخططي الأمتين العربية والإسلامية. ولأن التفكير والتخطيط للأمة الإسلامية، باتساع العالم، قد يكون فيه شيئ من الإسراف في التعميم وعدم الدقة، لاتساع المساحات، وتباعد المسافات، واختلاف الأوضاع والظروف فإننا سوف نركز حديثنا - في هذا المجال - على المنطقة العربية فحسب، وفي يقيننا أن ذلك يكفي الآن، خاصة وأن هذه المنطقة العربية هي قلب العالم الإسلامي من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن ما قد يطبق فيها من إصلاحات تربوية يمكن بعد ذلك نقله واقتباسه لباقي مناطق العالم الإسلامي ، لو ثبتت فائدته أو فوائده عندنا.

ونبدأ بمنطقتنا العربية فنقول إننا جميعًا - وبالفعل - مبتلون بأشكال «الغزو الثقافي » ، بصورة أو بأخرى، فقد يكون ذلك الغزو واضحًا وصريحًا في بعض بلدان منطقتنا، وقد يكون متخفيًا مستتراً في بعضها الآخر، قد يكون إيقاعه سريعًا وصوته عالٍ ومزعج في بعضها، بينما هو بطيئ الإيقاع في البعض الآخر، ويتقدم إليه أو فيه على استحياء، ولكنه هناك على أي حال ويسير سيراً حثيثًا نحو أهدافه التي رسمها له واضعوه.

المهم أنه - أي الغزو الثقافي - هناك ، في بلادنا كلها، ودون استثناء ، في التعليم بمناهجه.. وخططه.. وبرامجه.. ومناشطه.. ومدارسه الأجنبية، وقد درسنا ذلك بشيئ من التفصيل في صفحات وفصول سابقة من هذا الكتاب، وفي الإعلام هو موجود كذلك في التليفزيون كما في الراديو، وفي الصحف كما في المجلات، في البرامج المتنوعة نجد ذلك الغزو ، فمن يكون أقدر من علماء التربية المسلمين على فحص ودراسة وبيان أهداف تلك المدارس تنبيها للأمة وتعريفًا، ومن يكون أقدر منهم على تنفيذ المناهج والبرامج والخطط التعليمية، وكذا أهداف الأنشطة الصفية واللاصفية.. ؟ من أقدر من علماء التربية

المسلمين على دراسة مخرجات هذه المدارس الأجنبية وبيان مخاطرها ومخاطر مخرجاتها (خريجيها) على الأمة وعلى مستقبلها..؟

ثم .. وحتى نكون علميين وعمليين، من يستطيع أن يقترح وأن يستبدل مناهج وبرامج وخطط هذه المدارس بأخرى تخدم الأمة الإسلامية، وتعد أبناءها لخدمة مجتمعهم.. لا لتغريبه والانحراف به بعيداً عن دينه وعقيدته..؟ ومن بعد هذه الاقتراحات العلمية بالمناهج والبرامج والخطط، بل وأوجه النشاط كلها، من يستطيع أن يكتب للأمة محذرا من خطورة تلك المدارس بحيث تفيق فلا ترسل أبناءها بأيديها إلى تلك المدارس كي تعمل على تغريبهم ، وتخريب عقولهم، ونزع شخصياتهم، والانحراف بعقيدتهم بعيداً عن نبعها الصافي وطريقها القويم..؟

ومن غير علماء التربية الإسلامية يستطيع أن يكتب للمسؤولين يبين لهم مخاطر السماح لأصحاب هذه المدارس بافتتاحها على أرضنا وبين ظهرانينا، مهما كانت حججهم بشأن افتتاحها وإقامتها وإدارتها..؟ إن تنبيه المسؤولين ، وتوعية المواطنين بمخاطر هذه المدارس لمن أوجب الواجبات على رجال التربية المسلمين، كل في منطقته أو إقليمه، ثم إن هناك واجبا آخر يتمثل في تواصل التربويين باتساع المنطقة العربية كي يتناصحوا.. كل فيما عنده، يمدون بعضهم بالبيانات والمعلومات، ويجلسون إلى بعضهم في الندوات العلمية والمؤتمرات، ويتعاونون متآزرين في تنفيذ ما قد يخرجون به من توصيات.

ولو مددنا بصرنا إلى مجال الإعلام لوجدنا أن مسؤوليات التربويين غير هينة وغير بسيطة ، في كل مجال من مجالات الإعلام، أذكر هنا قصة سريعة ذات دلالة في هذا الجانب، فلقد حضرت جلسات الندوة التي سبق وأن أشرت إليها، وهي ندوة « ماذا يريدي التربويين من الإعلاميين » ، وقد نظمها «مكتب التربية العربي لدول الخليج » بالتعاون مع وزارات الإعلام في دول المنطقة (منطقة الخليج العربية)، وأذكر أننا نحن التربويين قد أكثرنا من الهجوم، وأحيانًا الهجوم الشرس ، على البرامج الإعلامية في المنطقة، وبالتالي على الإعلاميين، وكان يجلس بيننا عدد من وزراء الإعلام في دول الخليج

العربية، وكان من بينهم الدكتور محمد عبده يماني، وزير الإعلام السابق في المملكة العربية السعودية.

وجلس الرجل يستمع إلينا هادئا على مدار عدد من الجلسات التي امتدت ليومين أو ثلاثة، وأنا ـ في حقيقة الأمر ـ أتعجب، فهل كل ما نقوله صحيح إلى الحد الذي جعل الوزراء يصمتون ولا يتكلمون، وإذا كان صحيحًا هذا الهجوم على أعمال وزاراتهم فلماذا لا يقف أحدهم ليعلن أن الرسالة قد وصلتهم، وأنهم ـ من ثم ـ سوف يصلحون أحوال من استرعوهم في وزاراتهم..؟

أخيراً طلب الرجل الكلمة، وأذكر أنه قال لقد استمعت إليكم طوال الجلسات الماضية، ووعيت كل ملحوظاتكم وأنا أوافقكم على معظمها ، فقلت في نفسي هذه والله بداية يشكر عليها الوزير السعودي، وصراحة غير متوقعة من مسؤول في أكبر موقع عن الإعلام، وأعترف أني شعرت بالاعتزاز لأن بعض إخواني من علماء التربية استطاعوا أن يمسوا نقاطا حساسة في الإعلام الذي نعتبره وثيق الصلة بالتربية، كما استطاعوا أن يجعلوا وزير الإعلام يعترف بسلامة ملحوظاتهم وبعلميتها، ولكن وللامانة فإن شعوري بالاعتزاز هذا ما لبث أن تبخر حين استدار الرجل ـ الدكتور محمد عبده يماني ـ نحونا بهدوئه المعروف ليسألنا نحن أساتذة وعلماء التربية قائلا :

إذا كانت برامجنا الإعلامية بهذا السوء الذي وصفتم، من تليفزيون إلى راديو ، إلى صحف ومجلات، فمن المسؤول عن الكفاءات البشرية التي وظفناها في جميع هذه المجالات.. في مؤسستنا الإعلامية الكبرى ..؟ ألستم أنتم يا أساتذة الجامعة.. وجميعكم تربويون .. الذين أعددتموهم لنا، ووضعتم لهم المناهج والبرامج والخطط الدراسية، ثم درّستموهم، وأعددتموهم، ثم خرجتموهم لنا كي يعملوا في هذا المؤسسة المجتمعية المهمة والخطيرة كما تقولون..؟؟ أعيدوا التفكير في برامجكم ومناهجكم وخططكم، وأعيدوا التفكير في خريجيكم ، وفي طلابكم، ووافونا بعناصر أفضل منهم، وساعتها ـ إن فعلتم ذلك ـ تعالوا لنجلس معا.. ثم حاسبونا..

أقول لكم الحق.. كان الرجل معه الحق.. كل الحق، وقد وضع التربويين أمام مسؤولياتهم، ومن هنا فنحن مطالبون بانتقاء العناصر التي ينبغي أن نقبلها - بداية - في جامعاتنا كي ندرس لها الإعلام، وكي تتخصص في مواده ومقرراته وميادينه، كما أننا مطالبون بمراجعة مناهجنا وخططنا (ولعلنا لازلنا نذكر المثال الذي سقناه قبل ذلك من قسم الإعلام في كلية الآداب، بجامعة بغداد، والذي ألمحت فيه إلى الضعف الشديد في مقررات الإسلام واللغة العربية الذي يعمل على تخريج شباب يتولون مسؤوليات لم يعدوا لها إعدادا علميا سليمًا في إطار معتقدات الأمة ومقدساتها.

كما أن علينا واجب أن نفحص كل ما يقدم من برامج لمجتمعاتنا وخاصة ما يقدم منها للناشئة من أبنائنا، وأن نضع من المعايير العلمية ما نستطيع بواسطته أن نقيس الصالح من هذه البرامج فيجري تدعيمه، والطالح فيجري الإعلان عنه، وبالتالي المطالبة باستبعاده، ثم إن دراسات المحتوى وتحليله Content Analysis من مهام أساتذة الإعلام والتربية حتى بيِّنوا للمسؤولين عن الإعلام ما تحتوي عليه بعض البرامج من قيم هابطة تبتعد بالشباب عن دين أمتهم وعن العقيدة الإسلامية الغراء.

إن كل البرامج الآتية من مجتمعات غير مجتمعاتنا، أي التي نستوردها من الخارج ينبغي أن تعرض على لجان متخصصة من أساتذة التربية والإعلام كي يروا رأيهم فيها قبل أن تقدم للمجتمع من خلال أجهزة التليفزيون بالتحديد، ومن ناحية أخرى· فإن البرامج التي تعد محليًا ينبغي أن تمر من خلال قنوات اللجان العلمية التي يفترض فيها الأمانة والموضوعية والبعد عن الهوى، من بدايات تأليفها ثم قبولها أعمالاً إعلامية، ثم إخراجها وتمثيلها، حتى لا نخدع أنفسنا ونقول إنها محلية وبالتالي فهي مقبولة أصلاً ، لأن بعض الأعمال المحلية - للأسف الشديد - قد يكون هابطًا وخارجا، ربما أكثر من المستورد من الخارج، لأن بعض من يعيشون بيننا من أبناء أمتنا - للأسف الشديد ثانية - فعل فيهم التغريب فعله، وبالتالي فأعمالهم أقرب إلى الهدم والتخريب منها إلى البناء والتعمير.

ثانيًا : التربية.. وظاهرة استدعاء الغزو الثقافي :

وهذه الظاهرة - استدعاء الغزو الثقافي، تمثل كارثة مؤلمة في حق أبناء الأمة العربية الإسلامية من المسؤولين عن التربية والإعلام بالتحديد لعدة أسباب نوجزها فيما يلي :

١- أنهم بالدرجة الأولى فقدوا ثقتهم في أنفسهم ومجتمعاتهم بما فيها من خبرات، فراحوا يستوردون من الخارج أفلامًا ومسلسلات ومسرحيات وبرامج أثبتوا هم بما لا يدع مجالاً للشك أنهم عاجزون عن إنتاج أمثالها مع توجه سليم.

٢- أنهم أودعوا ثقتهم في أعداء مجتمعاتهم وأمتهم ، فراحوا يستوردون لأبنائها ما يغذون به عقولهم وشخصياتهم مما لا يعرفون خطورته، أو مما يعرفونه ويعرفون مخاطره، ولم يهتموا بمستقبل الأجيال من أبناء أمتهم، ولو كانوا من الذين يستوردون مواداً غذائية - مثلاً - لكان عليهم أن يهتموا بنوعية ما يستوردون، ولسألوا عن تاريخ صلاحيته، ولكن يبدو أن اهتمامهم بالعقول والشخصيات وغذائها لا يرقى - عندهم - إلى درجة الاهتمام بغذاء الأجسام.. !!

٣- والسبب الثالث قد يرجع لأنهم لا يهتمون ولا يفكرون فيما يستوردون من خارج مجتمعاتهم، وكل ما فكروا فيه هو ملء ساعات الإرسال في وسائل إعلامهم وحسب ، وهذه مشكلة كبيرة لأن النوعية تغيب عن عيونهم، ولأن الهدف من وسائل الإعلام - أصلاً - لا يعملون له حسابًا ، وربما لم يفكروا فيه من البداية.

أما دور التربية هنا فهو مهم وخطير، وينبغي أن يبدأ من الجذور، من بدايات إعداد كفاءات علمية إعلامية على مستوى رفيع ، في كليات ومعاهد إعداد الإعلاميين ، إن كانت موجودة في جميع بلادنا العربية، وهي على وجه

اليقين موجودة في بعضها، وينبغي الاستفادة مما هو منها قائم بالفعل.(*)

إن برامج إعداد الإعلاميين، كما هي برامج إعداد التربويين، ينبغي أن تشتمل على عدة حقول أساسية لا يتهاون فيها هي : الإعداد العلمي، وهذا الحقل يتضمن كل ما يندرج تحته من علوم الإعلام الحديثة من إخراج وإعداد وإنتاج وتقنيات حديثة لا يستغنى عنها ، وفي هذا المجال ينبغي أن تكون الدراسة فيه متابعة لأحدث المستجدات العلمية والتقنية في المجال ، حتى لا نخرج إعلاميين متخلفين عن غيرهم في المجتمعات الأخرى ، ثم نعود لنجري وراء الآخرين بحثًا عن علم وعن تدريب.

الحقل الثاني هو الحقل الثقافي العام ، وذلك يتطلب تدريس الشباب مقررات في ثقافة مجتمعهم العربي المسلم، تضع أيديهم على جذور الثقافة العربية الإسلامية لأنهم سيأخذون من هذه الثقافة ما يصلح أن يكون موادا لبرامجهم الإعلامية ، بحيث ينتقون من تلك الثقافة أفضل ما فيها ، لكي يعملوا على الارتقاء بذوق مجتمعاتهم، ولا ينبغي أن يأخذوا منها أموراً تهبط بأذواق المشاهدين تحت بعض الدعاوي التافهة التي تقول بإرضاء الجمهور، أو أن الجمهور يريد هذاأو ذلك، إذ المفروض أن وسائل وأجهزة الإعلام هي التي تقود مجتمعاتها وليس العكس.

الحقل الثالث يتعلق بالبعد التربوي الذي ينبغي أن يركز عليه في إعداد الإعلاميين ، خاصة إذا آمنا بأن الإعلامي هو إنسان تربوي بالدرجة الأولى، ولا مناص من الإيمان بذلك، إذا وعينا دور الإعلام الحقيقي في حياة الأمة. وهنا ينبغي أن يشترك أساتذة التربية في وضع الخطط الدراسية لكليات الإعلام، حتى يضمِّنوها ما يرونه مناسبًا من مقررات تربوية تتعلق بفنون التدريس المختلفة، وفنون التعامل مع الناس، وفنون توصيل المعلومات إليهم بأفضل الطرق والوسائل ، تمامًا مثلما تدرس لطلاب كليات التربية من طرق التدريس

(*) توجد كلية للدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وهي تعد الشباب في مجال الدعوة الفني والعلمي، وهذا الجمع الواعي بين الدعوة والإعلام ينبغي التركيز عليه في باقي مؤسساتنا الإعلامية باتساع العالم العربي الإسلامي.

العامة، وكذا الطرق الخاصة ، بالإضافة إلى مقررات في علم النفس التربوي، حتى يعرف الإعلامي كيفية فهم جمهوره، وكيفية التعامل مع مواطنيه.

والحقل الرابع يتعلق بأمر اللغة.. لغتنا العربية، لغة القرآن الكريم والتي لا ينبغي التهاون بشأنها إطلاقًا في مجال إعداد الإعلاميين. إن مذيعًا تليفزيونيًا ، أو إذاعياً لا يعرف كيف ينطق اللغة العربية نطقًا سليمًا يمثل مشكلة حقيقية لأنه ينقل جهله باللغة إلى آلاف ، وربما ملايين المشاهدين، ونفس الكلام يمكن أن يقال عن معدي البرامج، والكتاب المستديمين الذين تتعامل معهم أجهزة ووسائل الإعلام، خاصة ونحن نعرف أن نسب الأمية في بعض مجتمعاتنا هي نسب عالية، وبالتالي فإن المشاهدين والمستمعين أصحاب هذه الفئة ـ الأميون ـ يتلقون ما يستمعون ويشاهدون وكأنه هو الصواب مما يهبط بمستوى اللغة العربية في مجتمعاتنا بشكل مخجل.

وأخيراً نصل إلى الحقل الخامس، وهو حقل الدين الإسلامي الذي ينبغي أن يركز على علوم بعينها- من علومه ـ من كليات الشريعة وأصول الدين، بحيث يتخرج الإعلامي من جامعاتنا وهو واع تمامًا لعقيدته الإسلامية وأصول دينه، بحيث لا يكتب برنامجًا يتصادم معها ، وبحيث ينتقي مما يأتي من الخارج ما يتمشى فقط مع هذه العقيدة ولا يتصادم معها. كما أنه ينبغي أن يكون متمكنًا من تاريخ أمته العربية والإسلامية بحيث لا يسمح بما يدس ضد هذه الأمة، ولا بما يشوِّش أذهان الشباب والناشئة من أبناء مجتمعنا العربي المسلم، والذين باتت طوائف كبيرة منهم، باتساع العالم العربي، لا تعرف من تاريخ المسلمين وتراثهم إلا التوافه التي أدخلت عليها ، والأمثلة كثيرة جداً ومتنوعة من الأفلام والتمثيليات والبرامج المختلفة التي شوشت عقول الكثيرين منهم، وكمثال على ذلك ـ مثال فقط ـ نذكِّر بما يكتب وينشر ويذاع عن الخليفة المسلم هارون الرشيد الذي كان يغزو عامًا ويحج آخر ، وكيف صوِّر وصورت بغداد عاصمة الخلافة في عهده، ذلك العهد الذي شهد نهضة علمية وثقافية إسلامية هائلة بزَّت فيها الأمة الإسلامية الامبراطورية الرومانية بمراحل، ولعلنا نتذكر ونعرف كيف تُركت إنجازات المسلمين في تلك الفترة وركز فقط على ما عرف

بلياليّ بغداد، أو ليالي هارون الرشيد.. !!

ثالثًا : التربية.. وظاهرة كثرة مؤسسات الغزو الثقافي :

كما رأينا في فصل سابق فإن الغزو الثقافي له مؤسسات عديدة ومتنوعة قد لا نعرفها كلها، وقد لا يتصور البعض منا أنها تعمل في مجاله، أو تستهدف أعماله، فهناك الكنائس التي تنفث سمومها التنصيرية بين عدد غير قليل من مجتمعاتنا وهذه واضحة ومعلنة، والناس يرونها ويتوقعون منها ما تقوم به، وهناك المدارس الأجنبية ، وما تستهدفه من عقول ونفوس وشخصيات أبنائنا الأطفال والشباب الصغار، كما أن هناك بعض الجامعات التي زرعت في بعض مجتمعاتنا العربية، والجامعة الأمريكية في بيروت ، وفي القاهرة مثالان واضحان على ذلك ، كما أن هناك إرساليات تنصيرية وفرق للسلام تطوف ببعض مجتمعاتنا ، من وقت لآخر، بالإضافة إلى العديد من الأفراد الذين قد لا نتصور قيامهم بمهام خطيرة في مجال « الغزو الثقافي »« ، ومنهم بالذات طائفة الأطباء . (*)

إن ظاهرة كثرة مؤسسات الغزو الثقافي هذه حرية بأن تجعل كل المؤسسات التربوية في مجتمعنا العربي المسلم تتنادى فيما بينها ، مستشعرة الخطر، وعاملة على توضيحه للأمة كلها، وبيان مخاطره ، بل وبيان المآسي التي يمكن أن يقود الأمة إليها، وكل من هذه المؤسسات يعمل في مجاله في هذا البعد.. أي بيان مخاطر الغزو الثقافي الذي تقوم به مؤسسات الغزو الثقافي.

(*) يذكر المؤلف أنه كان في مهمة علمية في الباكستان أيام الجهاد التي أتلفها الأفغان حاليًا بخلافاتهم وصراعاتهم، وفي أحد مطارات الباكستان التقيت بشخص أمريكي كان يودع ابنه وابنته وكان متخوفًا عليهما ، وكان عمر الولد ١٣ عامًا، والبنت ١١ عامًا ، ولما رأيت لهفته وخوفه عليهما طمأنته بأني مسافر معهما على نفس الرحلة وسوف أساعدهما ما استطعت ، وفي داخل المطار ونحن بانتظار الطائرة سألت الطفلين عما يعملان بالباكستان فقالا بأنهما يعملان بالتبشير (هكذا.. !!) مع والديهما اللذين يعملان في الطب في بعض القرى القريبة من العاصمة « إسلام اباد » ، وهما - الطفلان - يذهبان لبيوت المرضى ويعطونهم (الانجيل) ويدلونهم على النظافة وغيرهما، وقد نشرتُ مقالة بهذا المعنى في حينه في مجلة « الدعوة » السعودية بعنوان « حتى أطفال النصارى تجرأوا على حمانا.. !! ».

وليس هناك من عذر لمؤسسة تربوية ألا تعمل ، وألا تنشط في هذا المجال، إذ يفترض أن كل مؤسسة تربوية في المجتمع المسلم من المحتم تعي وأن تفهم أنها على ثغرة من ثغرات المجتمع المسلم، وأن تحذر ، ويحذر العاملون فيها أن يؤتى المسلمون والمجتمع المسلم من قبلهم.

والمسجد أول هذه المؤسسات التربوية التي ينبغي عليها، من خلال أئمتها ووعاظها، أن تتنبه لخطورة قضية « الغزو الثقافي » ، وأن تتحسس مواقع الخطر في حياة مجتمع المسلمين، وأن تعرف عوامل ذلك الغزو وعناصره، ثم من بعد معرفة عليها أن تشخص مصادر الداء، فهل هو - الغزو الثقافي - آت من الفضاء .. أي من القنوات التليفزيونية ، أم أن مبعثه وسائل إعلامنا نحن .. على الأرض، أم هل هو متمثل في عدد المدارس الأجنبية، ذات المناهج المنحرفة، والأنشطة المشبوهة ، أم أن هناك عيادات لأطباء أجانب يمارسون فيها الطب ستاراً لأعمال أخرى ينحرفون من خلالها بمرضاهم عن دينهم وعقيدتهم، مستغلين ثقة هؤلاء المرضى، وخاصة البسطاء ، فيهم وبالتالي يعطونهم - مع جرعات الدواء - جرعات أخرى من السموم التي قد لا يعون خطورتها آنيًا ، ولا تتضح آثارها في عقولهم وشخصياتهم وأرواحهم إلا في المدى البعيد..[1]

ومن بعد أن يحدد أئمة المساجد ووعاظها مصدر الخطر للغزو الثقافي في المجتمع الذي يوجدون فيه عليهم أن يشخِّصوا بوعي وأن يحددوا أساليب عمل مؤسسات ذلك الغزو ، لأنه لا يمكنهم أن يواجهوا هذه الأساليب إلا بعد تشخيص دقيق، ومواجهة هذه الأساليب لابد وأن تكون عاقلة هادئة .. وعلمية، قدر المستطاع، لأن الصراخ من فوق المنابر وسب أصحاب « الغزو الثقافي » لا يحل المشكلة، ولا يواجه الخطر، وإنما الإمام المسلم الواعي هو الذي يجمع البيانات لموضوع خطبته ، وهو الذي يحدد أبعاد الخطر الذي عنه يتحدث ويعظ،

---

(١) يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب د. عبدالرحمن السميط : رحلة خير في إفريقيا.. رسالة إلى ولدي ، مطبعة الفيصل، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٢م » وهو عبارة عن مذكرات حية وواقعية لمسها المؤلف من خلال نشاطه الميداني الدعوى في أدغال إفريقيا وغاباتها، وقد بين فيه الكثير من نشاطات المنصرين بين مجتمعات المسلمين هناك ، وقد ركز على عمل الأطباء منهم ، والتي وعاها جيداً ، خاصة لأنه هو نفسه طبيب.

وهو الذي ينبه ـ في هدوء وحكمة ـ مستمعيه إلى مكامن الخطر فيما حوله، وقد يكون من بين هؤلاء نفر من المستمعين الذين ستشدهم « علمية » الإمام ، ووعيه بموضوع خطبته، ومن هنا قد تكون بداية الخيط، فقد يبدأون في جمع المعلومات بأساليبهم الخاصة ، وقد يسألون الإمام عن حكم الشرع فيما يقول، ومن هنا يضرب الإمام عصفورين بحجر واحد..

ثم إن شحذ همم المسلمين جميعًا ، واستثارة وعيهم بما حولهم من مخاطر « الغزو الثقافي » يجعل الميدان الذي يعمل فيه عملاء ذلك لغزو ميدانًا ذكيًا واعيا محصنًا ضد ألاعيبهم وحيلهم، وليس هناك أصعب على هؤلاء العملاء من مجتمع واع حصيف فاهم متعلم، يعرف أهدافهم ومراميهم، ويعرف كيف يواجههم ويفوت الفرص عليهم، ولن يكون مجتمع المسلمين كذلك إلا إذا كان علماؤه وأئمته وخطباؤه على درجة عالية جداً من الوعي بأساليب ذلك الغزو وبمؤسساته التي تعمل له في محاولة لهدم مجتمعات المسلمين وتخريب عقيدتهم، والله من ورائهم محيط.

رابعًا : الغزو الثقافي والقشور التي يقدمها للمسلمين.. ودور التربية:

إن الناظر في أحوال الأمة الإسلامية، في معظم مجتمعاتها، باتساع الكرة الأرضية، يرى عجبًا ، حيث يلمح أننا بالفعل نجري خلف قشور الحضارة الغربية، وليس خلف الأسس التي بنيت عليها تلك الحضارة التي تسود الأرض الآن وتلف مجتمعاتها. وبداية فإن من المحتم علينا أن نعترف بأنها تتفوق على غيرها من الحضارات، وأنها تدخل إلى كل بيت من بيوتنا ، ولكن ذلك يتم فقط في الجانب المادي، حيث أن هذه الحضارة لا تهتم على الإطلاق بالجانب الروحي من حياة الإنسان، بل إنها طلقت هذا الجانب من حياتها تمامًا منذ إرهاصاتها الأولى في أوروبا حين فصلت الدين عن العلم وعن التعليم، بل وعن الحياة ذاتها ، وكان ذلك لأسباب خاصة بمجتمعاتها هي، وبمعاناة تلك المجتمعات من رجال الكنيسة الذين أساءوا للديانة النصرانية أيما إساءة ، حين منحوا أنفسهم، دون وجه حق، سلطات انحرفوا بها عن عقيدتهم انحرافات رهيبة، تمثلت في

محاكم التفتيش التي طاردت العلم والعلماء، والتي قضت على كل فكر حر، وصادرت رأي كل عالم أراد أن يبين للناس فكرة جديدة، أو رأيًا سديداً، حتى إن بعضهم قد حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه فعلاً ، ويضاف إلى ذلك ما ادعته الكنيسة وادعاه معها من نسبوا أنفسهم إليها من حق إدخال الناس الجنة، وبيعهم لهم ما عرف باسم «صكوك الغفران»، وكان أن اغتنى هؤلاء النصابون «رجال الكنيسة» على حساب الطبقات الجاهلة من أبناء الشعوب الأوروبية.

المهم أنه حين بدأ عصر النهضة وعصر التنوير في أوروبا ، وبدأ الناس يتجهون ناحية العلم والتجريب، حين أرادوا أن يفعلوا ذلك وجدوا أن الكنيسة ورجالها يقفون حجر عثرة في طريقهم فكان أن أزاحوهم جميعا من الطريق، وانطلقوا في طريق العلم لا يلوون على شيئ ، لا يحكمهم دين، ولا توجههم قيمة، ولا يوجه بحوثهم مبدأ، إلا مبدأ الاكتشاف والنجاح، وتحقيق أهداف بحوثهم العلمية وكشوفهم، وكانت النتيجة انطلاق مارد العلم المادي الجبار، وانفلاته دون قيود أو حدود أو سلطان، وكلما نجحوا في تجربة انفتحت أمامهم أبواب تجارب أخرى.. والنجاح - كما هو معروف - يغري بالنجاح، فدارت مصانعهم ومعاملهم.. بل ومزارعهم بقوة البخار ثم بقوة الفحم، ومن بعد ذلك بقوة البترول والكهرباء والذرة، وهم الآن يبحثون عن الطاقة وتوليدها من الشمس ومن غيرها.

وأثناء هذه الاكتشافات والنجاحات احتاجوا للأموال وللمواد الخام وللأسواق يصرِّفون فيها منتجات مصانعهم ، فاندفعوا دون توقف يستعمرون دول العالم الثالث ، أو النامي ، يستنزفون ثرواتها ، ويخربون مقدراتها، بل وفي أحيان كثيرة يستعبدون شعوبها ، وينقلون البشر أنفسهم من أراضيها، غصبا وبقوة السلاح، بالملايين كما فعلوا، في أكبر حركة استعباد في التاريخ، عندما نقلوا ملايين البشر، دون أدنى مبالغة ، من أواسط إفريقيا ، وذهبوا بهم إلى العالم الجديد (الأمريكتين) كي يخدموهم في مزارعم، بحيث كان الإنسان من هؤلاء التعساء يعامل معاملة لا يمكن تخيلها .. يباع ويشترى مع الحيوانات ومع المزارع ، دون رحمة أو ضمير.

ولما كثر السلاح ـ نتيجة للعلم وتطبيقاته ـ انفلتت به أيديهم بفعل عدم وجود سلطان من دين أو عقيدة، فقامت حربان عالميتان رهيبتان، بدأتا من أوروبا ، حصدت فيهما أرواح الملايين من أبناء العالم كله، وخاصة في الحرب الأخيرة التي انتشرت باتساع العالم، والتي انتهت بضرب مدينتين يابانيتين بالقنابل الذرية حيث راح نتيجة لذلك مئات الألوف من البشر في دقائق معدودة.

المهم هنا هو ما قدمته الحضارة الغربية لشعوب العالم من قشور تافهة تتمثل الآن في قضايا الاستمتاع الحسي من أمثال التليفزيون ببرامجه التي تشد أبناء مجتمعاتنا للجلوس أمامها ، دون علم أو عمل أو إنتاج، والتي تضيع معها ملايين الساعات من أوقاتنا وأعمارنا، والتي كان من الممكن أن تستثمر في العمل والإنتاج بحيث تعوض شيئًا من المسافات التي تفصل بيننا وبينهم في ميادين العمل والإنتاج، كما أننا استوردنا منهم الكثير من التفاهات من أمثال الاحتفالات بأعياد لا علاقة لنا بها، والجري وراء الموضات وتسريحات الشعر، التي صارت تتخصص فيها مجلات تافهة أصبحت تجذب المرأة والفتاة المسلمة بشكل ينذر بالخطر، واختيار ملكات الجمال، بل وصرنا نستورد ونستنسخ محلات الأكل كما هي عندهم مثل محلات الآيس كريم وغيرها وكأن هذه هي الحضارة بالفعل.

والتربية .. بمؤسساتها العديدة.. مطالبة بأن تقف من هذه القضية وقفات حاسمة تبين فيها أنه ليس بمثل هذه التفاهات تتقدم المجتمعات وتبنى الحضارات . إن علينا أن نبين لأجيالنا الصاعدة كلها أن الدين الإسلامي دين علم ودين عمل بالدرجة الأولى، وأن منطقتنا العربية لم تظهر إلى العالم كمنطقة حضارية ذات إشعاع متميز إلا يوم أن خرجت منها طوائف من أبناء المسلمين ينشرون العلم والعمل والإتقان فيهما تحت مظلة الدين الإسلامي الذي نزل دستوره « القرآن الكريم » وأول آياته ﴿ اقرأ .. ﴾[٢] وقد أسهمت الحضارة الإسلامية بتقديم مئات ومئات من العلماء المبدعين في جميع المجالات، في علوم الدين،

(٢) يمكن الرجوع في هذا المجال الرجوع لكتاب المؤلف : التربية والتنمية في الإسلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وقد سبقت الإشارة إليه في هذا البحث.

كما في علوم الدنيا على السواء ، وكانت إسهاماتهم في مجالات تخصصاتهم مصابيح هداية لأجيال كثيرة من بعدهم.

وحتى لا نقع ضحية للقشور التافهة التي تقدم لنا من حضارات الغرب علينا أن نبدأ السلم من أولى درجاته عن طريق تقديم حضارة أسلافنا المسلمين العظام للصغار من أبنائنا في مدارسنا بحيث يتعلمون كيف جد هؤلاء الأجداد العظام واجتهدوا ، وكيف واصلوا الليل بالنهار قراءة وتأليفًا، وبحثا وترجمة ، وتجريبا واختراعًا ، وأن نعرِّف هؤلاء الأبناء قيمة العلم في حياة الأمة، وقيمة العمل في بناء مستقبلها، وقيمة الإتقان في احترام منتجاتها، وقيمة الإنتاج ذاته في عدم الاعتماد على الآخرين، وفي عدم الاستدانة من شعوب وحكومات لا تكن لنا أي حب أو ود.

وحين يكبر أبناؤنا علينا أن نضع أقدامهم على بدايات العلم عن طريق النشاط العلمي في المدارس والمعاهد ، وعن طريق الاشتراك في الجمعيات العلمية، بحيث يشجعون على البحث قدر استطاعتهم، ولعلنا نراجع التقارير العلمية التي تقول بأن كثيرا من الشباب المخترعين يسجلون في دولة مثل اليابان .

ومن جانب آخر فإن علماءنا الذين يجدّون في معاملهم ومختبراتهم في جامعتنا ومراكز بحوثنا ينبغي أن ينالوا التشجيع الكافي، بحيث يجدون ما يحتاجون إليه هم بأشخاصهم، ويجدون ما تحتاجه بحوثهم، حتى لا يفروا من مجتمعاتهم إلي مجتمعات أخرى تقدر البحث والعلم، وتقدر العاملين في مجالهما،[٣] بل وتجتذب علماء الدول الأخرى إليها عن هذا الطريق.. أي طريق تشجيع البحث العلمي، وتشجيع العلماء. [*]

---

(٣) يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب المؤلف : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب ، الرياض.

(*) يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب المؤلف : «هجرة العلماء من العالم الإسلامي»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤هـ، أو في طبعته الثانية دار عالم الكتب، الرياض.

ثم إن دولنا الإسلامية، في المنطقة العربية مطالبة بأن تولى العلم والعلماء ، في كل مجال، من العناية والرعاية كل ما يستحقون، وأول استحقاقاتهم هو توفير الأموال المطلوبة للبحث العلمي ، خاصة وأننا نعلم ، ومن خلال الأرقام المعلنة ، أن ميزانيات البحث العلمي في بلادنا ، جميعًا وبلا استثناء ، لا تفي بحاجة ذلك البحث ، كما أنه ليس هناك مجال للمقارنة بيننا وبين الدول المتقدمة في هذا المجال، حيث ترصد هذه الدول مئات البلايين من الدولارات دون مبالغة ، لعلمها أن العائد من البحث العلمي والاستثمار فيه من أهم الأمور في حياة الأمم والشعوب، بينما إنفاق مجتمعاتنا على هذا البحث ـ إن وجد ـ فهو ضئيل .. ضئيل بكل المعايير، ويكفينا القول إنه لو أنفقنا على البحث العلمي ما ننفقه على مباريات كرة القدم ، أو على فوازير رمضان، أو على الحفلات الاستعراضية والغنائية التي تقام في بعض مجتمعاتنا، أقول لو أنفقنا تلك الأموال على البحث العلمي والتطوير لكان حالنا غير الحال التي نحن عليها الآن.

خامسًا : التربية في مواجهتها لآثار الإعلام:

وهذا الدور من أخطر الأدوار لأنه يواجه، أو ينبغي أن يواجه ، الإعلام المنحرف في حياة الأمة الإسلامية ، خاصة في منطقتنا العربية، قلب العالم الإسلامي، وبالذات في هذه الأيام التي تركز فيها الأقمار الصناعية على منطقتنا كي تبث إليها بثها المباشر الذي أصبح يأتيها من فوق الحدود ، دون اعتبار لأي فواصل عقدية أو اجتماعية أو ثقافية، وبعد أن أصبح المواطن العربي في جميع أقطارنا العربية، في المدن والقرى ، في الكفور والنجوع والهجر، أصبح أسيراً لذلك الجهاز العجيب ـ التليفزيون ـ بألوانه وموسيقاه، بتمثيلياته وأفلامه وبرامجه التي لا تنقطع على مدار ساعات اليوم.. ليل نهار.. وطوال أيام الأسبوع..!!

لقد أدرك أعداؤنا خطورة هذه المؤسسة الرهيبة ـ الإعلام ـ في تشكيل شخصيات الناس ، وفي تغيير قيمهم وعاداتهم وإدخال قيم وعادات أخرى لا تمت إلى ثقافاتهم بصلة، فصدَّرت إلى مجتمعاتنا الجريمة بأشكالها المختلفة،

وانتقلت إلى شبابنا أساليب في الحياة ما كان لهم بها من عهد من قبل، وحوصرت المرأة والفتاة العربية المسلمة وسط موجات من الاستهانات بالقيم الطيبة ، والعرض والشرف، وأصبحت الممثلات والممثلون قدوة لآلاف من شبابنا وشاباتنا، وصرنا نستمع في بيوتنا لأمثلة غريبة علينا صارت هي السائدة لدى طبقات كثيرة في مجتمعاتنا.

والتربية.. هي الحل الوحيد لمواجهة هذه الكوارث، تربية الفرد، وتربية المجتمع، تربية الفرد تربية إسلامية حقة، بحيث يكون قويًا من الداخل، يمتلك من الإرادة والحسم ما يستطيع به أن يغلق جهاز التليفزيون وقت أن يجد به شيئًا يتصادم مع عقيدته وقيم مجتمعه المسلم. مسلم من النوع الذي يمتلك نفسه أمام شهواته وغرائزه فلا تتحكم فيه أو تقوده في طريق الرذيلة، ولديه المثل الرائع مما يحدث في شهر رمضان من كل عام حين يمتنع المسلمون طوال فترات النهار عن الأكل والشرب وسائر الملذات الأخرى، ولا يحكمهم في هذا إلا ضمائرهم أمام خالقهم جل وعلا.

لقد كان الأمل - بالنسبة لتعامل مجتمعاتنا مع جهاز التليفزيون - في مسؤولي الإعلام في بلادنا ، حيث كانوا يستطيعون أن يفرضوا رقابة صارمة على ما يأتينا من الخارج، أما الآن.. ومع البث المباشر.. فقد ألغى هذا الدور، وأصبحت جهات الرقابة عندنا عاجزة أمام ما يأتينا من الخارج عبر قنوات البث المباشر ، وبالتالي أصبحت الكرة في ملعب التربويين ، وفرض عليهم أن يتحملوا المسؤولية ، وليس أمامهم مخرج إلا مواجهتها قيامًا بالأمانة، وتأدية للرسالة ، ولعلنا في هذا المجال نقتبس عدداً من التوصيات المهمة التي خرج بها المؤتمرون في ندوة « ماذا يريد التربويون من الإعلاميين »، التي سبقت الإشارة إليها من قبل والتي منها :

١- تكامل أهداف الإعلام والتعليم :

إن الحاجة ماسة إلى توحيد فكرنا حول نوعية الإنسان العربي المسلم الذي نسعى بالتربية والتدريب والتوجيه والإعلام إلى إثراء فكره،

وترشيد اتجاهاته، وتهيئة الفرص لتكوين المهارات العقلية والاجتماعية والمهنية اللازمة لحسن أدائه لأدواره في الحياة.

ولذا، فإن الندوة (*) توصي بأن يقوم «مكتب التربية العربي لدول الخليج» متعاونا مع وزارات الإعلام، بالإعداد لمؤتمر يلتقي فيه وزراء التربية والإعلام لإنجاز ما يأتي :

أ) النظر إلى إمكانات تكامل الأهداف التربوية والإعلامية، واقتراح الوسائل والطرق التي تؤدي إلى تحقيق هذا التكامل.

ب) وضع خطة عمل مشتركة تتضح فيها الأدوار التي تقوم بها أجهزة الإعلام وأجهزة التعليم في سبيل تحقيق الأهداف العليا المشتركة.

٢- التنسيق بين الإعلاميين والتربويين :

ورغبة في أن تؤدي وسائل الإعلام دورها التربوي بشكل كامل وفعال توصي الندوة بما يأتي :

أ) أن تنظم لقاءات دورية داخل كل دولة خليجية يلتقي فيها التربويون والإعلاميون لمناقشة الموضوعات ذات الاهتمام المشترك، وذات الأثر في تربية المواطنين.

ب) أن يعمل « مكتب التربية العربي لدول الخليج » على تنظيم لقاءات دورية للمسؤولين عن التربية والإعلام في دول المنطقة لتوحيد مواقفهم تجاه عمليات تنشئة الأجيال تنشئة سليمة بما يتلاءم مع تقاليد الأمة وتراثها وطموحاتها.

(*) ندوة «ماذا يريد التربويون من الإعلاميين»، وقد سبقت الإشارة من قبل.

٣- الإطار العام للإعلام :

ونظراً لما للدين الإسلامي من دور فعال في صيانة الفرد، وتكوين المجتمع، فإن الندوة توصي بأن تنطلق البرامج الإعلامية والموجهة لسائر قطاعات المجتمع من عقيدة الإسلام، وأن تكون منضبطة بالقيم الإسلامية والأخلاق والثقافة العربية.

٤- الإعلام الديني :

توصي الندوة بزيادة العناية بالبرامج الدينية كمًا وكيفًا ، وتؤكد على ضرورة العناية بالمضمون الاجتماعي والاقتصادي في صياغة الإعلام الديني، والاعتماد فيه على كافة الوسائل التقنية المتاحة، وتوصيله بأسلوب مبسط وجذاب.

٥- زيادة كفاءة الإعلام :

ترى الندوة أن الإعلام لا يمكن أن يؤدي دوره الفعال إلا إذا استند إلى دعامتين أساسيتين هما : قاعدة علمية فكرية، ومهارات وقدرات تقنية متميزة.

لذا توصي الندوة بما يأتي :

أ) أن تعني الدول الأعضاء بإعداد وتأهيل الإعلاميين إعدادا علميا وفكريًا وتربويًا، وذلك بتدعيم أقسام الإعلام القائمة في المنطقة ، وإنشاء أقسام للإعلام في الدول التي لم يتوفر فيها مثل هذه الأقسام حتى الآن.

ب) أن تتبنى الدول الأعضاء إقامة مركز للبحوث والدراسات الإعلامية لمتابعة الواقع الإعلامي وتطويره فكريًا وتطبيقيًا، على أن يوجه المركز جهوده إلى ما يتعلق بوسائل الإعلام المختلفة، ومجالات

استخدامها، وإلى بحوث تحليل المضمون ، وقياس القيم (*) التأثيرية للوسائل المختلفة.

٦- برامج الأطفال :

توصي الندوة بزيادة العناية بالإنتاج البرامجي للأطفال، نشراً وإذاعة وبثًا، حتى يصبح من الممكن والميسور إنتاج هذه البرامج محليًا في مستوى متميز ، وأن يكون هذا الإنتاج من واقع المجتمع ، ومنسجمًا مع تاريخه الحضاري، وحتى يتأتى الاستغناء تمامًا عن الإنتاج الأجنبي المترجم، وغير المترجم، حيث إن تكوين الذاتية العربية المسلمة لا يتم من خلال البرامج المستوردة.

٧- الاستخدام الرشيد لوسائل الإعلام :

توصي الندوة بأن تحرص الأجهزة التربوية ومؤسسات التعليم في المستويات كافة على تدريب الطلاب على حسن استخدام ما تنشره الصحف، وما تبثه الإذاعة المسموعة والمرئية، وسائر وسائل الإعلام الموسعة، وذلك عن طريق إخضاع كل ذلك للدراسة والتحليل، والتفسير، والنقد، والحكم، ويمكن أن يتم هذا من خلال دروس اللغة العربية في المطالعة والتعبير والنصوص الأدبية وفي غيرها من الدروس.

٨- الحوار مع الشباب :

ورغبة في أن يقوى التواصل بين أجيال الأمة ، توصي الندوة بأن تعني أجهزة الإعلام في ندواتها وبرامجها بإجراء حوار مع الشباب يشارك فيه مختصون في المجالات التي تعين على فهم الشباب لواقع أمتهم ، وتحفزهم على المشاركة الواعية في بناء مستقبلها، وتؤهلهم للنهوض بمسؤولياتهم المتتابعة.

(*) في منتهى الأهمية بالنسبة للتربية.

٩- توظيف وسائل الإعلام في تحقيق الأهداف التربوية :

توصي الندوة بأن تحرص الأجهزة التربوية على الاستفادة المثلى من وسائل الإعلام في تحقيق بعض أهدافها التربوية في مجالات : محو الأمية، وتعليم الكبار، والتدريب المهني والفني، وإعداد المعلمين وتدريبهم، وفي برامج التعليم المستمر.. إلخ.

١٠- المعوقون والموهوبون بين التربية والإعلام :

ورغبة في تنمية جميع الطاقات البشرية المتاحة توصي الندوة بما يأتي :

أ) أن توجه أجهزة التربية والإعلام عنايتها إلى تنوير المجتمع بأهمية رعاية المعوقين وتأهيلهم، وتهيئة كل الفرص التي تكفل حقوقهم كمواطنين في التعليم، وفي التدريب، وفي العمل.

ب) أن توجه أجهزة التربية والإعلام أقصى عناية ممكنة للتعرف على الموهوبين في مراحل التعليم المختلفة، وأن تتخذ الوسائل كافة لتنمية طاقاتهم ، وشحذ قدراتهم بما يعود عليهم وعلى الأمة بالنفع.

١١- نماذج مطلوبة :

ورغبة في وضع الاتجاهات التي برزت في الندوة موضع التطبيق العلمي فإن الندوة توصي بأن يقوم « مكتب التربية العربي لدول الخليج »، متعاونًا مع الأجهزة التربوية والإعلامية بتطوير نماذج مسموعة ومرئية، يتضافر فيها جهد الإعلاميين مع جهد التربويين ،وتوصي بأن تعرض هذه النماذج في الندوات المقبلة للتعرف عليها ونشرها على نطاق واسع.[٤]

---

(٤) وقائع ندوة ماذا يريد التربويون من الإعلاميين، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثانية ، الجزء الثالث، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ص ٢١٢ - ٢١٦.

سادسًا : تركيز الغزو الثقافي على الإنسان :

وهذا الجانب لابد وأن نعترف بذكاء أعدائنا فيه، ثم من بعد ذلك الاعتراف الواجب، ينبغي ألا نكون أقل منهم ذكاء فتطلق إلى الإنسان في مجتمعنا العربي المسلم نعيد صياغته، ونعيد تشكيله من جديد ، إن الحضارات تبدأ من هنا ، من هذه النقطة بالذات.. وبالتحديد.

وما وجدت حضارة إنسانية طيبة سادت واستمرت مئات السنين مثل حضارتنا الإسلامية ، والتي بدأت بالإنسان المسلم الذي كرمه الله سبحانه وتعالى ورفعه منزلة عليا،﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾.

وإذا كان التكريم هنا ، في الآية الكريمة ، قد جاء في حق « بني آدم » على سائر عمومهم إلا أن الإسلام ، بواسطة خير الأنام ﷺ ، قد ترجم تلك الآية ترجمة علمية رائعة، على شكل تربية لم ير التاريخ مثلها ، فمنذ اللحظة الأولى التي ينطق فيها الإنسان - أي إنسان - بالشهادة ، ويدخل إلى دين الله يصبح له ما للمسلمين .. وعليه ما عليهم، ويلتزم جميع المسلمين بمعاملته على أنه أخوهم في الإسلام يحمونه ويدافعون عنه في زمن الحرب، ويأخذ حقوقه كاملة في زمن السلم، ويعيش في مجتمعه المسلم آمنا مطمئنا لا يخشى إلا الله.

وتراثنا الإسلامي العظيم حافل بكثير من القصص التي تبين بجلاء قيمة الإنسان في المجتمع المسلم، وحينما نقول « الإنسان » نقصد به أي إنسان لأن الجميع في الإسلام سواء ، وكما قال رسول الله ﷺ ما معناه أنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوي، وكما طبق سنته العملية فوراً عندما غضب بشدة حين وصف الصحابي الجليل « أبو ذر الغفاري » أخاه « بلالا » رضى الله عنه، قائلا له « يا ابن السوداء » ، فاحمر وجه المصطفى ﷺ وبان الغضب الشديد عليه، وقال له : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، لأن التفرقة بينهم والتعامل معهم على أساس عنصري هو من فعل وممارسات الجاهلية الحمقى، وكان أن عاد أبو ذر - فوراً - إلى تربيته الإسلامية الرائعة، وإلى ما عُلمه على يد المعلم الأسمى

ﷺ من أن المسلمين « سواسية كأسنان المشط » وسرعان ما انكب «أبو ذر» رضي الله عنه ، على قدمي أخيه « بلال » رضي الله عنهما ، طالبا منه أن يصفح عنه وأن يطأ خده بقدمه.. !!

هذا المجتمع النموذج الذي يشعر الإنسان فيه بكينونته، حتى النصارى الذي عاشوا في ظله ، نالوا حقوقهم بصورة لم تسبق لهم تحت أي حكم آخر، لدرجة أن يسافر شخص مصري من موطنه مصر يشكو الوالي، « عمرو بن العاص » رضي الله عنه، إلى « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه، في المدينة المنورة، لأن ابن الأول ضرب ابنه لما تفوق عليه في سباق كان بينهما، والرجل يشعر أنه يستطيع في ظل الحكم الإسلامي الوليد أن ينال حقه من الحاكم، وبالفعل انتصف له أمير المؤمنين من الوالي وابنه، بصورة نعرفها جميعًا، ثم قال قولته المشهورة التي ترن في سمع التاريخ إلى يومنا هذا « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً..؟؟».

وعلى هذا الأساس الإسلامي المتين ينبغي أن تقوم تربيتنا للأجيال العريضة من أبنائنا بحيث نبني فيهم شخصيات قوية ، تثق في نفسها، وتتصرف على أساس متين من هذه الثقة بالنفس، ومن الثقة بالعدل في مجتمعها، كما ينبغي أن نربي فيهم أن يقولوا كلمة الحق، وألا يكتموها خوفًا من أي كائن، طالما هم مقتنعون بها ، وينبغي علينا نحن المربين أن نتقبل منهم ما يقولون ، طالما كان صحيحًا، وأن نصحح لهم ما كان خاطئًا ، ولعلنا لازلنا نتذكر قصة المرأة المسلمة التي وقفت في المسجد بالمدينة المنورة وصححت لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه، ما كان قد قاله بشأن صداق المرأة ، وينبغي ألا ننسى مقولة عمر ، رضي الله عنه، وهو أحد خريجي المدرسة الإسلامية الرائعة في التربية، حين قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر..!!

وفي مجال الإعلام ينبغي أن ننمي هذه الجوانب التربوية الرائعة من خلال برامج التليفزيون بالذات، وخاصة في التمثيليات والأفلام بحيث تغرس في نفوس المشاهدين، وبحيث يتربون على أساسها حتى يثق الإنسان العربي المسلم في نفسه، وهذا الإنسان العربي المسلم الواثق من نفسه بالتربية الإسلامية، هو الذي

يستطيع - بقوة شخصيته وثقته في النفس - أن يقف في «وجه الغزو الثقافي» الآتي إليه عبر الحدود.

إننا لا نستطيع أن نحول بين ذلك الغزو وبين أن يصل للإنسان عندنا، بسبب التكنولوجيات المعقدة في الاتصال، وكلنا على وجه اليقين نستطيع - إن صدقنا العزم - أن نبني ذلك الإنسان روحيًا.. ونفسيًا.. وعقيديًا.. بحيث لا تؤثر فيه دعاوي « الغزو الثقافي » ، مهما كانت لأن ثقة الإنسان في نفسه، الإنسان المسلم ، ستحول بين هذه الدعاوي وبين أن تؤثر فيه، ويكفينا نموذجًا في هذا المجال أن نذكر بالصحابي الجليل ، «ربعي بن عامر » رضي الله عنه، ذلك الذي دخل على كسرى أنو شروان، والذي كان يجلس وسط حرسه وحاشيته، وفي قصره بطنافسه وفخامته وأبهته، ولم يؤثر كل ذلك في « ربعي» الواثق في دينه ومن نفسه، فتقدم من امبراطور الفرس وهو يغرس رمحه فيما يصادفه من سجاد وطنافس غير عابئ بصيحات الموجودين ولا بعلامات الدهشة والذهول التي بدت عليهم، ووصل لمليكهم ليبلغه رسالة الإسلام العظمى في كلمات وعبارات تدل على قوة الإنسان الذي تربى في أحضان مدرسة الإسلام العظمى.

ويقيني الآن أن الصورة قد انقلبت رأسًا على عقب ، فبدل أن يؤثر الفرس في المبعوث المسلم الذي أرادوا أن يرهبوه بما عندهم، أثر هو فيهم بثبات شخصيته ذلك الثبات النابع من يقينه في دينه، وثقته في أن الله معه.. وأنه ناصره ومؤيده، حتى وإن قتلوه، فمصيره الموعود به معروف له، بل ومحبب إليه، وهو الشهادة في سبيل الله، والتي كان المسلمون يسعون إليها سعيًا حثيثًا ، طلبا لجنة عرضها السموات والأرض. هذه الشخصية - كنموذج - ينبغي أن تكون محوراً لعملياتنا التربوية في كل مؤسساتنا التربوية، في البيت حيث الأسرة كمؤثر عظيم ومطلوب في عمليات التنشئة الاجتماعية الأولية Primary Socialization، وفي المسجد الذي يعتد به جميع أفراد المجتمع المسلم، وفي المدرسة التي وثق فيها المجتمع باعتبارها المؤسسة التربوية الأولى، وفي الإعلام، وفي كل مجال تربوي تتولاه أي مؤسسة تربوية في مجتمعنا العربي المسلم، حيث بناء الإنسان مهمة كل هذه المؤسسات، وكلما أضافت مؤسسة من

مؤسساتنا التربوية لبنة في بناء هذه الشخصية تقدمنا خطوة للأمام في الوقوف أما «الغزو الثقافي » الذي يستهدف الإنسان في مجتمع المسلمين.

سابعًا: دور التربية في مواجهة « الغزو الثقافي.. في الجامعة:

ولقد قصدنا بهذا الغزو، كما سبق وبينا في هذا الكتاب أن ذلك الغزو قد تمثل في إظهار « اللغة العربية » لغة القرآن الكريم وكأنها عاجزة عن ملاحقة التطورات الجديدة في مجالات العلم المختلفة، ومن جانب آخر فإن الغزو في الجامعات يتمثل في عدم ملاءمة خطط بعض الجامعات في إعداد الشباب لما يفترض أن يقوموا به في مجتمعاتهم بعد تخرجهم، وقد سبق أن ضربنا المثل من إحدى كليات الآداب في جامعة عربية كبيرة، وثبت أن طلاب قسم الإعلام، وطلاب كلية التربية بها يتلقون مقررات خفيفة الوزن جداً في علوم الدين الإسلامي، وفي اللغة العربية، مما لا يمكن أن يخرِّج منهم إعلاميين يعون رسالتهم في المجتمع، أو معلمين يعرفون كيف يعلمون طلابهم.

وفي كلية للحقوق، وربما في كليات الحقوق جميعًا ، بإحدى أقدم وأشهر جامعاتنا لا يتلقى طلابها عن الشريعة الإسلامية إلا مقررات بسيطة جداً جداً بشكل خطير حتى إنه لا يمكن مقارنتها بالساعات الطويلة والمقررات الكثيرة التي تعطى لهم عن القانون الفرنسي الذي تحكم على أساسه بعض شعوبنا.(٥)

ومن المهم هنا أن يهتم التربويون ببيان وزن المقررات المهمة في جامعاتنا، وخاصة تلك التي تتعلق بهويتنا العربية الإسلامية، مثل علوم القرآن، وعلوم السنة، واللغة العربية، والثقافة الإسلامية، ومن بعد توضيح ذلك للمسؤولين عن الأقسام العلمية، وعن الجامعات بصفة عامة، بل وكذلك للمسؤولين في مجتمعاتنا العربية والإسلامية من وزراء التربية والإعلام والثقافة والشؤون الإسلامية، يطالبون بقوة بأن تعطى الأوزان المطلوبة في هذه المقررات والمجالات، بحيث تدرس للشباب في جامعاتنا فتبنى شخصياتهم على أساسها، ويتخرجون إلى مجتمعاتهم وهم واقفون على أرض صلبة من أمور دينهم

(٥) ـ محمد عبدالعليم مرسي، التغريب في التعليم في العالم الاسلامي، مرجع سابق.

وعقيدتهم ولغتهم، بحيث تحكم تصرفاتهم وسلوكياتهم على أساس منها.

ومن ناحية أخرى فإنه ينبغي أن يدرس للشباب تاريخ وتراث الأمة العربية الإسلامية، وإسهامات علماء المسلمين في كل مجال من مجالات المعرفة الإنسانية، وخاصة في مجالات الطب والصيدلة والهندسة والكيمياء والرياضيات ، وكيف أنهم أرسوا دعائم علوم كثيرة في هذه المجالات، وكانت كتاباتهم التي انعكست في مئات من مؤلفاتهم.. كلها .. باللغة العربية ، كما كانوا - في معظمهم - متبحرين في علومهم التي تخصصوا فيها، بالإضافة لعلوم اللغة العربية، وكذا في علوم القرآن والسنة، فكانوا بحق علماء موسوعيين لم يوقفهم التخصص عند حدود العلم الضيق، وفي ذلك يقول «منتصر» : ولقد ساد الاعتقاد ردحًا طويلاً من الزمان، أن العلماء العرب والمسلمين، كان إنتاجهم أغلب الأمر في مجالات العلوم الدينية والأدبية والفلسفية، من فقه وتفسير وحديث وتوحيد، أو فلسفة وشعر ونثر، مع أن مؤلفاتهم في مجالات العلوم الطبيعية من رياضيات وفلك وحساب وجبر وهيئة، وميكانيكا، وطبيعة ، وكيمياء ، ونبات، وحيوان، وطب، وزراعة ، وصيدلة ، وبيطرة تفوق كثيرا على مؤلفاتهم وإنتاجهم في سائر المعارف الأخرى. (٦)

ثامنًا : التربية .. في مواجهة الانبهار بالغزاة :

وهذه القضية من قضايا « الغزو الثقافي » الخطيرة ينبغي على التربويين أن يعوها جيداً ، لأنها نتجت عن خلط واضح بين ما هو مادي وما هو عقدي، بمعنى أن الخلط حين وقع في عقول كثير من المسلمين بين العناصر المادية لثقافة الغرب المتقدم على شكل سلاح وعدد وآلات ومخترعات، وبين تخلف المسلمين في تلك النواحي ظن الكثيرون منهم أن التقدم في تلك النواحي المادية يستتبعه - بالضرورة - التقدم في النواحي المعنوية الأخرى للثقافة.

---

(٦) عبدالحليم منتصر : الفكر العلمي الإسلامي والحضارة الإنسانية ، ضمن بحوث (الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم) ، المجلد الأول ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٨٩م، ص ٥٩٣.

ولأن تقدم الغرب في تلك النواحي المادية واكبه تخلف المسلمين فيها كانت النتيجة أن انجذب عدد من أبناء الأمة الإسلامية ناحية الغرب برمته، بمادياته ومعنوياته، خاصة من أولئك الذين انفتحوا على الغرب بقصد الدراسة في بدايات القرن الماضي (التاسع عشر الميلادي) ، ونقل بعض هؤلاء أفكارهم وأحاسيسهم إلى مجتمعاتهم بسذاجة ، أو بحسن نية، بينما نقلها آخرون عن قصد وسوء تبييت ، بقصد تغريب مجتمعاتهم و وبقصد الخروج بها من دينها وعقيدتها بدعوى أن التخلف مرتبط بالدين في مجتمعاتنا، بينما أوروبا تقدمت لما طرحت دينها خلف ظهرها.

ولقد نسي هؤلاء تمامًا، أو تناسوا عن عمد، أن هذه الأمة الإسلامية ما تقدمت إلا يوم كانت متمسكة بدينها، عاملة بأوامره ونواهيه، ماضية في طريقها تعمل بأمر ربها ، تعبده بالليل والنهار ، قائمة راكعة ساجدة، قارئة عالمة مفكرة باحثة مطبقة، وكانت النتيجة ظهور العلم الإسلامي، وبزوغ الصناعة الإسلامية، ووقوف الحضارة الإسلامية على أساس متين من الإيمان.. والعلم.. والعمل، بحيث أن الشعوب الأخرى التي احتكت بالمسلمين عرفت الإسلام وقدم إليهم من أناس علماء.. عاملين.. متقدمين، يسبقهم إيمانهم وقيمهم وأخلاقهم وعدلهم وورعهم وتقواهم، ويتبع ذلك كله نظافة أبدان، ونظافة ضمائر، وحسن تعامل، ويسير معه في الوقت ذاته إنتاج مادي متقن غزير في كل مناحي الحياة بكل ما تتطلبه.

لقد كانت التنمية في مجتمع المسلمين الأوائل تسير سيراً حثيثًا في كل اتجاه، فكانت تنمية شاملة اهتمت بكل مناحي الحياة التي تدفع بالإنسان إلى الأمام ، وإلى الأعلى في الوقت ذاته فكانت:

١- تنمية روحية تسمو بالإنسان إلى مراتب عليا ، تبتعد به عن مجرد كونه إنسانًا يأكل ويشرب ، وله مطالب جسدية أخرى يستجيب لها، وإنما تسمو بروحه لتتخطى حدود هذه الدنيا، طمعا في آخرة ذات جنان عرضها السموات والأرض.

٢. تنمية نفسية تجعل الإنسان متوافقا مع نفسه ومع غيره من الناس ، نفسه مطمئنة، تشكر ربها في السراء ، وتصبر عند البلاء وعند الضراء.

٣. تنمية اجتماعية تجعل الإنسان المسلم يحس بمجتمع المسلمين كلهم، وكأنهم أسرة واحدة بل جسد واحد «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

٤. تنمية اقتصادية تربي الإنسان على حب العمل والإنتاج، والسعي في الأرض، لنفسه.. وللمجتمع من حوله ، لا يحفزه الى العمل والإتقان فيه إلا ضميره الذي رباه فيه الإسلام.

٥. تنمية ثقافية تجعل الإنسان المسلم من الذين يقرأون دومًا ويتفكرون ويطلعون، بل ويتابعون كل ما يجري وكل ما يقع في مجتمعهم، بل وفي غيره من المجتمعات، من إنتاج ثقافي فكري، في كل مجال يخدم الإسلام والمسلمين.

٦. تنمية عسكرية خرجت للعالم قادة مجاهدين أعجزوا قواد العالم المعروف آنذاك، ونشروا الإسلام، وهم مأمورون ألا يقطعوا شجرة (!!)، ولا يقتلوا امرأة .. ولا شيخًا.. ولا طفلاً ، وألا يتعرضوا بالأذى لمن اعتكفوا في صوامعهم يعبدون الله.

٧. تنمية إدارية ابتدعت نظمًا لإدارة الدولة، وللإشراف على مرافقها، وأرست قواعد للمحاسبة، محاسبة الولاة والمسؤولين، ما عرفها أحد قبلهم، وما طبقها أحد من بعدهم.

٨. تنمية علمية استمدت قوتها الدافعة من القرآن الكريم الذي أنزل على قلب معلم الأمة وهاديها ، محمد بن عبدالله ﷺ وأول آياته﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

٩. تنمية خلقية فاقت الوصف، بفضل ما تحلى به المسلمون الأوائل من كريم

الصفات وعظيم الشمائل التي تعلموها من النبي العظيم ﷺ الذي قال الله فيه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

١٠- تنمية سياسية تعلم المسلم فيها - بداية - كيف تقام الحكومة في الإسلام لأول مرة ، وكيف تساس شؤون الناس،وكيف تدار مصالحهم بالعدل والأمانة.[٧]

إن هذه المعاني كلها، وهناك غيرها كثير، ينبغي أن تكون محاور للتربية في مساجدنا ومدارسنا، ومنازلنا، وأجهزة إعلامنا، ونوادينا، وسائر مؤسساتنا التربوية بحيث تحيط بالناشئة من أبنائنا، وبالشباب منهم خاصة، حيثما كانوا ، وأينما ولدوا ، فيشعرون بالانتماء لأمة الإسلام، ولحضارتها الرائدة والرائعة، ولو حدث هذا - وينبغي أن يحدث - فإن عوامل الانبهار بحضارات الآخرين سوف تزول من نفوسهم، بل ولن تجد طريقها أصلا الى تلك النفوس، وحينئذ لن يخرج من بينهم أحد الأساتذة الجامعيين ليكتب للناس بأننا ينبغي أن نبحث في تراثنا، وأن نضعه في مقارنة مع حضارة الغرب، فما تمشى منه وتوافق مع تلك الحضارة أبقيناه، وما خالفها وتعارض معها ألغيناه من حياتنا، بل وألقيناه خلف ظهورنا..!![*]

تاسعًا : التربية .. وقضية الإحساس بالدونية :

وهذه القضية لا تنفصل عن القضية السابقة عليها، حيث أن الانبهار بما عند الغزاة مؤدٍ بالضرورة الى الاحساس بالدونية ، وإلى استشعار النقص بالنسبة لمن عندهم الانتاج المادي الأفضل، والتكنولوجيا المتقدمة والمتطورة ، فإذا كانوا هم منتجي أدوات الحضارة المادية المعاصرة، وإذا كنا نحن المستوردين لها، من أبسط الأشياء إلى أعقدها ، من القلم الذي نكتب به، والحبر الذي نستعمله، من اللباس الذي نرتديه إلى كثير من أنواع الأطعمة التي نأكلها، من السيارة التر نركبها إلى أدواتنا المنزلية التي نستعملها من الغسالة

---

(٧) يمكن مراجعة كل هذه المعاني في كتاب المؤلف « التربية.. والتنمية في الإسلام ».

(*) رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة في منتصف الثمانينات.

إلى الثلاجة ، ومن البوتاجاز إلى المكيف ، ومن التليفزيون إلى الفيديو، ومن كل أولئك إلى الطائرة والصاروخ والقنبلة والمدفع وجهاز الرادار.. إلخ، إذا كانوا هم الذين ينتجون ويصنعون ، وهم الذين يبيعون ويجرون الصيانة.. فماذا بقى لنا.. ؟؟

في الواقع لم يبق لنا إلا الدين نعتصم به، ونلجأ إلى الله بواسطة عبادته العبادة العملية التي علّم الله وسوله إياها، عبادة حقة لا تكتفي بإقامة الشعائر وتلاوة الأذكار، وإنما تضيف إليها العلم والحث عليه وتشجيع طلابه، وتكريم علمائه، وتوفير كل ما يتطلبه البحث العلمي، وإنزال رجال العلم منازلهم التي يستحقونها، والعناية بما يتوصلون إليه باجتهاداتهم، ووضع نتائج بحوثهم موضع التطبيق، وتشجيعهم على تحسين تلك النتائج، بحيث تقف على أقدامها مع نتائج نظرائهم العلماء في المجتمعات الأخرى، أو على الأقل تقترب منها، بالإضافة إلى تشجيع علماء المسلمين الذين هجروا مجتمعاتهم الإسلامية على العودة إليها ، والانغماس في بحث مشكلات مجتمعاتهم ، حتى وإن اضطروا إلى العيش في مستويات أقل من المستويات التي يعيشون فيها في الخارج، أي في بلاد المهجر التي فضلوا الإقامة فيها ، والعمل لصالح مجتمعاتها.(*)

وحتى تدخل هذه الأمور في نسيجنا التربوي، بحيث تتمثلها الأجيال الصاعدة من أبناء المسلمين ، ينبغي أن تقدم نماذج لعلماء المسلمين ، ولإنجازاتهم في مجالات العلم المختلفة، حتى يقف الشباب.. والأطفال الصغار على تاريخ أمتهم الإسلامية، وعلى ما قدمه علماؤها في مجالات العلم والمعرفة المختلفة، بل والمجالات التطبيقية التي قدموها فيها، وكيف عملوا ـ من خلال جهودهم ـ على تقدم البشرية ذاتها، وقد اعترف علماء الغرب المنصفون أنفسهم

(*) يطلق على ظاهرة هجرة العلماء من مجتمعاتهم هذه ظاهرة « النزيف البشري Brain Drain » وهي استنزاف رهيب لأصحاب الكفاءات العلمية النادرة إلى البلاد المتقدمة، وللموؤلف كتابان في هذا المجال هما :

(٨) نزيف العقول البشرية، عالم الكتب، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٩) هجرة العلماء من العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامي، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

بإبداعات علماء المسلمين وإضافاتهم للحضارة الإنسانية ، وكانوا هم الرواد الأوائل في ذلك ، ولعل تمثيلا لبعض أقوال هؤلاء العلماء لما يفيد في هذا المجال، وذكر ذلك لشبابنا وطلابنا المعاصرين - بالتأكيد - يرفع من معنوياتهم، ويبعد عنهم الإحساس بالدونية والنقص، بل إنه يبعث فيهم روحا جديدة من الاعتزاز بتراث أمتهم، وبإنجازات علماء المسلمين، كما أنهم حين يفهمون ذلك ويتمثلونه تمامًا سوف يندفعون للسير على خطاهم، والاقتداء بهم، خاصة مع روح الصحوة الإسلامية الماثلة الآن في مجتمعاتنا ، ولكنا نريدها صحوة إسلامية على أساس ديني سليم، صحوة تعي أن هذه الأمة لن ينصلح حال آخرها إلا بما صلح به أولها ، فلعلنا نعيد هذه الروح العطرة إلى الوجود إن شاء الله، ثم إلى نموذج من أقوال واحد من علماء الغرب المنصفين في علمائنا المسلمين السابقين، وفي حضارتنا الإسلامية الرائعة:

يقول المؤرخ « جولدن سميث Golden Smith» في مجلد ضخم بلغ حوالي ألف صفحة عن المسلمين يقول فيه « إن المسلمين كانوا سادة في زمن السلم، كما كانوا أبطالا في زمن الحرب، فلقد عمروا الصحارى في الشرق الأدنى، وقد أنتجت حقولهم وبساتينهم كميات هائلة من المحاصيل والفاكهة، وخاصة الزيتون والخوخ والأرز وقصب السكر وغيرها ، كذلك امتدت خطوط تجارتهم لتربط أجزاء المعمورة ببعضها، سواء على البر ، أو فوق أمواج البحر، فمن الغرب جاء الجلد الأحمر والأصفر الذي امتد الاعجاب به قرونًا ، ومن الموصل في العراق صدر القطن وغزله، كما عرف العالم السيوف القوية من توليدو، والحرير والأقمشة الرقيقة من دمشق، كما أنتجت بغداد أنواعًا من الزجاج الفاخر ، والحرائر الناعمة، إن الحضارة الحديثة مدينة للتجار المسلمين الذين نشروا معرفة الشيكات والخطابات التجارية ، وتكوين الشركات، ولقد كان كل ذلك خلف نهضة فينيسيا الإيطالية وبنوكها ، وخلف الثورة التجارية الكبيرة التي بدأت في القرن الخامس عشر.

إن الذي يحاول أن يرسم صورة للحضارة الإسلامية العريقة التي شملت قارات ثلاث هي آسيا وإفريقيا وأوروبا يعجز كليا عن أن يضع كل الألوان

المطلوبة، فعلى أراضي تلك القارات أقام المسلمون - ولفترات طويلة - حضارة عظيمة اعتمدت على البحر وتجارته، وعلى الأرض وما تغله، وعلى الإنسان المسلم فوق كل هذا . وتكفينا نظرة طائر A bird Look من أعلى كي نتصور السفن الكبيرة والمراكب الصغيرة، وقوافل الجمال والدواب وهي تنتقل بين أرجاء تلك الامبراطورية الهائلة بكل محاصيلها البرية والبحرية، ابتداء من البحر الأسود ، وانتهاء بالمحيط الأطلسي، ومروراً بالبحر المتوسط، بينما وقفت مدن عظيمة مثل : القاهرة ودمشق وبغداد ، تستمع إلى المؤذنين يدعون الناس للصلاة.. !!

إن كل الحضارات التي شملها الدين الإسلامي قد ذابت في وحدة واحدة هي الدين الجديد. ويمضي الرجل العالم المؤرخ، أكثر فيعترف بأن هناك ديْنًا عظيما في عنق الدول الغربية (وليتنا نتنبه ونحن نربي أبناءنا على الانبهار بالغرب). للحضارة الإسلامية التي كانت مزدهرة وغنية على مدار عصور طويلة، وهذا الدين في حقيقة الأمر أعمق وأكبر مما يتصوره الكثيرون، إننا حتى مدينون لهؤلاء الناس - المسلمين - في لغتنا اليومية التي نستعملها ، ألم نقتبس منهم كلمات مثل : أدميرال - الكحول - الجبر - بازار - كارفان - صفر - قهوة - إناء - ليمون - مجلة - مرتبة - برتقال - كنبة - سكر - شراب - تعريفة جمركية - حركة المرور.. إلخ. [١٠]

ويمضي الرجل العالم قائلاً « وفي مجالي العلم والتعليم أخذنا من المسلمين الكثير حقًا ، فعلماؤهم هم الذين درسوا خيوط الضوء، كأول دارسين، ولا ننسى علم الفلك ، كما أنه من خلال جهودهم عرف الغرب - لأول مرة - شيئًا عن الورق الذي جلبوه من الصين، ثم إن علم الجبر علم عربي إسلامي ، كذلك فإن استخدام النظام العشري الدقيق هو نتاج للعبقرية الإسلامية التي جاءت نتيجة لتعميقهم لمهارات غيرهم من الشعوب في اليونان والهند وغيرهما ، وهم الذين اخترعوا واستخدموا بمهارة شديدة فكرة « الصفر Zero» ، حتى وإن

---

(١٠) Golden Smith: The Heritage of Man, A History of The World, U.S.A. London, 1960, p.p. 150-152.

ادعى البعض أنه جاء من الهند، إلا أنه على الأقل جاءنا من العلماء المسلمين النشطين.

حتى في مجال الاختراعات والاكتشافات فإن المسلمين أسهموا فيها بوفرة ، فعلى سبيل المثال نجد « كربونات الصودا ونترات الفضة » وكيفية استخدامهما هما وغيرهما من الأحماض في العمليات الكيميائية المختلفة، إنه من خلال علماء المسلمين وجدت حضارات عريقة مثل المصرية القديمة واليونانية والسورية والفارسية والهندية، وجدت طريقها شمالا وجنوبًا، وشرقًا وغربًا، وكان من معالم هذه الحضارات - بجانب الاكتشافات - التقدم في الرياضيات كما في الأدب المزدهر في كل من بغداد وقرطبة.

إن المسلمين قد أعطوا أوروبا الكثير ، والكثير جداً من المعرفة القديمة والحديثة، ويكفي أنهم ترجموا الكثير من أعمال اليونانيين، خاصة في سوريا والإسكندرية وأنطاكية وبيروت، وكمثال واحد فإن معجم العلوم للعالم محمد النديم (٩٧٨م) كان يحتوي على آلاف الأسماء والعناوين للموضوعات التي كانت مترجمة إلى العربية. إنه لولا الترجمات العربية التي قام بها علماء المسلمين وساعدوا بها أوروبا في نهضتها، ما كان حال أوروبا هو الحال التي هي عليها اليوم.

وفي مجال الطب لا يمكن أن ننسى عالمًا عظيما مثل « الرازي Al Razi » الذي أطلق عليه بحق : أعظم أطباء الدنيا قاطبة The Greatest Clinical Physician of the World ، خلال فترة العصور الوسطى.
إنه هو العالم الطبيب الذي كتب أكثر من مائتي بحث في مجال الطب ، بالإضافة إلى موسوعته عن الأمراض المختلفة والتي استخدمت بواسطة أطباء أوروبا لقرون عديدة، وقد قرظوها وقدروها حق قدرها كثيرا جدا.

و « ابن سينا » العالم والفيلسوف والطبيب الذي قال بانتقال المرض عن طريق العدوى، وهو الذي استخدمت أساليبه العلاجية في أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي، وكان نتاجا من نتاجات الحضارة الإسلامية العريقة.

وفي مجال الأدب أسهم المسلمون ولم يقصروا ، وكانت رباعيات الخيام خير مثل على ذلك ، وهي التي احتوت على مائة قصة من القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، والتي قام بترجمتها « إدوارد فيتزجيرالد Edward Fitz Gerald» وجميعنا ـ نحن الغربيين ـ نعرف كيف استمتع كثيرون منا جدا ببعض قصصها.

وفي مجال العمارة والهندسة.. ألم نسمع كلنا عن قصر الحمراء في الأندلس (أسبانيا) ، وعن تاج محل بالهند، أليس كل ذلك من نتاج حضارتي أسبانيا والهند معجونتين في بوتقة الفن الإسلامي الوليد آنذاك.. ؟ إن التاريخ لن ينسى الحضارة العظيمة التي دمرها « جنكيز خان » علي شواطئ نهري دجلة والفرات ، وخاصة مئات الألوف من الكتب التي حوت من العلوم والفنون أرفعها وأجلها.[١١]

ونعود مرة ثانية .. وثالثة .. وألف .. لنؤكد على الاهتمام بتراث الإسلام والمسلمين ، نضمنه مناهجنا التي ندرسها لأبنائنا، في جميع مراحل التعليم، ونجعل منه محاور لا تنقطع لبرامج إذاعاتنا وتليفزيوناتنا، وكتابات مفكرينا وصحفيينا، وكذا لخطب الجمعة، وفي أحاديث العلماء في مساجدنا، كما لا ينبغي أن تهمله الأسرة بحيث تنشئ أطفالنا على قصصه حتى لا تغيب عنا في أي من مؤسساتنا التربوية، وحتى يشب أطفالنا وهم واثقون من تاريخ أمتهم وتراثها، ومن ثم لا يمكن لأية حضارة أخرى أن تطغى على عقولهم وشخصياتهم فتجعلهم يشعرون بالدونية أو الانبهار.

عاشراً : التربية .. ومعضلة المدارس الأجنبية :

ولا نحتاج هنا للتذكير بتلك الظاهرة التي تنخر في عظام بعض دولنا، وقد سبق أن قلنا بأنها تخرج لمجتمعاتنا أفرادا يختلفون في قيمهم وأحكامهم ومشاعرهم عن باقي زملائهم وإخوانهم أبناء الوطن الواحد. كما أنها ـ أي

(١١) Ibid, p.152

المدارس الأجنبية ـ ينبغي أن تذكرنا دائما أننا ضعاف بحيث سمحنا لغيرنا بأن يقرر مصير نفر من أبنائنا، على أرضنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ، وبأن يزرع في نفوسهم وعقولهم وشخصياتهم.. بل وأرواحهم، ما يشاء من أهداف تلك المدارس والتي يضعها أفراد مختصون بعيدون عن أهداف التربية في مجتمعاتنا، ومقرراتها وخططها الدراسية تأتينا عبر الحدود لا ندري عنها شيئا، كما أن أوجه نشاطها، والتي تترك آثارا لا تمحى في قطاع ليس بسيطا من اولادنا هم الذين يقررونها.

والتربويون هم أول المسؤولين عن مواجهة هذه الظاهرة، خاصة وأنه قد كتب عنها ، ونبه إليها ، نفر من أبناء أمتنا العربية الإسلامية من الغيورين على مجتمعاتهم وعلى مستقبل الأبناء فيها ، ولم يعد للتربويين أي عذر بعد ذلك. إننا مطالبون بالنزول إلى الميدان.. بحثًا واستقصاء من جانبنا، بل وتوجيها لبعض أبنائنا في مراحل الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة) بحيث يركزون بحوثهم على هذه المدارس الأجنبية.. على كل مظهر فيها كبر أم صغر، من الإدارة إلى المعلمين ، ومن الطلاب إلى المدرسين، من أهداف كل منها إلى خططها وبرامجها، بل وإلى تفتيت كل مقرر فيها إلى جزئياته الأولي، ومن ثم مقارنته بما عندنا ، لنرى إن كان يتمشى مع ما نقدم لأبنائنا أم لا، ثم إن كل صغيرة في أوجه النشاط التي تمارس داخل هذه المدارس، أو خارجها، ينبغي أن نضعها تحت ميكروسكوب البحث العلمي ، كي نوضح للجميع أهدافها ومراميها، والغرض منها.. الغرض المعلن والخفي.

ثم ينبغي أن تكون هناك دراسات تتبعية متعمقة يتعقب فيها الباحثون خريجي هذه المدارس لنرى أين انتهى بهم المطاف بعد تخرجهم، وهل اندمجوا في حياة مجتمعاتهم العادية، أم أنهم ساروا في تيار واحد منعزل عن بقية إخوانهم وزملائهم الخريجين الآخرين، وليس هذا فحسب، وإنما قد نطالب بالتعمق في دراسة آثار هؤلاء الخريجين ـ من المدارس الأجنبية ـ آثارهم على المجتمعات المحلية التي ينتمون إليها ، ويعملون في مؤسساتها ، وكذا آثارهم على مسيرة الحياة في مجتمعاتهم الكبيرة، وهل بالفعل هم يأخذون زمام المبادرة فيها بحيث

يوجهونها وجهات معينة تتعارض مع حياة تلك المجتمعات أم لا..؟؟

إن الكتابات الصحفية والمقالات الملتهبة، والمناقشات الحامية في بعض مؤسساتنا التشريعية بخصوص هذه المدارس، كما حدث في بعض بلادنا، شيئ طيب ، ولكنه لا يغني عن الدراسات العلمية المتعمقة والمتأنية، والتي يفترض أن تكون موضوعية قدر المستطاع، حتى يمكن الاعتماد على نتائجها، واتخاذها ركيزة ومنطلقًا لقرارات مفيدة ومؤثرة.

ومن جانب آخر فإننا نطالب التربويين المهتمين بمصالح أمتهم العربية الإسلامية والحريصين على مستقبل أبنائها خاصة ، ومستقبلها عامة ، نطالبهم بأن لا تقصر جهودهم عند مجرد نقد هذه المدارس ، والبحث عما قد يوجد فيها من أوجه الاختلاف بينها وبين مدارسنا العادية.

إنهم مطالبون بتقديم البدائل التي تعالج الأوضاع في هذه المدارس، وهل نقصرها ـ بالقانون ـ على ابناء طوائف الأجانب فقط، بحيث لا يسري ما بها إلى بعض أبنائنا، أم نسمح بدخول أبنائنا إياها بعد أن ندخل ـ بقوة القانون ـ من المقررات الدراسية، ومن أوجه النشاط المختلفة، ما يصلح العيب فيها ، وأن نضع لها نظامًا للإشراف والتوجيه التربوي لا يسمح لها بالانحراف عن معتقدات الأمة العربية الإسلامية، وبأن تكون ـ بالفعل تحت سمع وبصر المسؤولين التربويين في وزارات التربية والتعليم والمعارف عندنا، بل وحتى علينا واجب أن ننبه المسؤولين التنفيذيين أنفسهم إلى ذلك ، لأن الأمر ـ أولا وأخيراً ـ يتعلق بالخوف على مستقبل قطاعات ليست بالقليلة من أبناء مجتمعاتنا.

إن المسؤولين التنفيذيين في مجتمعاتنا ـ سياسيين وإداريين ـ في حاجة لمن ينبههم ويبصرهم بما يجري في مجتمعاتهم، وليس هناك من يؤتمن على ذلك مثل العلماء المخلصين لدينهم ولأمتهم، وينبغي أن تكون هناك جسور من التعاون البناء بين الطرفين.. العلماء والمسؤولين ، لصالح الأمة العربية والإسلامية، ولصالح مستقبل تلك الأمة.

حادي عشر : التربية .. وينبغي أن نتنادى :

إذا كنا نحن العرب المسلمين قد تنادينا وتعاونا للوقوف في وجه « الغزو العسكري المسلح » يوم أن هاجم واحتل أجزاء من أوطاننا، واستطعنا - بفضل الله جل وعلا - أن ننقذ تلك الأوطان ، وأن نحافظ على مستقبل أبنائنا فيها، فإننا ينبغي أن نتنادى وأن نتعاون بشأن مواجهة « الغزو الثقافي » ، لأنه ليس من المعقول أن نهب ونفزع لمساعدة بعضنا البعض يوم احتاج الأمر للجهاد والكفاح المسلح، ولبذل الأرواح والمهج، وأن نتقاعس ونسلم أمورنا لورثة أولئك الغزاة العسكريين، ونقصد بهم الغزاة الثقافيين ، مع العلم أن خطورة الأخيرين لا تقل بحال من الأحوال عن خطورة السابقين ، كما بينا خلال صفحات هذه الدراسة.

والتنادي .. والتعاون بين العلماء أشكاله معروفة، فلابد من مؤتمرات علمية وندوات تناقش فيها أوضاع التربية في مجتمعاتنا ، وتناقش فيها آثار ذلك « الغزو الثقافي » وكيف يمكن مواجهتها، ومن بعد نقاش تخرج منها توصيات لا توضع على الرفوف، أو في أدراج المكاتب ، لأن الأمر أخطر من ذلك وأكبر وأهم ، ومن هنا ينبغي أن تتابع تلك التوصيات باستمرار وبإلحاح حتى تؤتي أكلها وثمارها المرجوة بإذن الله.

إن المواجهات العسكرية بالسلاح بيننا وبين الغزاة المستعمرين لم تكن تحتمل الإرجاء أو التسويف، لأن طبيعة الصراع العسكري لا تحتمل ذلك ، أما « نعومة » الغزو الثقافي فإنها قد تخدع البعض منا فلا ينتبهون إلى ضرورة متابعة «الجهاد» ضده، ومن هنا ننبه على أن الإصرار على المتابعة واجب حتمي لا فرار منه، لأن سم ذلك الغزو لا يتوقف إلا بالقضاء على الضحية والعياذ بالله ، وطالما امتلكنا العزيمة الصادقة، والإصرار على بلوغ الهدف فإن الله - سبحانه وتعالى سوف يعيننا على الطريق.

وهو الهادي والمعين والناصر بإذنه.. سبحانه...!!!

مراجع الدراسة

مراجع الدراسة

أولا : البحوث العلمية :

١ـ أحمد صدقي الدجاني: الفكر الغربي في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد ٦٩ نوفمبر ١٩٨٤م.

٢ـ أحمد مصطفى أبوزيد : التحدي الثقافي ، ضمن بحوث الندوة الفكرية الرابعة لرؤساء الجامعة الخليجية، الدوحة ، قطر ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤١٠هـ.

٣ـ حنفي بن عيسى : الثقافة في معركة المصير.. خطر الغزو الثقافي ، ضمن بحوث الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الثالث، الكويت.

٤ـ سعيد عبدالله حارب : الغزو الفكري في الخليج العربي، رسالة ماجستير غي منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٥ـ شاكر مصطفى : التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد ٤، ١٤٠٧هـ.

٦ـ صدقة يحيى فاضل : الأهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد ٥ ، ١٤٠٧هـ.

٧ـ عبدالله العمر : التواصل الثقافي بين دول مجلس التعاون.. الواقع والمطلوب، مجلة التعاون، العدد ٣، شوال ١٤٠٦هـ.

٨ـ عبدالعزيز الجلال : خطة التنمية الثقافية لدول مجلس التعاون.. مشروع مقترح ومفاهيم مختلفة ، مجلة التعاون ، العدد ٦، شعبان ١٤٠٧هـ.

٩- عبد الكريم غلاب : التعريب ودوره في حركات التحرر في المغرب العربي، المستقبل العربي، العدد ٣٦، فبراير ١٩٨٢م.

١٠- عبدالرحمن حبنكة الميداني : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٦هـ.

١١- عبدالستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث المؤتمر السابق.

١٢- عبدالله بن عبدالمحسن التركي: تحديد مفهوم الغزو الثقافي ، ضمن بحوث ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر ، بجاية ، الجزائر ، ١٤٠٥هـ.

١٣- على عبدالحليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي السابق.

١٤- محمد عباس إبراهيم : الأبعاد الاجتماعية والثقافية للتنمية الحضرية في مجتمعات الخليج العربي، مجلة التعاون، العدد الأول، ١٤٠٦هـ.

١٥- محمد عبدالعليم مرسي : أثر التغيرات والعوامل الاجتماعية والاقتصادية في تحديد مكانة المعلم في دول الخليج العربية، مجلة التعاون، العدد ١١ ، ١٤٠٨هـ.

١٦- محمد عبدالعليم مرسي : دور التعليم العالي في تنمية دول الخليج العربي، مجلة مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد الأول ، ١٤٠٣هـ.

١٧- محمد عبدالعليم مرسي : ترشيد جهود أعضاء هيئات التدريس في مجال البحث العلمي في دول الخليج العربية، ضمن بحوث الندوة الفكرية الثانية لرؤساء الجامعات الخليجية، جدة، مكتب التربية

العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ.

١٨- محمد عبدالعليم مرسي : دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الريف في جمهورية مصر العربية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٩- محمد الرميحي : واقع الثقافة ومستقبلها في أقطار الخليج العربي، المستقبل العربي، العدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م.

٢٠- محمد الرميحي : الإبداع الثقافي ومعوقاته في أقطار مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد الأول، مارس ١٩٨٣م.

٢١- محمود أمين العالم : الغزو الثقافي والتخطيط المستقبلي للثقافة العربية ، ضمن بحوث الخطة الشاملة للثقافة العربية.

٢٢- نايف بن ثنيان آل سعود : المستشرقون البريطانيون وأثرهم في توجيه السياسة التعليمية في العالم العربي ، مع دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي (دول مجلس التعاون) ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٠هـ.

٢٣- حسن إبراهيم عبد العال: أثر التربية الإسلامية في الحد من الجريمة، رسالة الخليج العربي، العدد ١٤ ، السنة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

٢٤- عبد الحليم منتصر : الفكر العلمي والحضارة الإنسانية (ضمن بحوث ندوة الحضارة الإسلامية ودور الشباب المسلم).

٢٥- عبدالمجيد صالح : حقوق الطفل المسلم بين الشريعة والقانون (ضمن بحوث ندوة ثقافة الطفل المسلم ، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم) البحرين، ١٩٩٠م.

٢٦- محمد الأحمد الرشيد : احفظوا آية واحدة وطبقوها.. احفظوا حديثا

واحدا وطبقوه، رسالة الخليج العربي، العدد ٢٨ ، السنة الخامسة ، ١٤٠٦هـ.

ثانيًا : الكتب العربية :

١- إبراهيم عصمت مطاوع : أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.

٢- أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم، الكويت ، ط ١٣، ١٤٠٢هـ.

٣- أبو الفتوح رضوان وآخرون : المدرس في المدرسة والمجتمع، الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٧٨م.

٤- أ. ك. أوتاوي : التربية والمجتمع، ترجمة وهيب سمعان وآخرين، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

٥- حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.

٦- حسن ابراهيم عبدالعال : التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

٧- خالد محمد خالد: رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت، (بدون تاريخ).

٨- زكي محمد اسماعيل : الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٢هـ.

٩- سعد مرسي احمد، سعيد اسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٠- سويفت د. ث : اجتماعيات التربية : دراسة تحليلية، ترجمة سمير حسانين، مؤسسة سعيد للطباعة، طنطا، ط٢، ١٩٧٧م.

١١- عبدالحليم عويس : ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، النادي الأدبي، الرياض ، ١٣٩٩هـ.

١٢- عبدالرحمن حمود السميط : رحلة خير في إفريقيا .. رسالة إلى ولدي، مطبعة الفيصل، ١٤١٤هـ.

١٣- عبدالرحمن النحلاوي : التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ.

١٤- عبدالغني عبود: الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م.

١٥- عبدالغني عبود : الأيديولوجيا والتربية .. مدخل لدراسة التربية المقارنة ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م.

١٦- عبدالرحمن عميرة : رجال أنزل الله فيهم قرآنًا، دار اللواء ، الرياض.

١٧- عبدالمنعم الصاوي: عن الثقافة، دار العلم (بدون مكان نشر) ، ١٩٦٦م.

١٨- عباس محمود العقاد: عبقرية محمد ، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٩م.

١٩- عدنان صالح باحارث : مسؤولية الأب في تربية الولد في مرحلة الطفولة، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة ، ١٤١٢هـ.

٢٠- علي عبدالحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية ، الكويت، (بدون تاريخ) .

٢١- علي خليل مصطفى أبو العينين : أصول الفكر التربوي الحديث بين

الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

٢٢- علي خليل مصطفى أبو العينين : القيم الإسلامية والتربية، مكتبة ابراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ.

٢٣- فاروق مصطفى اسماعيل : الأنثروبولوجيا الثقافية (بدون دار نشر) ، الدوحة، ١٩٨٦م.

٢٤- فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٥- فؤاد البهي السيد : علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م.

٢٦- ماجد عرسان الكيلاني : هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٧- محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر، الدار العلمية ، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

٢٨- محمد لبيب النجيحي: الأسس الاجتماعية للتربية ، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٧٨م.

٢٩- محمد عبدالعليم مرسي: أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.

٣٠- محمد عبدالعليم مرسي : التربية وكارثة غزو الكويت، هجر للطباعة ،النشر، القاهرة، ١٤١٢هـ.

٣١- محمدة عبدالعليم مرسي (مترجم) : التربية في اليابان المعاصرة، تأليف إدوارد ر. بوشامب، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض، ١٤٠٧هـ.

٣٢- محمد عبدالعليم مرسي : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب ، الرياض، ١٤١٠هـ.

٣٣- محمد عبدالعليم مرسي : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٣٤- محمد عبدالعليم مرسي : ميسرات البحث العلمي عند المسلمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ.

٣٥- محمد عبدالعليم مرسي : غزو الكويت كارثة المسلمين الجديدة، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.

٣٦- محمد عبدالعليم مرسي : علماء الأمة الإسلامية يواجهون صدام حسين، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١١هـ.

٣٧- محمد عبدالعليم مرسي : قدسية الحرمين الشريفين والتضامن الإسلامي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ.

٣٨- محمد عبدالعليم مرسي: نزيف العقول البشرية ، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٣٩- محمد عبدالعليم مرسي: هجرة العلماء من العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد ب سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٤٠- محمد عبدالعليم مرسي : التربية والتنمية في الإسلام ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ.

٤١- محمدم عبدالعليم مرسي : التعليم العالي ومسؤولياته في تنمية دول الخليج العربية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٤هـ.

٤٢- محمد قطب : منهج التربية الإسلامية (جزآن) ، دار الشروق ، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ.

٤٣- محمد الرميحي : الخليج ليس نفطًا .. دراسة في إشكالية التنمية والوحدة، شركة كاظمة، الكويت، ١٩٨٣م.

٤٤- محمد نور سويد : منهج التربية النبوية للطفل، مكتبة المنار الإسلامي، الكويت، ط٣، ١٤١٠هـ.

٤٥- منير المرسي سرحان : في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.

٤٦- محمود قمبر وآخران : دراسات في أصول التربية، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ١٤٠٩هـ.

٤٧- ماذا يريد التربويون من الإعلاميين (ندوة) مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ثالثًا : الكتب الأجنبية :

1- Earl Roab, Gertrude Joeger: Major Social Problems, Harper . Ran Publishers, N.Y, London, 1964.

2- Eugene W. Kelly Jr: Beyond Schooling: Education in a Broader Context, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, U.S.A. , 1982.

3- Golden Smith: The Heritage of Man, A History of the World, U.S.A. , London, 1960.

4 - Kinder. J. A: School Public Relations, Communicating to the Community, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, U.S.A., 1982.

5- Ricardo L. Garica: Education For Cultural Pluralism, Global Roots Stew, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Blomington, Indiana, U.S.A., 1981.

6- Robert M. Hutchins: The Basis of Education (Readings in the Socio-Cultural Foundations of Education,), Omni Press, Inc., Florida, 1975.

7- Robert R. Bell (Ed): Marry & Johnson: Socialization (in (The Socialogy of Education) Temple University, The Dorsey Press Inc., IL, U.S.A., 1982.

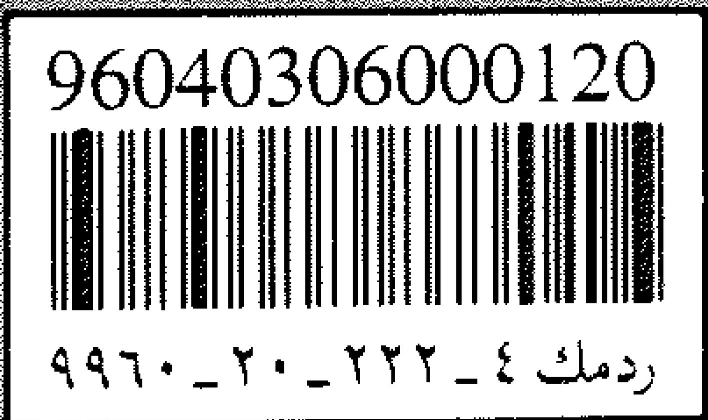
8- Ruth Shoral Loven: The American Family, Thomes Y. Grwell Campany , N. Y, (3rd Ed), 1984.

9- Shintaro Ishihara: The Japan That Can Say No, Why Japan Will Be First Among Equals, Simon & Shuster, N.Y., & Tokyo, 1991.

10- Thomas E. Curtis: Aethentic Education & The Quality of Life, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Blomington, Indiana, U.S.A., 1981.

11- William Boldstein : Controversial Issues in Our Schools, Phi Detla Kappa Eductional Foundation, Bloomington, Indiana, U.S.A., 1980.

12- The World Almanac & Book of Facts 1994, Edited by Robert Famightti,: Richard W. Eiger, New Jersey, U.S.A., 1994.


96040306000120
ردمك ٤_٢٢٢_٢٠_٩٩٦٠